



هشام علي حافظ
جودت سعيد
خالص جلبي

25.5.2012

كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد

طبعة جديدة
مزيدة ومنقحة



هشام علي حافظ
جودت سعيد
خالص جلبي

كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد





كيف تفقد الشعوب
المناعة ضد الاستبداد


mohamed khatab

LOSING IMMUNITY AGAINST TYRANNY

By Hisham Ali Hafez
Jawdat Said
Khales Jalaby

First Published in November 2001
Second Published in March 2002

BEIRUT - LEBANON
info@elrayyesbooks.com • www.elrayesbooks.com

ISBN 9953 21 036 5

الغلاف: تصميم محمد حمادة

الطبعة الأولى: تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١

طبعة ثانية منقحة ومزيدة آذار/مارس ٢٠٠٢

المحتويات

تعريف بالكتاب

ولدت فكرة الكتاب وعنوانه حينما اطلعنا على النص الأساسي لما كتبه إيتيين دي لابواسييه الفيلسوف الشاب في النصف الثاني من القرن السادس عشر. واللافت للنظر هذه العبقرية المبكرة وهذا التحليل العجيب لآلية الاستبداد. ولذا فالكتاب الحالي اشتغل عليه ثلاثة أشخاص. هشام علي حافظ بشعره المثير في بنائه وعمق معانيه، وقد علّق عليه جودت سعيد، كما تناوله خالص جلبي بالتحليل من خلال مقالات نشرت في جريدة «الشرق الأوسط».

يتألف الكتاب إذن، فضلاً عن المقدمة الجميلة التي أتحف فيها الدكتور جمال البنا العمل، من أربعة أقسام، القسم الشعري وهو من كتابة الأستاذ هشام علي حافظ المؤسس لمطبوعات «الشركة السعودية للأبحاث والنشر»، والنص الأساسي للفيلسوف بواسييه الذي نقله إلى العربية الأستاذ مصطفى صفوان، وتعليق المفكر جودت سعيد على النص، والدكتور خالص جلبي الذي كتب ١٧

مقالة حول بحث آلية الاستبداد وكيفية التخلص منه. ووجد فريق العمل أن هذا العنوان يقرب المشكلة، أي فقد المناعة ضد الاستبداد، ما يشبه مرض الإيدز وكيفية حقن الوعي بمصل الحرية الاجتماعي.

فريق العمل

فصول البحث

١ ـ إنسان ما بعد الموحدين (عندما تنطفىء الحضارة تنتج الإنسان المريض).
٢ ـ إرادة العبودية أو العبودية المختارة (في محاولة لفهم آلية الطغيان).
٣ ـ الطبيعة البشرية والطغيان.
٤ ـ عبادة الذات الفانية.
٥ ـ أقدم وأخطر مشكلة في تاريخ الجنس البشري (نظام الحكم).
٦ ـ باسم الشعب.
٧ ـ المعرفة والسلطة (لا يمكن استعباد أمة إلا باستعدادها الخفي لذلك).
٨ ـ جدلية تطور المجتمع.
٩ ـ أثر التعليم في التحرر (النموذج الياباني والأفغاني).

يا حسرة على العباد...

تدور التعليقات والبحوث التي يتضمنها هذا الكتاب حول الرسالة التي كتبها المفكر الفرنسي **لابواسييه** «العبودية المختارة» في منتصف القرن السادس عشر، وإن لم تنشر في ما نشره مونيبي صديق لابواسييه بعد وفاته في العام ١٥٦٢م لأنه رأى فيها «حياكة أدق وألطف من أن تخرج إلى الجو الخشن السائد وقتئذٍ» ولم تنشر إلا عام ١٨٣٥م، وفيما نعلم فإنها لم تنشر بالعربية إلا في هذا الفصل الذي ترجمه الأستاذ مصطفى صفوان ووضع له هوامش ثمينة تلقي ضوءاً على الأحداث والموضوعات التي عالجها لابواسييه..

والرسالة في قرابة ستين صفحة من القطع المتوسط، فلا تعد كبيرة، وإن صيغت بأسلوب يعبر أصدق تعبير عن أسى المفكر الحر جراء هذه الظاهرة التي تثير العجب، ظاهرة استسلام الجماعات والجماهير لنير المستبد، بل تمجيده، مع أنه قد لا يكون موهوباً، وليس في يده

من السلطات والقوة والنفوذ إلا ما قدموه هم أنفسهم إليه ولولاهم ما كان شيئاً مذكوراً. هذه هي المأساة التي تصغر أمامها أي مأساة أو تراجيديا أخرى والتي صاغها بأسلوب عاطفي يقرب من الفن قدر ما يبعد عن المعالجة الجافة. «ولكن ما هذا يا ربي؟ كيف نسمي ذلك؟ أي تعس هذا؟ أي رذيلة، أو بالأصدق أي رذيلة تعسة؟ أن نرى عدداً لا حصر له من الناس، لا أقول يطيعون بل يخدمون، ولا أقول يحكمون بل يستبد بهم، لا ملك لهم ولا أهل ولا نساء ولا أطفال، بل حياتهم نفسها ليست لهم! أن نراهم يحتملون السلب والنهب وضروب القسوة، لا من جيش ولا من عسكر أجنبي ينبغي عليهم الذود عن حياضهم ضده، بل من واحد لا هو بهرقل ولا شمشون، بل هو خنث، هو في معظم الأحيان أجبن من في الأمة وأكثرهم تأنثاً، لا إلفة له بغبار المعارك، وإنما بالرمل المنثور على الحلبات (إن وطأها)، ولا يحظى بقوة يأمر بها الناس، بل يعجز عن أن يخدم ذليلاً أقل من أنثى! أنسمي ذلك جبناً؟ أنقول إن خدامه حثالة من الجبناء؟».

إن ميزة رسالة لابواسييه لا تعود إلى الأهمية الكبرى لموضوعها، ولا للمعالجة الأخاذة والمطعمة بشواهد من التاريخ والطبيعة، ولكن أيضاً لأنها صدرت في وقت كان الاستبداد باسطاً فسطاطه متقلداً صولجانه... والناس يستسلمون طائعين كأنما هم قطيع من الخراف.

مع هذا كله، فلو لم يكن لابواسييه مفكراً عاشقاً للحرية رافضاً للقيود والأغلال، ولو كان يعالج تأريخ البشرية كما يعالج الطبيب المرضى من دون إحساس، ومن دون تأثر عندما يبتر الأعضاء أو يتابع المريض وقد استشرى مرضه فجعل الكبد كلوفة والرئة كمصفاة، والقلب وقد انسدت قنواته، وتضخمت بعض الأعضاء

فأصبحت الساقان كساقيْ فيل وانتفخ البطن كالطبل... نقول لو أنه عالج ظواهر المجتمع البشري كطبيب لا كشاعر لما تملّكه الأسى ولما تفطّر قلبه حزناً وكمداً.

فماذا يعرض لنا تاريخ الإنسان أكثر من مشاهد الاستبداد والتحكم والطغيان؟ وماذا يجد أكثر من الحروب التي تُقتل فيها الألوف المؤلفة، ويشوّه فيها أضعاف ذلك وتدمر المدن وتخرب البيوت الآمنة؟ ولا يحدث هذا مرة، ولكن مرات، ولا لشعب واحد ولكن لكل الشعوب ولا يقتصر على الماضي، ولكنه يظل حتى اللحظة الراهنة التي شاعت فيها الحريات وامتدت حقوق الإنسان. بل لقد ظهر أخيراً العديد من عتاة الطغيان يتلاعبون بمصائر المنطقة ويرتهنون شعوبها في شبكة محكمة من التجسس والإرهاب والقتل والتعذيب بحيث عجزت الجماهير تماماً عن المقاومة، بل لقد عجزت أكبر القوى في العالم أمام خداعهم ومكرهم وتحايلهم.

وهل هناك أعجب من أن يظهر قائد لا يدخل معركة إلا خسرها، ولا يرسم خطة إلا أفسدها، ويحكم بالمعتقلات والسجون والتعذيب ثم ينهزم هزيمة ساحقة ماحقة تضع أعداءه في صميم بلاده وتسلبها مقدساتها ثم يقال له بطل القرن، وكل قرن، وعندما مات شيعت جنازته بضعة ملايين تجهش بالبكاء!

لقد عجز المتنبي عن أن يفهم ما هو أقل من هذا بكثير وقنع بأن يقول: «إنه ذم البريء»:

وأسود مشفره نصفه ... يقال له أنت بدر الرجى
فما كان مدحاً له ... ولكن كان ذم الورى!

ويحدث أن تفسح الطبيعة أمام الشعوب سبل التحرّر فتتيح لهم الصحراء الواسعة التي يثير هواؤها الحرية وتحول طبيعتها دون بناء الحصون والسجون إلخ. ولكن هذا لا يمنع من ظهور المستبد بطريقة أو بأخرى، فقد وجد في صحراء نجد قديماً حجر بن الحارث الذي سيطر عليها وحكم قبائلها، وعندما تمرّد عليه بنو أسد حاربهم وهزمهم وأنف أن يقتل أسراهم بالسيف وإنما انهال عليهم ضرباً بالعصا حتى ماتوا وقيل فيهم «عبيد العصا»، وأسوأ، وأذل من قتلهم بالعصا ما اعتذر به شاعرهم وما حاول أن يكسب به قلب هذا المستبد الطاغي:

ومنعتهم نجداً فقد حلوا على وجل تهامة
أما تركت تركت عفواً أو قتلت فلا ملامة
أنت الملك فوقهم وهم العبيد إلى القيامة
ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الخزامة

وكان بعض جبابرة العرب الأقدمين يقيسون عزهم بإذلالهم للآخرين، ومن ثم قيل «لأحر بوادي عوف» لأنه (عوف) يسود على من يحل بواديه، فيصبح كالعبد سواء بسواء.

وحتى ذلك الامتياز البغيض الذي كان يتمتع به لوردات وبارونات الأراضي في العصور الوسطى، «حق الليلة الأولى» الذي كان يعطي السيد الحق في قضاء الليلة الأولى مع كل عروس يعقد عليها أحد «الأقنان» الذين كانوا يقومون بفلاحة الأرض. وظل موجوداً حتى القرن الرابع عشر. هذا الامتياز وجد في الجزيرة العربية، فأمر «غمليق» ملك طسم وجديس أن لا تزف فتاة من جديس إلى أهلها حتى تزف إليه أولاً.

وهذه الصور من الممارسات توضح أن طبيعة ودناءة الاستكبار والفجور واحدة في الشرق والغرب، في أوروبا، وفي الجزيرة العربية، وأنها حدثت في الأقطار على تباعدها واختلاف أجوائها وأقوامها.

ذلك أن الكلم «من شيم النفوس»، وأنه مغروس في الطبيعة يظهر عندما تسمح له الظروف، ويمكن أن يستمر بصور متعددة، أو مخففة. فإن المدة طويلة ما بين عبيد بن الأبرص ـ شاعر بني أسد ـ الذي قال الأبيات السابقة والمتنبي الذي قال:

فـمـا في سـطـوة الأربـاب عـيـب
ومـا في ذلـة الـعـبـدان عـار

فإذا كانت الممارسة قد انتهت، فإن الفكرة هي هي.

عوامل عديدة أدّت إلى هذا الموقف الذي جعل الجماهير تستسلم لطغاتها، وتسخر من منقذيها وتستحق أسى القرآن ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾ [يس: ٣٠].

من هذه العوامل، أن الملايين نشأوا في مهاد الفاقة فتعرضوا للجوع والعري وانتاشتهم الأمراض وتأخر نموهم العقلي، والبدني والنفسي، وهناك من البحوث ما يثبت أن عدم تغذي الطفل ببروتين حيواني يحول دون نمو خلايا معينة في المخ ويؤدي إلى تضاؤل الذكاء، ولا يمكن تعويض ذلك ولو سنحت الفرصة لتغذية كاملة بعد أن أمضى طفولته محروماً.

فهل من العجب أن ينشأ هؤلاء وقد عدموا الجرأة وفقدوا الذكاء

وانطمست عيونهم وهزلت صحتهم فلا يملكون إقداماً ولا يستطيعون مقاومة، والحل الوحيد أمامهم هو الاستخذاء للحاكم وأن تكون الطريقة للتقدم هي تملقه والتفاني في طاعته؟

إن الفاقة والجهالة مسؤولان عن وجود هذا الجيش الجرار من العبيد الذين لا يكبلون بأغلال الحديد، ولكنهم يفقدون المبادأة والمقاومة.

وقد يكون من سوء حظ الجماهير والجماعات أن بعض دواعي قوتهم تتحول لتكون أسباباً للهيمنة عليهم. فهم كآحاد لا قيمة لهم أمام النظم الإدارية والحكومية التي تفرض نفسها عليهم، ولكنهم ما أن يتجمعوا ليكتسبوا قوة، وليعوضوا باتحادهم ضعفهم كآحاد، حتى تسيطر عليهم روح جمعية تفقدهم الاتزان وتجعلهم كقطيع يفقد كل فرد فيه إدراكه واتزانه ويتحرك مع الآخرين مدفوعاً بحركتهم، وكأنه موجة صغيرة من خط الموج العظيم الذي يتقدم ويتعالى ولا يقف أمامه شيء. وعندئذ يقودهم الخطيب المفوه والممثل القدير يسيرون وراءه ويرددون صيحته.

وقد وصف الشاعر القدير شوقي، الجماهير في عهد كليوباترا، وكيف يوحون إليهم فينطلي عليهم...

اسمع الشعب ديون	كيف يوحون إليه
ملأ الجو هتافاً	بحياة قاتليه
أثر البهتان فيه	وانطلى الزور عليه
يا له من ببغاء	عقله في أذنيه

وما أكثر ما يتكرر في بلاد العرب ما رد به زميله:

حابى سمعت كما سمعت وراعني
أن الرمية تحتفي بالرامي
هتفوا بمن شرب الطلا في تاجهم
وأصار عرشهم فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئاً
ولو استطاع مشى على الأهرام!

في كتابنا «مسؤولية الانحلال بين الشعوب والقادة كما يوضحها القرآن الكريم» عالجنا في ما عالجنا هذه النقطة، ومع أن الكتاب ظهر سنة ١٩٥٢م، فإن شيئاً لم يتغير في هذه القصة طوال هذه الأعوام لأنه ميراث ألوف السنين ولا يمكن إزاحته بسهولة.

لقد عجبنا كما عجب لابواسييه ـ من العبودية المختارة ـ فمن المعقول أن يحارب الكبراء والمترفون والأغنياء والكهنة ومن إليهم الأنبياء والرسل والمصلحين الذين يحررون القطيع البشري، ويبددون ظلمات الجهالة المطبقة عليهم ويرفعون عنهم إصرهم والأغلال التي عليهم، أما أن تشارك الشعوب في ذلك، وتظاهر ظالميها على محرريها فهذا أمر عجاب.

لكي نفهم كيف يتأتى ذلك، يجب أن نقدّر قيمة العوامل الضاغطة على الشعوب، وفعل العمل المنظم الذي ينتظم جماهير الناس ويسلط بعضهم على بعض، وأثر الترويض الذليل الذي يفرض فرضاً على الأغلبية الساحقة من الناس من المهد إلى اللحد.

لهذه العوامل قوة طاغية. ولما كانت القلة هي التي تنظمها لحسابها فإنها تهدف منها إلى تحطيم كافة قوى المقاومة في النفس ومحو

المميزات الفردية، وصهر الشخصية الخاصة في بوتقة القطيع، لا يستثنى من ذلك الأعمال التنظيمية ذات المظهر الشعبي، كالانتخابات مثلاً، التي تكمن وراءها القلة وتديرها لمصلحتها.

انظر إلى قوة العمل المنظم في الجيش والبوليس، ولماذا تحارب تلك الجموع الكثيفة، والقطعان المقادة ــ الجيوش ــ بعضها بعضاً؟ إن من المؤكد أن الجنود لا يفهمون شيئاً في السياسة العليا، ولا يرون مبرراً لكي يضحوا بنفوسهم الغالية ويقتلوا غيرهم، وإنما قيل لهم اذهبوا، فذهبوا. صدرت إليهم الأوامر، فانتظموا في موكب الموت أشد انسياقاً من قطيع من الحملان، يذهب إلى المرعى. ولعلهم ليسوا في حاجة دائماً إلى إصدار الأوامر، لأن الأوامر قد غرست أغواراً عميقة في نفوسهم وتفكيرهم، ومرنتهم مراناً آلياً، فما أن يرى الجندي ضابطاً حتى يرفع يده بالسلام العسكري، من دون أن يطلب إليه ذلك، وإذا عوتب في أمر ما صرخ بأعلى صوته أنه «عبد المأمور» من دون أن يستشعر مهانة أو ذلة.

فإذا أردت أن تعرف مصدر هذه الطاعة وسرّها، فأنعم النظر في المران العسكري، وحلل طرق «الضبط والربط» ابتداءً من ليلة التجنيد الأولى، حتى الليلة الأخيرة. إن كل حركة فيها، من قص للشعر، أو إلزام بالتقشف، أو أمر بالطاعة العمياء، أو فرض لأساليب الضرب والشتم، أو تجريد لحقّ الاعتراض، ومنح من هو فوقه «بشريط» حق الحبس، والإيذاء، والعقاب، ثم بعد ذلك هذه «الطوابير» المتتالية.. إن كل إجراء من هذه الإجراءات إنما يقصد به الإذلال وهدم الشخصية، والبطش بأي معنى خاص أو اعتزاز أو تحرر، وتحسين الطاعة والنظام كأنها الفضائل الحقة. هذه هي الوسائل التي تجعل من جندي الجيش «نفراً» أو «دفعة» وتصيّره رقماً يندمج بدون تمييز

في الرقم الكلي فلا ينظر إليه كإنسان أو إرادة، وإنما أداة وحسب، فإذا صدرت الأوامر إليه بإطلاق الرصاص أطلقه، ولو على آله وإخوانه، وإذا قيل له «اضرب يا عسكري» شرع عصاه وأخذ يضرب بلا رحمة، وإذا طلب إليه اقتياد عشرة أو عشرين من الشحاذين أو الباعة المتجولين، قادهم من دون أن تنال منه حالتهم البائسة وفقرهم المدقع، كأنما هو صوت القضاء والقدر! فعندما حاول الخديوي توفيق ورياض باشا تهدئة ثائرة الجنود المتمردة في الآلاي الثالث قبيل مظاهرة عابدين (٩ أيلول/سبتمبر سنة ١٨٨١م) المشهورة، وأطال معهم الحديث، ضرب البروجي نوبة «سونكي ديك» فركّب الجنود فوراً السونكي في رؤوس بنادقهم. وكانت هذه الحركة انتصاراً باهراً للأوامر المجردة ولسلطة البوق على كل العواطف الشخصية والمشاعر الخاصة، التي لا بد أثارها حضور سيد البلاد الشرعي، واسترضاؤه للجنود.

وليس من الضروري أن يكون الفرد عضواً مجنداً في الجيش لكي تمحى شخصيته. إن نشأته في بيئة قاسية ضيقة رتيبة تنتهي به إلى النتيجة نفسها، كما في أبناء الرقيق الذين كانوا يربون في بيئة العبودية وأبناء الطبقات الدنيا الذين يربيهم آباؤهم ليكونوا خدماً لأبناء سادتهم، كما أنهم هم أنفسهم خدم لهؤلاء السادة. وهو وضع للأسف الشديد منتشر في كثير من البيئات الشعبية التي ينشأ جمهورها على الاستكانة إلى الواقع والرضا به، وتكيف شخصياتهم على هذا الأساس.

يهتف مصلح جريء بالفلاح المسكين الذي قضى سحابة عمره يحرث قطعة صغيرة من الأرض ارتوت بالعرق أكثر مما ارتوت بالماء «أيها الفلاح الذي تشق الأرض بمحراثك، لِمَ لا تشق به قلب

مستعبدك؟»(*). فماذ يجد؟ يجد ابتسامة بلهاء، لا فهم ولا صدى ولا استجابة، ويحس كأنه يتكلم بلغة أجنبية. وإذا أوعز الملاّك إلى هؤلاء الفلاحين أنفسهم بقتله قتلوه، ولن يطلبوا لذلك إلا ثمن «العيار». ومن أجل هذا لا يخشى الملاك المصريون دعاة الشيوعية في الريف المصري البائس، لأنهم يعرفون أن «دية» كل داعية هي بضعة قروش!

لقد انحدرت العبودية إلى هؤلاء الفلاحين لا في أصلاب آبائهم وأجدادهم ـ رقيق الأرض السابقين ـ فحسب، ولكن أيضاً في ثنايا الترويض التربوي والنظام الاجتماعي والاقتصادي الذي يفترض وجود سادة وعبيد. وما دام مثل هذه النظم موجوداً، فلا بد أن يوجد العبيد في شكل فلاحين وأجراء، لأن العبد كائن اجتماعي، وليس كائناً طبيعياً (وهل يوجد في مملكة النبات والحيوان سادة وعبيد؟). وحياة هذا الكائن في بقاء النظام، وموته في هدمه، وذلك ما اهتدى إليه ببداهة الفنان توفيق الحكيم في «شهرزاد»، إذ عندما يخشى العبد أن يقتله الملك، تسأله شهرزاد:

ـ هل تعرف كيف يقتل العبد؟

ـ كيف...؟

ـ بتحريره...؟

* * *

(*) الكلمة تنسب أصلاً للسيد جمال الدين الأفغاني.

وفيما عدا ذلك فهناك عوامل أخرى تجعل الشعوب والجماعات تظاهر مستعبديها، وتقاوم محرريها، وتستكين إلى الوضع القائم على ظلمه، وتنفر من الوضع الجديد على عدله.

من هذه العوامل أن القلة الحاكمة، دائماً غنية لديها المال. وهي تصطنع فريقاً كبيراً من غمار الشعب تمنحه القليل من المال وتبيحه جزءاً من السلطة فيكون لها الخادم المطيع والحارس الأمين. وقد كان الجنود قديماً مرتزقة تشرع رماحها لحساب سيدها، تحارب من حاربه وتسالم من سالمه، ومثل هؤلاء الجنود المرتزقة نظار المزارع والتفاتيش ووكلاء الدوائر الذين يتعسفون في جمع القروش لسادتهم من الفلاحين ويتفننون في طرق العسف والظلم إرضاء لرؤسائهم، ومثلهم أيضاً هذا الجيش اللجب الذي يستخدمه الرأسماليون من رؤساء عمال وأمناء مخازن، وبوليس سري، ومراقبي حسابات إلخ، ومهمتهم جميعاً استثمار الثروة الكبيرة وتنميتها وحفظها والدفاع عنها. وبهذه الطريقة الشيطانية يضمنون أن يعمل رؤساء العمال ـ وهم من العمال أولاً وآخراً ـ لحسابهم لا لحساب العمال، وأن يضعوا في خدمتهم خبرتهم الشعبية وفهمهم لطرائق العمال. وقس على ذلك بقية الرؤساء في كل الطوائف الذين يُنتزعون من الغمار ليصبحوا حاشية الرأسمالي والكبير ووسيلته في حكم الشعب.

وقد يظن أحد أن من الممكن أن يخدم شخص ما الرأسماليين السادة، ويضع نقودهم في جيبه ثم يستغفلهم. وهذا مستحيل، لأنه لن يكون حراً، وستقيده طبيعة العمل واللوائح والنظم وطرق الجاسوسية. فضلاً عن أن أموال الرأسماليين محروسة بملكات الحرص والشح والجشع وهي ملكات حساسة يقظة، لا يمكن أن تستغفل. وما من رأسمالي يعطي أجراً إلا وهو يتأكد أنه سيكسب

أضعافه باسترقاقه للموظف وتحكّمه فيه. وهو مصيب ولا شك.
وقد ثبت أن كون «الموظف» من الطبقة نفسها التي يسلط عليها ليس من شأنه أن يعرّضه للتفريط في حق الرأسمالي، أو الميل إلى جانب طبقته. بل على العكس، يكون أشد إفادة للرأسماليين من غيره، لأنه سيكون من ذوي الخبرة المباشرة. وقد كان أشد الرقباء عنتاً للصحافة وتضييقاً على الكتاب، هم من كانوا من قبل صحافيين أو كتاباً!

وأغلب الظن أن العبيد والغلمان الذين أطلقهم سادة ثقيف في أثر محمد (ص) عند عودته من رحلة الطائف، لو تُركوا لأنفسهم لآمنوا ولجمعتهم به أكثر من آصرة واحدة. ولكن وضعيتهم فرضت عليهم حربه فحاربوه.

وكما يستأنس الإنسان فصائل من الحيوان، ليستخدمها ثم يذبحها، أو ليحارب بها الفصائل الأخرى، فكذلك يستأنس الرأسماليون أفراداً من الطبقات الدنيا ويطلقونهم عليها، وهنا يحدث في المجتمع الإنساني ما يحدث في مملكة الحيوان، فأشد الحيوانات على الذئاب هي الكلاب: فصيلتها المستأنسة، وأشد الموظفين على الفلاحين والعمال هم الطبقة المباشرة لهم المستأنسة منهم، وقد ترى في الصور التاريخية تابعاً للملك يحمل بازي الملك المدرب على الصيد، وهي صورة تمثل استئناساً مزدوجاً، بل لعل التابع المستأنس أشد استحقاقاً للنظر من البازي المستأنس، فإذلال وحش قد لا يكون شيئاً، ولكن إذلال نفس وفكر شيء يستحق التفكير، لا سيما أن الإنسان المستأنس لا يقلّ في التمسك بوضعيته المهينة عن الحيوان المستأنس وتنقلب في ناظريه مقاييس الأشياء. فالسيد الحقيقي في نظر الخادم هو السيد القاسي، الشديد، المبذر، الذي ينفق بسخاء على ملذاته،

ولا يقصر في إمتاع نفسه، ويحيا حياة السادة في نظر الخادم. ويزلزل هذا المعنى قصد السيد واعتداله، فإذا تواضع فنزل إلى درجة ملاطفة الخدم، فإن معنى السيادة يصاب بصدمة تهدده بالزوال وبأن يحلّ محله احتقار وتهاون السيد، ومن قبل قالت إحدى الشاعرات:

بُنــي الحب عـلــى الجور فــلــو
أنــصــف المحــبــوب فيه لــســمــج(*)

ومن هذه العوامل أن الطبيعة الإنسانية تستجيب لضروب الضغط والقسر ما دامت محتومة عليها. وهي ككائن حيّ تكيف نفسها حسب البيئة الجديدة، حتى لا تهلك. وكما يكيّف الجسم نفسه عند فقْد عضو فتعمل الأعضاء الأخرى، فكذلك تدفع إرادة الحياة الغريزية الغلاّبة في النفس الإنسانية إلى الاستجابة للوضع الاجتماعي وتكييف النفس على أساسه. بل وقد تزيد فتبدع له فلسفة الخضوع والاستخذاء بحيث يجد الفرد مبرراً ويحس التذاذاً ويستشعر الزهو في الوضعية الجديدة، وهو المعنى الذي استشفه المتنبي:

قـد تـعـيـش الـنـفـوس في الـضـيـم حـتـى
لـتـرى الـضـيـم أنـهـا لا تـضـام

ويبدع من أتفه الأشياء اعتزازاً حتى من الأمور التي من شأنها أن تصم صاحبها بالهوان والصغار، على حد قول الشاعر: «لي لذة في ذلتي وخضوعي».

(*) ينسبونه إلى علية بنت المهدي ـ أخت هارون الرشيد. والله أعلم!.

على أن التابع في العادة لا يعدم أسباباً للزهو الرخيص، فما من شك في أن «الأسطى» خير من العامل، وأن البائع في محل يتسامى على البائع المتجول وهذا بدوره يرفض أن يتساوى مع ماسح الأحذية. وعندما يرفع حاجب المحكمة صوته بكلمة «محكمة» فيستجيب له الناس بالوقوف، يرضي ذات نفسه، ويعوض حقارة وظيفته. ولا يهمه بالطبع إذا كانت المحكمة عادلة أو ظالمة، بل لعله يسر إذا كانت الأحكام قاسية لأنها أبلغ في الدلالة على سلطة المحكمة وهيبتها، وبالتالي على أهمية النصيب الضئيل جداً الذي له فيها بصفته حاجباً!! كما يشعر كل من العسكري وناظر العزبة بأهميته أمام البائع المتجول، والفلاح. ولما كان للخضوع للمأمور أو المالك ثمن لا بد منه للحصول على تلك الأهمية الوظيفية أمام البائع المتجول والفلاح، فهذا الخضوع يؤدّى أولاً بغضاضة، ثم بقبول، ثم برضا، ثم يثير بعد ذلك زهواً والتذاذاً قدر تبلد المشاعر الأصلية وزيادة المشاعر الوظيفية، وبتأثير ترابط الأشياء وتداعي المعاني، ويصبح جزءاً لا بد منه في العملية كلها. ومن هنا، نفهم مغالاة بعض الناس في خدمة سادتهم ورؤسائهم حتى ليفوقوا سادتهم أنفسهم ويصبحوا «ملكيين أكثر من الملك» كما يقولون، ذلك لأن هؤلاء الأتباع يعملون بوحي مزدوج من لذة الخضوع، واستكمال المنفعة. ولو قضي على سادتهم بالخدمة لصاروا مثلهم، لأن النظام يطولهم جميعاً ويسلكهم في حبله. فالنبيل في العهد القديم كان يستشعر لذة في خدمة الملك قدر ما كان يستشعر الفلاح لذة في خدمته. والمأمور حالياً يقف «زنهار» أمام الحكمدار، كما يقف العسكري أمام المأمور. وكل منهم لا يرى في هذا ضيراً، بل يستشعر زهواً لأن التحية العسكرية جزء من نظام يمنحه صنوفاً من الاعتزازات والتسلطات.

ولقد نتصور أن بيئة عظيمة الانحطاط كتلك التي يعشش فيها البغاء كفيلة بتحطيم كبرياء أصحابها وقتل كل أنواع الاعتزاز في نفسهم. ولكن الواقع خلاف ذلك، فمع أن البغي في شهورها الأولى ترزح تحت شعور الضعة والانحطاط ويأكلها الندم والألم، إلا أن إرادة الحياة الغريزية، وفعل البيئة المستمر ينقذانها من هذا الألم القمين بالقضاء عليها، ويوجدان لها أنواعاً من الاعتزاز والكبرياء ويجعلانها تتقبل هذه الحياة. بل وتتحمس لها وتتمسك بها، فما دامت تعلم أنها محتومة عليها (لتلك الأسباب التي تحتم البغاء في المجتمعات المنحلة) فلا تلبث الفتاة الطاهرة الغريرة أن تنقلب إلى بغي لعوب ثم إلى «معلمة» صناع تتفنن في شؤون مهنتها التعسة، وتجعل همها إيقاع البريئات المسكينات في شباكها. فإذا تحدث إليها متحدث عن الشرف والضمير أو رغب في إنقاذها، ولو حتى بالزواج لرفضت. فقد مرّنت حواسها ونفسها على هذا النوع من الحياة، ولا تستطيع أن تغيّره أو ترغب في بعث كوامن الندم التي استكانت وتكومت في جزء قصي من لاشعورها وانغمرت تحت أكداس الحاضر. وقد أوضح ذلك «تولستوي» في روايته «البعث» تمام الإيضاح. كما كانت تقارير لجان إلغاء البغاء صريحة في عدم استطاعة إصلاح هؤلاء البائسات أو إلحاقهن بأي عمل.

أو خذ عالَم السجون حيث يجري مسخ النفس البشرية وتطويعها لما فرضته السدود والقيود ليمكن للسجين أن يمضي السنوات الطوال في مناخ يناقض مناخ الحياة الطبيعية، وقد يصل الأمر أن يجد سجيناً حكم عليه لجريمة قتل ثأراً للشرف ـ كما يظن ـ وقد أصبح «معشوقاً» لسجين قوي العضلات يحكم قبضته على الزنزانة.

إن بعض الأسود والنسور لا تتناسل في الأسر أو داخل القضبان

الحديدية، ولكن الطبيعة البشرية تقبل ما ترفضه هذه الحيوانات والطيور.

لذلك تقاوم الشعوب والجماعات الدعوات الجديدة حتى لو كانت شعبية، وتنحاز الكثرة نحو المعارضة، ولا يؤمن بها إلا أفراد قلائل قدّر لهم أن لا يقعوا تحت تأثير العوامل الاجتماعية السابقة أو عظمت فيهم المواهب والمدارك حتى تغلبت على ما عداها من الآثار.

تلك هي آثار البيئة التي تطبع الجماهير والجماعات بطابعها وتكيف النفس البشرية، وتمسخ الطبائع الأصلية فيها، ومن أجل هذا تقاوم الشعوب والجماعات الأنبياء وتعارض المصلحين، وتشارك قادتها على أعنّات أصحاب الدعوات الجديدة.

* * *

هل معنى هذا أنه قُضي على الشعوب أن تظل أبد الدهر في إسار العبودية وقبضة الخضوع للحكام؟

كلا. إن الله تعالى أرحم بعباده من أن يرضى بهذا، وكيف يرضى وقد قال رسوله (ص) إن باب الجنة مفتوح لا يغلق إلا لمن أبى!..
لقد أرسل الله تعالى الرسل مستنهضين الجماهير ومعلمين الجاهلين ومحققين الكرامة الإنسانية، وحقّق أولو العزم منهم هذا فحرروا أقوامهم من استعباد الطغاة ووضعوا بين أيديهم الكتب المنزلة التي ترسم الطريق وتحدد الوسائل ووجّهوهم إلى استخدام الحكمة جنباً إلى جنب هذه الكتب حتى يمكنهم الإفادة من كل وسائل المعرفة

والقوة، وليس عليهم إلا أن يستوعبوا هذه الكتب ويتلمسوا هذه الحكمة، وأن لا يتركوا آباءهم وأسلافهم حاجزاً بينهم وبين النص، أو حائلاً دون ابتغاء الحكمة أينما كانت، ولا يدعوا السدنة والفقهاء يملون عليهم أحكامهم القديمة الرثة، ويحولون بينهم وبين الانطلاق.

د. جمال البنا

فقد المناعة

في سجن نفسي..
يطبق الظلام على قلبي..
يعذبه فيستسلمْ..
ظننته سيبقى هناكْ..
خاب ظنّي..
أمره الطاغوت والجبروتُ..
أن يتسلل إلى عقلي.

* * *

عقلي.. صاحب الفخامة عقلي..
صار يجدّف في بحر الظلماتْ....
بأقلامِ تمجّد الشيطانْ..

تؤلّه الجبروت والطاغوتْ..
في الصحف والمجلاتْ..
في الإذاعات وفي التلفزيوناتْ..
بالقهرِ والعهرِ..
والتلاعب باللفظ والكلماتْ.

* * *

أنا اليوم.. الآنْ..
تركبني أنثى الطاغوتْ..
يغتصبني ذكر الجبروتْ
ويلي.. يا ويلي..
تغافلت طوال وقتي..
أنا الأنثى..
والطاغوت والجبروتْ..
مرضى بداءٍ عضالْ..
هو فَقْد المناعهْ.

* * *

أنا اليوم.. الآنْ..
تركبني أنثى الطاغوتْ..
يغتصبني ذكر الجبروتْ..
أفقت.. خفت.. ارتعبتْ..
عرضت نفسي على التاريخ..
قال.. أنت بالتأكيد ستفنى وتندثر..

إن عاجلاً أو آجلاً..
حتى لو كنت في المريخْ..
أنت والأُنثى..
الطاغوت والجبروتْ..
وما أفرزتم وتركتم..
لأنكم جميعاً مصابونَ..
بداء فقد المناعة.

تغتصب في وضح النهار..!

البلاد الإسلاميّة..
بلدانٌ تنسطِلُ في ظلام الليلْ..
تغتصبُ في وضح النهارْ..
هي مفككةٌ.. محتلةٌ ومباحة..
هي بؤرة التّبكيتْ..
مرعى للنّكاتِ والتّنكيتْ..
هي الخزي والعَارْ..
شعارها الهزيمة والانكسارْ..
خاف العقلاء فيها..
يئسوا منها تركوها..
بعض الكل سخر منها..
كلّ الكل شَمِت بها..
والنّاس انقسموا قسمينْ..

غير متساوين..
القليل فكّر فهاجرْ..
الكثير انقسم قسمينْ..
القليل هم السادة الحكّامْ..
الباقي هم العبيدُ.. همْ خدمٌ..
جنود وعبيد الحكامْ.

* * *

البلاد الإسلاميّةْ..
بلدانٌ تنسطلُ في ظلام الليلْ..
تغتصبُ في وضح النّهارْ..
لم يبق بها إلا الوضيع من البشرْ..
الحيوانات الوضيعة أذلّتها..
مرّغتها واحتلتها..
فاستقالت منها الأسود والنمورْ..
الذّئاب والنّسورْ.. الخيول والصّقورْ..
وتقيّأت المراعي العشب المسمومْ..
وعافت البراري الفرائس المريضةْ..
وأعلنوا جميعاً إنساً وحيواناتْ..
وكلّ النّباتاتْ والحشراتْ..
التّي هاجرتْ إلى أرض الله..
الحزن والحدادْ..
على المعذّبين والموتى من الأبرياءْ.

* * *

البلاد الإسلاميّة..
بلدانٌ تتسطلُ في ظلام الليلْ..
تغتصبُ في وضح النّهارْ..
هي زريبةٌ كبيرةٌ..
للوضيع من الحيواناتْ..
أحطّ أنواع الحشراتْ..
هي الآن كما في الماضي..
مرحاضٌ قذرٌ واسعٌ وكبيرْ..
يتبوّل فيه المرضى من كل الأجناسْ..
من كلّ العقائد والأديانْ..
فالمصابون بالإيدزْ يرتعون في الأرحامْ..
القوّادون والشّواذ يركبوننا..
الملحدون والمنافقونْ يلعنوننا..
وكل الأجناسْ تسخرُ من مآسينا.

* * *

البلاد الإسلاميّة..
بلدانٌ تتسطلُ في ظلام الليلْ..
تغتصبُ في وضح النهارْ..
تأكلُ بعضها بعضا..
بعضها لا يعترفُ ببعضها..
بعضها يعانقُ بعضها..
خنجر الغدرِ..
يساوي بعضها ببعضها..
بعضها يسبُّ بعضها..

بعضها لا يعرفُ بعضها..
وبعضها يظنُّ أنه مع بعضها..
وفي النهاية.. الأصفار تلغي بعضها.

* * *

البلاد الإسلاميّة..
بلدانٌ تتسطلُ في ظلام الليلْ..
وتغتصبُ في وضح النهارْ..
هي كالبور من الأراضي..
كالعبدة بين الحرائرْ..
كطعامٍ نتنْ.. كبرازٍ عفنْ..
كجثةٍ شهيّةٍ..
تتسلّى بها.. تلعب بها..
تبعثرها.. تنهشها..
حشراتُ القبورْ.

الزعيم..!

يتأبّط شراً.. يتخبّطْ..
ينبطح ويتنططْ..
قزم يرقصُ.. يترنّحْ..
يتلوّى.. يعلو.. ينحطّ..
هو زعيمٌ مزعومْ..
هو زعيمٌ مذمومْ..
له في كلّ مناسبةٍ..
دون مناسبةٍ..
رداء ولبوسْ..
مرة بقميص وبنطالْ..
وأخرى بعباءةْ..
ودون عقالْ أو طربوشْ.
مسكينٌ شعب بلاده.

يسلب أمواله..
يبعثرها في كلّ القاراتْ..
ويتخيّل أنّا قومٌ بُلَهَاءْ..
بسطاء.. ساذجونْ..
نصدّق أنّ القزمْ..
سيصبح عملاقاً..
سيعيد فلسطينْ..
وسيحرّر جنوب السّودانْ..
بالكلامِ.. بالأبواقْ..
وسيسحب من تحت الرّوسِ..
الكرسي والسّجادهْ..
وسيردّ مجوس الأرضْ..
عن غزو أراضينا..
بهتافاتٍ وبتعليقْ..
مِنْ خلف المذياع..
ومِنْ شاشات التليفزيونْ..
وبضجيج هتافاتٍ ومظاهراتْ.

* * *

الزّعيم يحبّنا..
حبّ القطّ لفأرٍ مذعورْ..
يجرحه.. يخنقه ويكسّر عظمه..
يتسلّى باللّعب مع (الحشراتْ)..
يأكل مِنْ فيض الحرامْ..
لا يُسْكِرهُ غير دم الأحرارْ.

هذا العملاق المكبوسْ..
عَفواً.. هذا الهرّ المنحوسْ..
هو هرّ ينظر في مرآة..
يحاكي نمر الغابة..
يحلم بثراء السادة..
يأتمر بأمر الشّيطانْ..
بطانته.. حاشيته من الأشرارْ..
ويظنّ القزم المعروفْ..
أن المظهر يكفي..
أن التمثيل يفيدْ..
وأن الرشوة والتزويرْ..
الخنق وأدوات التعذيب..
التآمر على الغريب والقريب..
هي التي ترسّخهُ وتحميهْ..
يا له مِنْ أخرقْ..
يا له من أحمقْ..
أمام الحزمْ.. أمام الجدْ..
يتوقّف.. لا ينطقْ..
يُمسي أليفاً.. يُصبح حليفاً..
وعبداً لا ينبسْ..
ببنت شفهْ..
مثله مثل كل الزعماءْ..
في عالمنا المتخلفْ.

وصيتي..
أن يرتع الذّباب في العسل..!

في مسائي المشتبك مع الشّبهاتْ..
في ليلي المستنفر المتيقّظ للهمساتْ..
على وسادتي المشحونة بالأرقْ..
على سفوح صبحي..
وعلى قمم نهاري..
ربع عاقلٍ مرة..
ومجنونٌ آلاف المرّاتْ.

* * *

رغباتي تأمرني.. تقسرني..
حتّي يشتعل بظنّي..
لساني يطولُ بسمي..

وعيني تشغلني.. تحيّرني..
لذاتي تكبّلني.. تأسرني..
ونفسي القديمة.. البعيدة..
تراوغ وتحاول أن تهربْ..
ضميري نائمٌ يتخفّى..
وشيطاني يزيف الخيال والواقعْ..
فأقف كرجلٍ مرة
وأتعثرُ.. لا أتذكّرُ..
عدد المرّاتْ.

* * *

في ساحتي..
ما زعمت أن تلكَ مساحتي..
ما استوليتُ من وطن جاري..
وموطن جارتي..
أردّد بحقد وصفاقهْ..
أمام الخلقْ.. أمام النّاسْ..
أحاول أن أبدو في عيون الخلق..
وفي قلوب النّاسْ..
أني كبسماركْ..
موحد ألمانية الجرمانيهْ..
متناسياً أن بسماركْ..
لم يأكل في حياتهْ..
الجبنة العفنة المعفلقة القبرصيهْ..
وهو داهية ومفكّرْ....

لم يتآمر بليلٍ.. لم يوش بنهارٍ..
ولم يأمر كما فعلتُ أنا..
أن تسيل دماءٌ كالأنهارْ..
فأفكرُ ربع مرة وأتغافلُ..
كم تغافلتُ من المراتْ!؟.

* * *

تسألونني عن صورتي..
على كلِّ الصفحاتْ..؟
لماذا تظهر كبيرةْ..؟
في كلِّ الساحاتْ..؟
بمناسبة أو بدون مناسباتْ..
أجيب بدون تردّدْ وأُردّدْ..
إن أهمّ شيءٍ في حياتي وحياتكم صورتي..
فالميادين غرف بدون صورتي..
الشوارع أزقّة من غير صورتي..
الأزقّة جحورٌ بدون صورتي..
قاعات الاستقبال قبور من غير صورتي..
وزينة المكاتب صورتي..
جليسة الأُنسِ صورتي..
الهمّ والغمّ صورتي.
الإنس والجنُّ صورتي..
وأنا.. أنا.. أنا..
أنتمْ وهمْ ونحنُ..
وأنتنّ وهنّ وكلكنّ صورتي..

فصورتي يجب أن تكبر وتُكبّر..
ليس مَرّة ولكن ألوف المرات.

* * *

تسألونني عن وصيتي..؟
وصيتي أن يرتع الذّبابُ في العسلْ..
أن يأكل السّوسُ كلّ الغَلّهْ..
أن يأمر الصّرصار الفل والياسمينْ..
وكلّ الورود والزهورْ..
أن تتضوّع للحشراتْ..
أن يكتب الجراد بمداده..
على امتداد الحقول الخضراءْ..
على أجساد الزّهور اليانعهْ..
على الفروع التي تتغنّى عليها الطيورْ..
كل أسمائه بالأحرف الأولى..
فتأكلون مرّة..
وتجوعون آلاف المرّاتْ..
وتحبون مرّة..
وتحقدون عشرات أُلوف المرّاتْ.

* * *

أما سؤالكم الأخيرْ مَن الوريثْ..؟
فأنا كما عوّدتكم.. أنا..
سأصارحكم الحديثْ..

أن يأكل الذّئب الحملْ..
وأجلبُ لكمْ في هذه المرّة..
وكل المراتْ..
كامل وكمال المسرّة..
وأقول لكم أنا..
أنّي كما تعرفونني.. أنا..
زعيمكم ورئيسكمْ ورقيبكمْ..
وأنّي سأبقى بينكم الوريثْ..
وهذه هي المفاجأة..
أكرّرها.. أكرّرها لكمْ..
تنسونها.. نصف.. نصف مرة..
وتتذكّرونها ملايين المرّاتْ.

(لابواسييه)
و«مقالة العبودية المختارة»

مقدمة

ولد (إتيين دي لابواسييه) في العام ١٥٣٠م/٩٣٦هـ.، في مدينة سارلا، إلى الجنوب من ليموج، وإلى الشرق من بوردو، منتمياً إلى عائلة ميسورة من النواب الذين كلفتهم الطبقة الأرستقراطية بإدارة أعمالها، لانصراف هذه الطبقة إلى البقاء في خدمة ملوك فرنسا. وكان أبوه، الذي توفي وهو طفل، من رجال الكنيسة المتضلعين في اللاهوت والأدب، فنشأ إتيين على تقديس (الإنسانيات) اليونانية واللاتينية. وقد التحق، من ثم، بجامعة أورليان التي كانت تعد ثانية جامعات فرنسا بعد جامعة باريس، فانصرف إلى دراسة القانون التي كانت دراسة لغوية فيلولوجية (أي منصبّة على النصوص) في المقام الأول، ولمّا حصّل درجته الجامعية في العام ١٥٥٣م، حاز من الملك هنري الثاني على تصريح يبيح له حق العمل قاضياً في برلمان بوردو (كان الحصول على المنصب بالشراء لحاجة الملك إلى المال). وقد

انعقدت أواصر صداقة بينه وبين ميشيل دي لوبيتال، مستشار كاترين دي ميديسين ـ أم الملك ـ، فكلفه صديقه الذي يكبره بربع قرن أن يشرح لبرلمان بوردو، الذي انتصر أعضاؤه للفريق الكاثوليكي المتعصب في صراعه ضد «الهجنوت» (وهو الاسم الذي أطلق على أشياع كالفن في فرنسا)، سياسة التسامح الديني التي ينتهجها، فكاد ينجح في عقد لقاء وطني بين الطرفين، لكن أعمال العنف توالت، ولما صدر مرسوم شباط (فبراير) ١٥٦٢م، القاضي بترك حرية العبادة لأشياع كالفن، دون اعتبارهم هراطقة، كتب مذكرة شرح فيها النتائج المنحوسة التي تنجم عن المنازعات الدينية، وبيَّن أن الردع الدموي لا يؤدي إلى القضاء على الخصوم، بل إلى تفاقم العداوة تفاقماً يهدد البلاد بحرب أهلية.

كان لابواسييه قد تعرّف، أثناء عمله قاضياً في برلمان بوردو في العام ١٥٥٧م، إلى مونتينييه، فانعقدت بين الرجلين صداقة خلّدها الأخير في مقالاته، ولما توفي لابواسييه في الثامن عشر من آب (أغسطس) ١٥٦٢م، نشر مونتينييه أعمال صديقه في قسمين: شعر نظمه في مقتبل العمر، وترجمات عن المؤرخ اليوناني كسينوفون، وأخرى متعددة عن بلوتارك. ولكن مونتينييه لم ينشر أعمال صديقه الأدبية، لأنه رأى فيها حياكة أدق وألطف من أن تخرج إلى الجو الخشن الذي اتسم به هذا الفصل الفاسد، وهي عبارة تحوي الإشارة إلى الصراع السافر الذي انتهت إليه العلاقة بين حركة الإصلاح الديني وبين الدولة الملكية، والذي تجاوز حداً لا عودة عنه بعد مذبحة أشياع كالفن في العام ١٥٧٢م، وهي المذبحة المعروفة باسم ليلة «القديس بارتوليمي»، والأرجح أن لابواسييه كان قرأ «مقالة في العبودية المختارة» على بعض أقرانه في جامعة أورليان فاستنسخوها، ولمّا صار بعض هؤلاء المستنسخين في عداد الكالفينيين، اقتبسوا

أجزاء من هذه المقالة في كتاباتهم، مع تصاعد العداء واستحكامه، واستخدموها لأغراض سياسية. لكن استتباب الأمر للحكم الملكي، خلال القرن السابع عشر، جعل مقالة «في العبودية المختارة» نصاً لا يلتفت إليه إلا قلة من القرّاء، وكان قدرها أن لا تظهر منشورة إلاّ في ظل (مقالات) مونتينييه، حتى العام ١٨٣٥م، إذ نشر النص على حدة.

إن هذا النص، إذا كان يحظى اليوم بانتباه منقطع النظير من جانب المشتغلين بالفلسفة السياسية، والاجتماع، فلأن أحداث العصر الذي نعيشه، منذ الحرب العالمية الثانية، لا تترك بدّاً من التفرقة بين السيادة والاستغلال، ومن مواجهة هذا السؤال: هل استغلال الإنسان للإنسان هو أساس السيادة، وما هذه إلا نتيجته، أم أن للسيادة جذوراً أخرى ما كان الاستغلال ليستتبّ بغيرها في صورة الدولة؟

على أن القارئ قد يستخلص جملة من دروس أخرى في مقالة لابواسييه، وحسبنا أننا نقدمها إليه هنا من ترجمة المفكر مصطفى صفوان، مع هوامش من وضعه مثبتة في آخر النص..

العبودية المختارة

كثرة الأمراء سوء، كفى سيد واحد، ملك واحد[1].

بهذه الكلمات خاطب أوليس القوم في هوميروس. ولو أنه وقف عند قوله: «كثرة الأمراء سوء» لأحسن القول بما لا مزيد عليه، لكنه حيث وجب تعليل ذلك بالقول بأن سيطرة الكثيرين لا يمكن أن يأتي منها الخير ما دامت القوة المسندة إلى واحد، متى تسمى باسم السيد، صعبة الاحتمال، منافية للمعقول، فقد راح يعكس الكلام فأضاف: «كفى سيد واحد، ملك واحد».

بيد أن أوليس ربما وجبت معذرته إذ لم يكن له مفر من استخدام هذه اللغة حتى يهدىء ثورة الجيش، مطابقاً بمقاله المقام بدل مطابقة الحقيقة، فإن وجب الحديث عن وعي صادق فإنه لبؤس ما بعده بؤس أن يخضع المرء لسيد واحد، يستحيل الوثوق بطيبته أبداً ما

دام السوء في مقدوره متى أراد. إن تعدد الأسياد تعدد للبؤس الذي ما بعده بؤس، بقدر ما نملك منهم. وما أريد في هذه الساعة طرق هذه المسألة التي كثر الجدل فيها: حول إذا ما كانت أشكال الجماعة[٢] الأخرى تفضل حكم الواحد[٣]. ولو أردت لوددت قبل النظر في مكانة هذا الحكم، حكم الواحد، بين الأشكال الأخرى أن أعرف أولاً: هل له مكانة ما؟ لأن من الصعب الاعتقاد ببقاء شيء يخص الجماعة حين ينفرد واحد بكل شيء، ولكن هذه مسألة متروكة لوقت آخر وتقتضي مقالاً يفرد لها، وإلا جلبت معها جميع المنازعات السياسية.

أما الآن فلست أبتغي شيئاً إلا أن أفهم كيف أمكن هذا العدد من الناس، من البلدان، من المدن، من الأمم، أن يحتملوا أحياناً طاغية واحداً لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه، ولا من القدرة على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه، ولا كان يستطيع إنزال الشر بهم لولا إيثارهم الصبر عليه بدل مواجهته. إنه لأمر جلل حقاً، وإن انتشر انتشاراً أدعى إلى الألم منه إلى العجب، أن نرى الملايين من البشر يخدمون في بؤس، وقد غُلّت أعناقهم، دون أن ترغمهم على ذلك قوة أكبر، بل هم ـ فيما يبدو ـ قد سحرهم وأخذ بألبابهم مجرد الاسم الذي ينفرد به البعض، كان أولى بهم ألا يخشوا جبروته، فليس معه غيره، ولا أن يعشقوا صفاته فما يرون منه إلا خلوّه من الإنسانية ووحشيته. إن ضعفنا نحن البشر كثيراً ما يفرض علينا طاعة القوة، ونحن محتاجون إلى وضع الرجاء في الأرجاء ما دمنا لا نملك دائماً أن نكون الأقوى، فلو أن أمة أُجبرت بقوة الحرب على أن تخدم واحداً، مثل أثينا الطغاة الثلاثين[٤] لما وجب الدهش لخادِمِيها، بل الرثاء لنازلتها، أو بالأحرى ما وجب الدهش ولا الرثاء بل الصبر على المكروه، والتأهب لمستقبل أفضل.

إن من شأن طبيعتنا أن تستغرق واجبات الصداقة المشتركة بيننا قسطاً لا بأس به من مجرى حياتنا، فمن العقل محبة الفضيلة، وتقدير الأعمال الجليلة، وعرفان الفضل من حيث تلقيناه، والاستغناء أحياناً عن بعض ما فيه راحتنا، لنزيد به شرف وامتياز من نحب، ومن استحق هذا الحب، فلو أن بلداً رأى سكانه كبيراً منهم يبدي بالبرهان فطنة كبيرة في نصحهم، وجرأة شديدة في الدفاع عنهم، وترويا جماً في حكمهم، فانتقلوا من ذلك إلى طاعته، وإسلام قيادهم له، إلى حد إعطائه ميزات يختص بها دونهم، فما أدري أهي حكمة أن ينقلوه من حيث كان يسدي الخير إليهم إلى حيث يصبح الشر في مقدوره. إن التخلي عن خشية الشر ممن لم نلق منه إلا الخير لَحِكْمَةٌ، لو كان محالاً ألا يخالط طيبته نقص.

ولكن ما هذا يا ربي؟ كيف نسمي ذلك؟ أي تعس هذا؟ أي رذيلة، أو بالأصدق أي رذيلة تعسة؟ أن نرى عدداً لا حصر له من الناس، لا أقول يطيعون بل يخدمون، ولا أقول يُحكمون بل يُستبد بهم، لا ملْك لهم ولا أهل ولا نساء ولا أطفال، بل حياتهم نفسها ليست لهم! أن نراهم يحتملون السلب والنهب وضروب القسوة، لا من جيش ولا من عسكر أجنبي ينبغي عليهم الذود عن حياضهم ضده، بل من واحد لا هو بهرقل ولا شمشون، بل هو خنث[٥]، هو في معظم الأحيان أجبن من في الأمة وأكثرهم تأنثاً، لا إلفة له بغبار المعارك، وإنما بالرمل المنثور على الحلبات (إن وطأها)، ولا يحظى بقوة يأمر بها الناس، بل يعجز عن أن يخدم ذليلاً أقل أنثى[٦]! أنسمي ذلك جبناً؟ أنقول إن خدامه حثالة من الجبناء؟ لو أن رجلين، لو أن ثلاثة أو أربعة، لم يدافعوا عن أنفسهم ضد واحد، لبدا ذلك شيئاً غريباً، لكنه ممكن، ولوسعنا القول عن حق إن الهمة تنقصهم، ولكن لو أن مئة، لو أن ألفاً احتملوا واحداً، ألا نقول:

إنهم لا يريدون صده، ليس لأنهم لا يجرؤون على الاستدارة له، ولا عن جبن، بل احتقاراً له في الأرجح، واستهانة بشأنه؟ فأما أن نرى لا مئة ولا ألف رجل، بل مئة بلد، ألف مدينة، مليون رجل، أن نراهم لا يقاتلون واحداً أقصى ما ينالهم من حسن معاملته هو القنانة والرقّ، فأنّى لنا باسم نسمي به ذلك؟ أهذا جبن؟ إن لكل رذيلة حدّاً تأبى طبيعتها تجاوزه. فلقد يخشى اثنان واحداً، ولقد يخشاه عشرة، فأما ألف، فأما مليون، فأما ألف مدينة إن هي لم تنهض دفاعاً عن نفسها في وجه واحد، فما هذا بجبن، لأن الجبن لا يذهب إلي هذا المدى، كما أن الشجاعة لا تعني أن يتسلق امرؤ وحده حصناً أو يهاجم جيشاً أو يغزو مملكة، فأي مسخ من مسوخ الرذيلة هذا الذي لا يستحق حتى اسم الجبن، ولا يجد كلمة تكفي قبحه، والذي تنكر الطبيعة صنعه وتأبى اللغة تسميته؟

ضع بجانب خمسين ألف رجل مدججين بالسلاح، وضع مثلهم بالجانب الآخر، دعهم يصطفّون للمعركة ثم يلتحمون، بعضهم أحرار يقاتلون دفاعاً عن حريتهم، وبعضهم الآخر يقاتلون بغية سلبهم إياها، ترى من تظنك تَعد بالنصر؟ من تظن أنهم ذاهبون إلى ساحة القتال بخطى مقدامة؟ من يأملون الاحتفاظ بحريتهم جزاءً على عنائهم أم أولئك الذين سواء كالوا الضربات أو تلقوها لم ينتظروا أجراً لهم سوى استعباد غيرهم؟ الأولون يضعون دائماً نصب أعينهم سعادة الحياة الماضية، وتوقع نعيم يماثلها في المستقبل، ولا يفكرون في القليل الذي تلزم مكابدته زمن المعركة، بقدر ما يفكرون في ما سيفرض عليهم أبد الدهر، هم وأولادهم وجميع ذريتهم، أما الآخرون فلا حافز لهم إلا وخز من الطمع لا يلبث أن يسكن أمام الخطر، ولا يمكن أن يبلغ التهابه حداً لا تطفئه أول قطرة من الدم تنضّ بها جروحهم. خذ المعارك المشهودة التي

خاضها ميلسيادس وليونيداس وثميستو كل منذ ألفي عام[٧]، والتي ما زالت تحيا في صفحات الكتب وذاكرة البشر حتى اليوم، كأن رحاها لم تدر إلا بالأمس على أرض الإغريق، من أجل الإغريق ومن أجل أن تكون مثلاً للدنيا قاطبة، ما الذي في زعمك أعطى فئة قليلة قلة الإغريق إذ ذاك، لا أقول القوة بل الجرأة على الصمود في وجه أساطيل بلغ من حشدها أن ناء بثقلها البحر؟ ما الذي جعلهم قادرين على أن يدحروا أمماً بلغ من كثرتها أن كتيبة الإغريق بأسرها ما كان يكفي جنودها تزويد أعدائها ولو بالقواد ليس غير؟ ماذا سوى أن المعركة لم تكن في هذه الأيام المجيدة معركة الإغريق ضد الفرس، بقدر ما كانت تعني انتصار الحرية على السيادة، وانتصار العتق على جشع الاسترقاق؟!!

إننا لندهش إذ نسمع قصص الشجاعة التي تملأ بها الحرية قلوب المدافعين عنها. أما ما يقع في كل بلد لكل الناس كل يوم أن يقهر واحد الألوف المؤلفة ويحرمها حريتها، فمن ذا الذي يسعه تصديقه لو وقف عند سماعه دون معاينته؟ ولو أن هذا القهر لم يكن يحدث إلا في بلد أجنبي وأرض قاصية ثم تردد نبأُهُ أكان أحد يتردد في ظنه كذباً وافتراء لا حقيقة واقعة؟ ومع ذلك فهذا الطاغية لا يحتاج الأمر إلى محاربته وهزيمته، فهو مهزوم خِلْقةً، بل يكفي ألا يستكين البلد لاستعباده. ولا يحتاج الأمر إلى انتزاع شيء منه، بل يكفي الامتناع عن عطائه. فإذا أراد البلد ألا يتحمل مشقة السعي وراء ما فيه منفعته، فكل ما يقتضيه الأمر هو الإمساك عما يجلب ضرره. الشعوب إذن هي التي تترك القيود تكبلها أو قل إنها تكبل نفسها بنفسها ما دام خلاصها مرهوناً بالكف عن خدمته. الشعب هو الذي يقهر نفسه بنفسه ويشق حلقه بيده. هو الذي ملك الخيار بين الرق والعتق فترك الخلاص وأخذ الغل. هو المنصاع

لمصابه أو بالأصدق يسعى إليه، فلو أن الظفر بحريته كان يكلفه شيئاً لوقفت عن حثه. أليس أوجب الأمور على الإنسان أن يحرص أكبر الحرص على حقه الطبيعي(٨)، وأن يرتد عن الحيوانية ليصبح إنساناً؟ ولكنني لا أطمع منه بهذه الجرأة، ولا أنكر عليه تفضيله نوعاً آمناً من أنواع الحياة التعسة على أمل غير محقق في حياة كريمة، ولكن إذا كان نوال الحرية لا يقتضي إلا أن نرغب فيها، وكان يكفي فيه أن نريد، أكنا نرى على وجه الأرض شعباً يستفدح ثمناً لا يعدو تمنيها، أو يقبض إرادته عن استرداد خير ينبغي شراؤه بالدم، ويستوجب فقده على الشرفاء أن تصبح الحياة مرة عندهم والموت خلاصاً؟ إن الشرارة تستفحل نارها وتعظم، وكلما وجدت حطباً زادت اشتعالاً، ثم تخبو وحدها دون أن نصب ماء عليها، يكفي ألا نلقي إليها بالحطب، كأنها إذا عدمت ما تُهلك، تُهلك نفسها، وتُمسي بلا قوة وليس ناراً. كذلك الطغاة كلما نهبوا طمعوا، ودمروا وهدموا، وكلما موّناهم وخدمناهم ازدادوا جرأة واستقووا، وزادوا إقبالاً على الإفناء والتدمير، فإن أمسكنا عن تموينهم، ورجعنا عن طاعتهم، صاروا بلا حرب ولا ضرب، عرايا مكسورين، لا شبيه لهم بشيء إلا أن يكون فرعاً عدمت جذوره الماء والغذاء فجف وذوى.

إن الشّهام لا يخشون الخطر من أجل الظفر بمطلبهم، كما أن الأذكياء لا يحجمون عن المشقة. أما الجبناء والمغفلون فلا يعرفون احتمال الضرر ولا تحصيل الخير، وإنما يقفون عند تمنيه، ويسلبهم الجبنُ قوة العمل عليه، فالرغبة في امتلاكه إنما تلصق بهم بحكم الطبيعة، هذه الرغبة، هذه الإرادة الفطرية أمر يشترك فيه الحكيم والملتاث، ويشترك فيه الشجاع والجبان، به يودون تلك الأشياء التي يجلب اكتسابها السعادة والرضى. شيء واحد لا أدري كيف

تركت الطبيعة الناس بلا قوة على الرغبة فيه: الحرية التي هي مع ذلك الخير الأعظم والأطيب، حتى أن ضياعها لا يلبث أن تتبعه النواكب تترى، وما يبقى بعده تفسده العبودية وتفقده رونقه وطعمه. الحرية وحدها هي ما لا يرغب الناس فيه لا لسبب فيما يبدو إلا لأنهم لو رغبوا لنالوها، حتى لكأنهم إنما يرفضون هذا الكسب الجميل لفرط سهولته.

يا لذل شعوب فقدت العقل ويا لبؤسها، يا لأمم أمعنت في أذاها وعميت عن منفعتها، تُسلبون أجمل مواردكم وأنتم على السلب عيان، تتركون حقولكم تُنهب ومنازلكم تُسرق وتُجرّد من متاعها القديم الموروث عن آبائكم! تحيون نوعاً من الحياة لا تملكون فيه الفخر بِملك ما، حتى وكأنها نعمة كبرى في ناظركم لو بقي لكم ولو النصف من أملاككم وأسركم وأعماركم، وكل هذا الخراب، هذا البؤس وهذا الدمار يأتيكم لا على يد أعدائكم بل يأتيكم يقيناً على يد العدو الذي صنعتم أنتم كبره، والذي تمشون إلى الحرب بلا وجل من أجله ولا تنفرون من مواجهة الموت بأشخاصكم في سبيل مجده. هذا العدو الذي يسودكم إلى هذا المدى ليس له إلا عينان ويدان وجسد واحد[٩]، ولا يملك شيئاً فوق ما يملكه أقلّكم على كثرة مدنكم، التي لا يحصرها العد إلا ما أسبغتموه عليه من القدرة على تدميركم. فأنّى له بالعيون التي يتبصص بها عليكم إن لم تقرضوه إياها؟ وكيف له بالأكف التي بها يصفعكم إن لم يستمدها منكم؟ أنّى له بالأقدام التي يدوسكم بها إن لم تكن من أقدامكم؟ كيف يقوى عليكم إن لم يقوَ بكم؟ كيف يجرؤ على مهاجمتكم لولا تواطؤكم معه؟ أي قدرة له عليكم إن لم تكونوا حماة للّصّ الذي ينهبكم، شركاء للقاتل الذي يصرعكم، خونة لأنفسكم؟ تبذرون الحَب ليُذْريه، تؤثثون بيوتكم وتملأونها حتى

تعظم سرقاته، تربّون بناتكم كيما يجد ما يشبع شهواته، تنشّئون أولادكم حتى يكون أحسن ما يصيبهم منه جرهم إلى حروبه وسوقهم إلى المجزرة، ولكي يصنع منهم وزراء مطامعه ومنفذي رغباته الانتقامية، تتمرسون بالألم كيما يترفه في مسراته ويتمرغ في ملذاته القذرة، وتزيدون وهناً ليزيد قوة وشراسة ويَسِمَكم بلجامه. كل هذه الألوان من المهانة التي إما أن البهائم لا تشعر بها، أو أنها ما كانت تحملها، يسعكم الخلاص منها لو حاولتم لا أقول العمل عليها بل محض الرغبة فيها، اعقدوا العزم ألاّ تخدموا تصبحوا أحراراً، فما أسألكم مصادمته أو دفعه بل محض الامتناع عن مساندته، فترونه كتمثال هائل سُحبت قاعدته فهوى على الأرض بقوة وزنه وحدها وانكسر.

بيد أن الأطباء محقون بلا شك إذ ينهون عن لمس الجروح التي لا برء منها، ولا أظنني أسلك مسلكاً حكيماً إذا أردت أن أسدي هنا الموعظة إلى الشعب بعد أن فقد كل معرفة منذ أمد طويل، وصار فقدان حساسيته بالألم دليلاً كافياً على أن مرضه قد صار مميتاً. لنحاول إذن أن نتبين لو أمكن ذلك كيف استطاعت جذور هذه الإرادة العنيدة، إرادة العبودية، الامتداد إلى هذا المدى البعيد حتى صارت الحرية نفسها تبدو اليوم كأنها شيء لا يمتّ إلى الطبيعة بسبب.

إنه لأمر لا أظن الشك يتطرق إليه أننا لو كنا نعيش وفاقاً للحقوق الممنوحة لنا من الطبيعة والدروس التي تُلقننا إياها لكنا طيعين للوالدين بالطبع، خاضعين للعقل، غير مسخرين لأي كان. فالطاعة التي يحملها كل منا لأبيه وأمه دون أن يهديه إليها إلا صوت الطبيعة أمرٌ الناس جميعاً شهود عليه كل عن نفسه. فأما العقل وهل

يولد معنا أم لا؟ فمسألة تقارع فيها الأكاديميون[١٠]، ولم تتخلف مدرسة من المدارس الفلسفية عن الخوض فيها، ولا أظنني أجانب الصواب، الآن إذ أقول إن في نفوسنا بذرة طبيعية من العقل تزدهر في شكل الفضيلة، إذا تعهدناها بالنصيحة الطيبة والقدوة الحسنة، ولكنها على العكس كثيراً ما تغلبها الرذائل فتخمد وتنفق. غير أن الشيء المحقق هو أنه إذا كان في رحاب الطبيعة شيء واضح بادٍ للعيان لا يجوز أن نعمى عنه، وذلك أن الطبيعة وهي وزيرة الخالق وآمرة الخلق قد سوّتنا جميعاً على شبه واحد، حتى لكأنها ـ إذا جاز التعبير ـ قد صبتنا في القالب ذاته، وذلك حتى يعرف في الآخرين رفاقه أو بالأصدق إخوته، وإذا كانت الطبيعة وهي توزع هباتها قد أسبغت على البعض مزية جسدية أو عقلية، وإذا كانت رغم ذلك لم تتركنا في هذه الدنيا كأننا في حقل مغلق، ولم تفوض الأقوياء والمكرة بافتراس الضعفاء كقطّاع طرق أطلق سراحهم في الغابة، فذلك دليل على أنها إذا أعطت البعض نصيباً أكبر، والبعض الآخر نصيباً أصغر، لم تكن تهدف إلا إلى أن تترك المجال للتعاطف الأخوي حتى يظهر وجوده ما دام البعض يملك قوة العطاء، والبعض الآخر الحاجة إليه. فإذا كانت هذه الأم الطيبة قد جعلت لنا من الأرض قاطبة سكناً، وأنزلتنا جميعاً المنزل نفسه، وهيّأتنا على نموذج واحد كيما يتسنى لكل منا أن يتأمل نفسه ويقترب من معرفتها في مرآة الآخرين، وإذا كانت قد وهبتنا جميعاً تلك الهبة الكبرى، هبة الصوت والكلام حتى نزيد تعارفاً وتآخياً وحتى تتلاقى إرادتنا بالإعراب المتبادل عن أفكارنا، وإذا كانت قد جهدت بكل السبل حتى نزيد توثق عُرى التحالف والاجتماع بيننا، وإذا كانت قد بينت في كل ما تصنع أنها لا تهدف إلى توحيدنا جميعاً، بقدر ما تهدف إلى أن نكون جميعاً آحاداً، فقد ارتفع بذلك كل شيء في أننا جميعاً أحرار بالطبيعة، ما دمنا رفاقاً، وامتنع

أن يدخل في عقل عاقل أن الطبيعة قد ضربت علينا الرق بيننا، بينما هي قد آلفت بيننا.

غير أن الحقيقة هي أن الجدل فيما إذا كانت الحرية حقاً طبيعياً أم لا، لن يكون إلا تحصيلاً للحاصل ما دمنا لا نسترق كائناً دون أن نلحق الأذى به، وما دام الغبن أكره الأشياء إلى الطبيعة التي هي مستودع العقل. إذن يبقى أن الحرية شيء طبيعي، ويبقى بهذا عينه أننا ــ في ما أرى ــ لا نولد أحراراً وحسب، بل نحن أيضاً مفطورون على محبة الذود عنها. فإن اتفق بعد ذلك أن ساورنا شك في ما أقول، وأنْ بلغ من فسادنا أننا لم نعد نستطيع تمييز مصالحنا، ولا مشاعرنا الطبيعية، لم يبق إلا أن أكرمكم الإكرام الذي تستحقون، وأن أترك الحيوانات التي لا تمتّ إلى المدنية بصلة تصعد المنبر لتعلمكم ما هي طبيعتكم وما وضع وجودكم. إن الحيوانات ــ أخذ الله بعوني! ــ إذا لم يصمّ البشر آذانهم لسمعوها تصرخ فيهم: عاشت الحرية! الكثير منها لا يكاد يقع في الأسر إلا مات. فكما السمك يترك الحياة إذ يترك الماء، كذلك هي تترك الضوء وتأبى العيش بعد فقدان حريتها الطبيعية. فلو كانت لها مراتب لجعلت من الحرية عنوان نبالتها. فأما البقية من أكبرها إلى أصغرها، فهي لا تستسلم للأسر حين نقتنصها إلا بعد أن تظهر أشد المقاومة بالأظافر، والقرون، والمناقير، والأقدام، معلنة بذلك مدى إعزازها لما تفقد. ثم هي تبدي لنا العلامات الجلية على مدى إحساسها بمصابها، حتى أننا لنعجب إذ نراها تؤثر الضوى على الحياة، كأنها إنما تقبل البقاء لترثي ما خسرت وليس لتنعم بعبوديتها. هل يقول الفيل شيئاً آخر حين يقاتل دفاعاً عن نفسه حتى يستنفد قواه ويرى ضياع الأمل وشوك الأسر، فإذا هو يغرس فكيه محطماً على الشجر سنّيه، هل يقول شيئاً آخر سوى أن رغبته الشديدة في البقاء حراً تلهمه الذكاء، فتحثه على مساومة قناصيه لعلهم يتركون له

الحرية ثمناً لعاجه ولعله يفتدي به حريته؟ إننا نستأنس الجياد منذ مولدها لندرّبها على خدمتنا، فإذا كنا مع ذلك حين نجيء إلى ترويضها نعجز عن ملاطفتها إلى الحد الذي لا يجعلها تعضّ الحكَمَة، وتنفر من المهماز، فما هذا في اعتقادي إلا شهادة منها بأنها إنما تقبل خدمتنا كارهة لا مختارة. ما القول إذن؟

حتى البقر أنّ تحت النير
وشكا في أقفاصه الطير

كما عنّ لي قوله حين شغلني فيه نظمنا الفرنسي(١١)، لأني وأنا أكتب إليك يا لونجا(١٢) مازجاً بالكلام أشعاري التي لا أقرأها أبداً، لا أخشى أن يجرك ما تبديه من الرضا عنها إلى جعلها مدعاة لفخري. خلاصة القول أنه لمّا كانت جميع الكائنات الحاصلة على الحس تشعر، إذ تحصل عليه، بألم خضوعها وتسعى وراء حريتها، ولما كانت الحيوانات، هي المجعولة لخدمة الإنسان، لا تستطيع أن تألف العبودية دون أن تبدي احتجاجاً يعرب عن الرغبة في الضد، فما هي تلك الرذيلة التي استطاعت أن تمسخ طبيعة الإنسان، وهو وحده المولود حقيقة ليعيش حراً، وأن تجعله ينسى ذكرى وجوده الأول وينسى الرغبة في استعادته؟

هناك ثلاثة أصناف من الطغاة: البعض يمتلك الحكم عن طريق انتخاب الشعب، والبعض الآخر بقوة السلاح، والبعض الثالث بالوراثة المحصورة في سلالتهم. فأما من انبنى حقهم على الحرب فنعلم جيداً أنهم يسلكون، كما نقول، في أرض محتلة. وأما من ولدوا ملوكاً فهم عادة لا يفضلون أبداً لأنهم وقد ولدوا وأطعموا على صدر الطغيان، يمتصون جبلّة الطاغية وهم رضّع، وينظرون إلى

الشعوب الخاضعة لهم نظرتهم إلى تركة من العبيد، ويتصرفون في شؤون المملكة كما يتصرفون في ميراثهم، كل بحسب استعداده الغالب نحو البخل أو البذخ. أما من ولاّه الشعب مقاليد الدولة، فينبغي فيما يبدو أن يكون احتماله أهون. ولقد يكون الأمر كذلك على ما أعتقد لولا أنه ما أن يرى نفسه يرتقي مكاناً يعلو به الجميع، وما أن يستغويه هذا الشيء الغريب المسمى بالعظمة، حتى يعقد النية على ألا ينزاح من مكانه أبداً. وما أن يتلقف هؤلاء هذه الفكرة حتى نشهد شيئاً عجباً: نشهد إلى أي مدى يبزّون سائر الطغاة في جميع أبواب الرذائل، بل في قسوتهم، دون أن يروا سبيلاً إلى تثبيت دعائم الاستبداد الجديد، سوى مضاعفة الاستعباد وطرد فكرة الحرية عن أذهان رعاياهم، حتى يعفو عليها النسيان رغم قرب حضورها في ذاكرتهم. فكلمة الحق هي أني أرى بعضاً من الاختلاف بين الطغاة، ولكني لا أرى اختياراً بينهم، لأن الطرق التي يستولون بها على زمام الحكم لا تكاد تختلف: فمن انتخبهم الشعب يعاملونه كأنه ثور يجب تذليله، والغزاة كأنه فريستهم، والوارثون كأنه قطيع من العبيد امتلكوه امتلاكاً طبيعياً.

فهَب في هذا الموضع أن الصدفة شاءت أن يولد نمط جديد من البشر، لا ألفة لهم بالعبودية ولا ولع بالحرية، ولا يعلمون ما هذه ولا تلك، بل يجهلون حتى اسميهما، ثم خيّروا بين الرق وبين الحياة أحراراً، فعلام يجمعون؟ لا مجال للشك في أنهم سوف يؤثرون طاعة العقل وحده على خدمة رجل ما، هذا إلا إذا كان هؤلاء القوم هم شعب(*) إسرائيل الذي نصب طاغياً عليه بغير إكراه

(*) هذه ليست خاصية لشعب إسرائيل وأنه خلق هكذا، إنما هي ثقافة مكتسبة يمكن أن تصيب كل أمة.

ولا احتياج، وإنه لشعب لا أقرأ قصته أبداً دون أن يملكني حنق عظيم حتى أكاد أتجرد من الإنسانية فأفرح بجميع ما نزل عليه بعدئذٍ من البلايا(١٣). ولكن طالما بقي بالإنسان أثر من الإنسان فهو يقيناً لا ينساق إلى العبودية إلا عن أحد سبيلين: إما مكرهاً وإما مخدوعاً(*) مكرهاً إما بسلاح أجنبي مثل مدينتي إسبرطة وأثينا، إذ قهرتهما قوات الإسكندر، وإما بطائفة من مجتمعه، مثلما حدث في أثينا في زمن أسبق حين استولى بيسترانس على مقاليد الحكم(١٤). فأما الخديعة من حيث تؤدي أيضاً إلى فقدان الحرية فرجوعها إلى تغرير الغير في أكثر الأحيان عن رجوعها إلى كون الناس يخدعون أنفسهم بأنفسهم. مثال ذلك شعب سيراقوصة (عاصمة صقلية) إذ هجم عليه الأعداء من كل جانب، ولها(**) فكره عن كل شيء إلا عن الخطر الحاضر، فرفع ديونيسيوس إلى الرياسة من دون نظر إلى المستقبل، وأسند إليه قيادة الجيش، ولم يدرك إلى أي حد قوّاه إلا حين رجع هذا الداهية منتصراً كأنه قد غزا مواطنيه لا أعداءهم، فتسمى باسم القائد ثم بالملك ثم بالملك المطلق(١٥). وإنه لأمر يصعب على التصديق أن نرى الشعب متى تم خضوعه، يسقط فجأة في هاوية من النسيان العميق لحريته إلى حد يسلبه القدرة على الاستيقاظ لاستردادها، ويجعله يسرع إلى الخدمة صراحة وطواعية، حتى ليُهيأ لمن يراه أنه لم يخسر حريته بل كسب عبوديته. صحيح أن الناس لا يقبلون على الخدمة في أول الأمر إلا جبراً وخضوعاً للقوة، ولكن من يأتون بعدهم يخدمون من دون أن يساورهم أسف، ويأتون طواعية ما أتاه السابقون اضطراراً، ذلك أن من ولدوا

(*) مهما كانت أسباب انسياق الإنسان إلى العبودية فهي راجعة إلى ذاته.

(**) لها يلهو: من اللهو.

وهم مغلولو الأعناق ثم أطعموا وتربوا في ظل الاسترقاق، من دون نظر إلى أفق أبعد؛ يقنعون بالعيش مثلما ولدوا. ثم إنه لما كان التفكير في حال مختلفة أو في حق آخر لا يطرأ على بالهم؛ فهم يأخذون وضعهم حال مولدهم مأخذ الأمر الطبيعي. ومع هذا فما من وارث إلا نظر أحياناً في مستندات أبيه ليرى هل يتمتع بحقوق تركَته كاملة، أم أن غبناً قد أصابه أو أصاب سلفه. لكن لا شك أن العادة، مع سيطرتها علينا حين تلقننا العبودية، وحين تعلمنا ـ مثلما قيل عن ميثريدات الذي صار السمّ عنده شراباً مألوفاً[١٦] ـ كيف نجرع سم الاسترقاق من دون الشعور بمرارته. لا جدال في أن للطبيعة نصيباً كبيراً في توجيهنا حيث تشاء، وأننا نولد على ما تدخره لنا من فطرة حسنة أو سيئة، ولكن لا مناص من التسليم بأن سلطانها علينا يقل عن سلطان العادة، لأن الاستعداد الطبيعي مهما حسن يذهب هباء إذا لم نتعهده، في حين أن العادة تفرض علينا صوْغَها أياً كان هذا الاستعداد، فالبذور التي تنشرها فينا الطبيعة ضئيلة واهية إلى حد لا يجعلها تحتمل أقل غذاء منافر لها، فرعايتها لا تتم بمثل السهولة التي تتبدد بها وتفنى، شأنها شأن أشجار الفاكهة: كل شجرة منها لها طبيعتها التي تؤتي بمقتضاها ثمارها إذا تركتها، ولكنها تخرج عن طبيعتها وتؤدي ثماراً غريبة غير ثمارها إذا طعّمتها. كذلك الأعشاب: كل عشب له خاصيته وطبيعته وتفرده، ولكن البرد والجو ثم التربة ويد البستاني تعين نموه كثيراً، أو تعوقه كثيراً، حتى أن النبات الذي نراه في قطر لا نكاد نعرفه في قطر آخر. تخيل رجلاً رأى أهل مدينة البندقية، وهم قلة من الناس يعيشون أحراراً، حتى ليأبى أقلهم جاهاً أن يتوّج ملكاً على جميعهم، ولدوا ونشأوا على ألا يعرف أي منهم مطمعاً إلا الإدلاء بأحسن النصح من أجل الحفاظ على الحرية والسهر عليها، تربّوا منذ المهد وتشكلوا على ألا يمدوا أيديهم إلى سائر نِعم الأرض مجتمعة

عوضاً عن ذرة من حريتهم[١٧]، أقول تخيل رجلاً رأى هؤلاء القوم، ثم ذهب بعد أن غادرهم إلى أرض ينشر عليها سلطانه من لقّبناه بملك زمانه[١٨]، أرض يرى فيها أناساً لا يولدون إلا لخدمته ولا يعيشون إلا لدوام قوته، ترى هل يظن أن هؤلاء وأولئك من عجينة واحدة، أم الأرجح أنه سوف يعتقد أنه قد ترك مدينة آدمية ودخل حظيرة للدواب؟

يحكى أن ليكورج (مشرّع إسبرطة)[١٩] قد ربّى كلبين خرجا من بطن واحد ورضعا الثدي ذاته، فجعل أحدهما يسمن في المطابخ، وترك الآخر يجري في الحقول وراء أبواق الصيد، فلما أراد أن يبين لشعب لاسيدومونيا[٢٠] أن الناس هم ما تصنع بهم تربيتهم، جاء بالكلبين وسط السوق، ووضع بينهما حساء وأرنباً، فإذا أحدهما يجري وراء الطبق والآخر وراء الأرنب، فقال ليكورج: ومع هذا فهما أخوان! هكذا نجح بفضل قوانينه ودستوره في أن ينشىء سكان لاسيدومونيا تنشئة جعلت كلاً منهم يفضل الموت ألف ميتة على أن يختار لنفسه سيداً آخر سوى القانون والعقل.

ويطيب لي هنا أن أتذكر حديثاً جرى في قديم الزمان بين أحد المقربين إلى إكسرس ملك فارس الأعظم وبين رجلين من لاسيدومونيا، أخذ إكسرس، وهو يعد جيشه الضخم لغزو اليونان، يبعث رسله إلى المدن اليونانية يطلبون إليها الماء والتراب، وهو تعبير كان يستخدمه الفرس، إشارة إلى أنهم يأمرون المدن بالاستسلام، إلا أثينا وإسبرطة، فقد تجنب أن يرسل إليهما أحداً، ذلك أن الأثينيين والإسبرطيين كان قد سبق لهم أن أمسكوا بسفراء أبيه داريوس فزجوا بعضهم في الحفر والبعض الآخر في الآبار قائلين: خذوا ما تريدون من الماء والتراب! كانوا قوماً لا يطيقون ولو كلمة تمس حريتهم، غير أن الإسبرطيين بعد

أن صنعوا هذا الصنيع، أدركوا أنهم قد جروا على أنفسهم غضب الآلهة وغضب تالثيبيوس، إله الرسل، بنوع خاص، فقرروا أن يرسلوا إلى إكسرس مواطنَين من بينهم ليمْثُلا بين يديه وليصنع بهما ما يشاء انتقاماً لمن قُتِل من رسل أبيه، فتطوع رجلان ليدفعا هذا الثمن، اسم أحدهما سبرثيوس واسم الآخر بولس، وبينما هما في الطريق صادفا قصراً يملكه رجل فارسي اسمه هندران، كان الملك قد عينه والياً على جميع المدن الواقعة على الساحل، فرحب بهما أكرم ترحيب، وأطعمهما بغير حساب، ثم سألهما بعد أن أخذوا يتجاذبون أطراف الحديث لِمَ يرفضان إلى هذا الحد صداقة الملك، قال: «انظرا إليّ أيها الإسبرطيان واتخذا مني مثالاً تعلمان منه كيف يعرف الملك تشريف من استحق، وتذكرا أنكما لو صرتُما من أتباعه، لرأيتما من صنيعه ما رأيت، وإنكما لو دنتما له بالطاعة وعرف أمركما لما خرج كلاكما عن أن يكون أميراً لمدينة من مدن اليونان». فأجابه محدثاه: «هذا يا هندران أمر لا تملك فيه إسداء النصح إلينا، لأنك جربت النعمة التي تعدنا بها، ولكنك لا تعلم شيئاً عن نعمتنا، لقد ذقت حظوة الملك، وأما الحرية فلست تعرف ما مذاقها ولا مدى عذوبتها، ولو فعلت لنصحتنا بالدفاع عنها لا بالرمح والدرع بل بالأسنان والأظافر». هذا الجواب وحده هو الصدق، ومع هذا فلا شك أن ثلاثتهم تحدثوا وفقاً لنشأتهم، فما كان للفارسي أن يستشعر الأسف على الحرية وهو لم ينلها قط، ولا للإسبرطي أن يحتمل التبعية بعد أن ذاق الحرية.

وكان كاتو[٢١] الأوتيكي وهو طفل تحت الوصاية كثير التردد على منزل الدكتاتور سيلا[٢٢] يروح ويجيء متى شاء لا يُصدّ الباب في وجهه أبداً لكرم محتده، ولما كان بينه وبين سيلا من أواصر القرابة، وكان معلمه يصحبه في كل زيارة، على ما جرت العادة إذّاك مع أبناء الأسر العريقة، ولم يلبث أن تبين له أن مصائر الناس تحسم بتلك الدار

بمحضر من سيلا نفسه أو بأمره: البعض يُسجن والبعض يُدان، هذا يُنفى وهذا يشنق، هذا يُطالب بمصادرة أملاك أحد المواطنين، وذاك يطلب رأسه. تبين له بالاختصار أن الأمور لا تجري على ما ينبغي لدى مسؤول أعملته المدينة بل لدى طاغية استبد بالشعب، وأن المكان لم يكن ساحة للعدل بل مصنعاً للطغيان، عندئذٍ قال الفتى لمعلمه: «أنّى لي بخنجر أدسه تحت ردائي فإني كثيراً ما أرى سيلا في حجرته قبل أن يستيقظ، وإنّ بساعدي لقوة تكفي لخلاص المدينة منه». هذه حقاً كلمة تليق برجل من معدن كاتو، وهكذا بدأت حياة هذا البطل الذي مات كريماً مثلما عاش كريماً، ومع هذا هبْ أنك لم تذكر الاسم ولا البلد مكتفياً بذكر الواقعة كما هي، لا شك أن الواقعة سوف تتحدث عندئذٍ عن نفسها بنفسها، لسوف يستدل السامع منها أن قائل هذا القول روماني ولد بأحضان روما حين كانت روما مدينة حرة. لِمَ أقول ذلك؟ طبعاً لا لأني أظن أن البلد أو الأرض يضيفان إلى الشيء ما ليس فيه، فالعبودية مرّة بكل قطر وجوّ والحرية عزيزة، ولكن لأني أرى أن من سبَق النير مولدهم جديرون بالرثاء، فواجبنا عذرهم أو الصفح عنهم إذا كانوا لا يرون ضراً في عبوديتهم ما داموا لم يروا ولو ظِلّ الحرية، ولا سمعوا عنها قط فلو كان ثمة بلد كبلد السِمَريّين[٢٣] فيما يقول هوميروس، بلد لا تشرق عليه الشمس شروقها المألوف علينا، وإنما بعد أن تفيض عليهم بنورها ستة أشهر متوالية تتركهم نياماً في الحلكة خلال النصف الآخر من السنة، من ولدوا في غياهب هذا الليل الطويل إذا كانوا لم يسمعوا البتة أحداً يتحدث عن الضوء، هل نعجب لو أنهم ألِفوا الظلمات التي ولدوا فيها من دون أن يستشعروا الرغبة في النور؟ إنا لا نفتقد ما لم نحصل عليه أبداً، وإنما يأتي الأسف في أعقاب المسرة، ودوماً تأتي ذكرى الفرح المنقضي مع خبرة الألم. أجل إن طبيعة الإنسان أن يكون حراً وأن يريد كونه كذلك، ولكن من طبيعته أيضاً أن يتطبع بما نشأ عليه.

لنقل إذن إن ما درج الإنسان عليه وتعوّده يجري عنده بمثابة الشيء الطبيعي، فلا شيء ينتسب إلى فطرته سوى ما تدعوه إليه طبيعته الخالصة التي لم يمسها التغيير، ومنه كانت العادة أول أسباب العبودية المختارة، كشأن الجياد الشوامس تعض الحكَمَة بالنواجذ في البدء، ثم تلهو بها أخيراً بعد أن كانت ترجم، ولا تكاد تستقر تحت السرج إذا هي الآن تتحلى برحالها وتركبها الخيلاء وهي تتبختر في دروزها، تقول إنها كانت منذ البدء ملكاً لمالكها، وإن آباءها، عاشت كذلك، وتظن أنها ملزمة باحتمال الجور وتضرب الأمثلة لتقتنع بهذا الإلزام، ويمر الزمن وهي نفسها تدعم امتلاك طغاتها إياها، ولكن الحقيقة هي أن السنين لا تجعل أبداً من الغبن حقاً، وإنما تزيد الإساءة استفحالا[٢٤]، آجلاً أو عاجلاً يظهر أفراد ولدوا على استعداد أحسن يشعرون بوطأة الغل، ولا يتمالكون عن هزه هزاً ولا يرضون أنفسهم أبداً على التبعية والخضوع، بل هم مثلهم كمثل أوليس وهو يجتاب الأرض والبحر عساه يرى الدخان الذي يصعد من داره، لا يمسكون قط عن التفكير في حقوقهم الطبيعية وعن تذكر من تقدموهم وتذكر وضعهم الأول. أولئك هم الذين إذ ملكوا فهماً نافذاً ورأياً بصيراً، وانصقلت عقولهم، لم يكتفوا كما يفعل العامة بالنظر إلى مواطىء أقدامهم من دون التفات إلى ما أمامهم وما وراءهم، ومن دون أن يتذكروا وقائع الماضي ليسترشدوا بها في الحكم على المستقبل وسبر الحاضر. أولئك هم الذين استقامت أذهانهم بطبيعتها، فزادوها بالدراسة والمعرفة تهذيباً. أولئك لو أن الحرية امّحت عن وجه الأرض وتركتها كلها لتخيّلوها، وأحسوا بها في عقولهم، وتذوقوها ذوقاً ولم يجدوا للعبودية طعماً مهما تبرقعت.

لقد أدرك قراقوش الترك[٢٥] هذا الأمر أحسن إدراك، أدرك أن

الكتب والثقافة الصحيحة تزود الناس أكثر من أي شيء آخر بالحس والفهم اللذين يتيحان لهم التعارف، والاجتماع على كراهية الطغيان، دليل ذلك خلو أرضه من العلماء، وبُعده عن طلبهم. وفي سائر الأرض بوجه عام تظل حماسة من أخلصوا قلوبهم للحرية، وتظل محبتهم من دون أن يكون لهم أثر مهما كثر عددهم لانقطاع التواصل بينهم، فالطاغية يسلبهم كل حرية: حرية العمل وحرية الكلام، ولو أمكن فحرية الفكر(*)، فإذا هم منفردون منعزلون كلّ في تخيله. وعليه فما بالغ الإله الساخر مومومس(٢٦) في سخريته، إذ شهد الإنسان الذي صنعه فولكان(٢٧) فتَصَحه أن يضع أيضاً بقلب صنيعه نافذة صغيرة لكي تتسنى رؤية أفكاره من خلالها. ولقد قيل إن بروتوس وكاسيوس(٢٨) حين شرعا في تحرير روما، أو بالأصدق تحرير العالم أجمع، أبيا أن يشركا شيشرون، وهو المدافع المنقطع عن المصلحة العامة، في ما عقدا العزم عليه، إذ كان من رأيهما أن قلبه أضعف من أن يثبت في هذا الموقف العصيب، كانا يثقان في صدق إرادته من دون أن يضمنا شجاعته. وإن في وسع من أراد استقراء وقائع الماضي وسجلات التاريخ، أن يتحقق أن من رأوا بلدهم تُساء سياسته وتستحوذ عليه أياد جانية فعقدوا العزم على تحريره بنيّة صادقة مستقيمة، لا تردد فيها قلّ ألا يحالفهم النجاح، وإن الحرية تساندهم في الدفاع عن قضيتها. انظر هارموديوس وأرسطوجيتون وثراسيبول وبروتوس الأقدم وفالريوس وديون(٢٩). لقد كان عملهم ناجحاً مثلما كان فكرهم فاضلاً، لأن الحظ لا يكاد يتخلى أبداً في مثل هذه القضية عن مناصرة الإرادة

(*) هذه فكرة هامة، فلا يمكن أبداً سلب حرية الفكر من أحد لأن الإنسان دائماً حرّ إذا رغب وإلا فلا.

الطيبة. كذلك نجح بروتوس الأصغر وكاسيوس في رفع العبودية، وإن كانا إذ استرجعا الجمهورية قد خسرا الحياة خسارة لا تحط من شأنهما (فأي سبّة هذه أن تنسب الحطة إلى أمثال هؤلاء القوم سواء في الحياة أو في الممات؟!) بل خسارة عانت منها الجمهورية أكبر الضرر، وعانت البؤس أبد الدهر، واندثرت اندثاراً كأنها قد دفنت بدفنهما. فأما ما تلا ذلك من الحركات الموجهة ضد الأباطرة الرومانيين، فلم تكن إلا مؤامرات حاكها قوم طامحون لا يستحقون الرثاء على سوء مآلهم، فقد كان من الواضح أن مطلبهم لم يكن تقويض العرش بل زحزحة التاج، مدعين طرد الطاغية مع الإبقاء على الطغيان. هؤلاء قوم ما كنت نفسي أود لهم نجاحاً، وإنه ليسرني أنهم قد ضربوا بأنفسهم المثل على أن اسم الحرية المقدس لا يجوز استخدامه مع اعوجاج القصد.

ولكنني لكي أعود إلى موضوعنا الذي كاد يغيب عن نظري أقول: إن السبب الأول، الذي يجعل الناس ينصاعون طواعية للاستعباد، هو كونهم يولدون رقيقاً(*) وينشأون كذلك. إلى هذا السبب يضاف سبب آخر: إن الناس يسهل تحوّلهم تحت وطأة الطغيان إلى جبناء مخنثين. ولكم أشكر أبا الطب هيبوقراط إذ فطن إلى ذلك، وعبر عنه أحسن تعبير في كتابه المعلّى عن الأمراض. لقد كان هذا الرجل يملك يقيناً، في جميع أحواله، قلباً يزخر بالمروءة، أبدى ذلك حين أراد ملك الفرس جذبه بالعطايا والهدايا، فأجابه أنه لن يسلم من وخزات الضمير لو أنه اشتغل بعلاج الأجانب، الذين يريدون

(*) طبعاً لا يولد الإنسان رِقّاً بالجينات ولكن المناخ الذي يولد فيه يجعله وكأنه هكذا، فالرقّ ثقافة مكتسبة.

موت الإغريق، وراح يخدمهم بفنه بينما هم يريدون إخضاع بلاده. ولا يزال خطابه المرسل إلى ملك الفرس ماثلاً إلى يومنا هذا بين سائر كتاباته، يشهد مدى الدهر على قلبه الطيب وطبيعته النبيلة. من المحقق إذن أن الحرية تزول بزوالها الشهامة. فالقوم التابعون لا همة لهم في القتال ولا جَلَد، إنهم يذهبون إلى الخطر كأنهم يُشدون إليه شداً، أشبه بنيام يؤدون واجباً فرض عليهم، لا يشعرون بلهب الحرية يحترق في قلوبهم، هذا اللهب الذي يجعل المرء يزدري المخاطر، ويود لو اكتسب بروعة موته الشرف والمجد بين أقرانه. إن الأحرار يتنافسون كلٌ من أجل الجماعة ومن أجل نفسه، وينتظرون جميعاً نصيبهم المشترك من ألم الانكسار أو فرحة الانتصار، أما المُستعبَدون فهم عدا هذه الشجاعة في القتال يفقدون أيضاً الهمة في كل موقف، وتسقط قلوبهم وتخور وتقصر عن عظيم الأعمال، وهذا أمر يعلمه الطغاة جيداً، فهم ما إن يروا الناس في هذا المنعطف إلا عاونوهم على المضي فيه حتى يزيدوا (استنعاجاً).

لقد وضع كسينُوفون[٣٠]، وهو مؤرخ جاد من أئمة المؤرخين اليونانيين، كتاباً تخيل فيه حواراً بين سيمونيد وبين طاغية سيراقوصة هيرون حول كروب الطاغية، هذا الكتاب مليء بنظرات نقدية طيبة جادة، وإن اتسمت مع ذلك في رأيي بأقصى ما يمكن من اللطف، ليت طغاة الأرض وضعوا هذا الكتاب نصب أعينهم أنّي وجدوا، لتكون لهم منهم مرآة لهم! فلو فعلوا لتبينوا رذائلهم، ولأخجلتهم مساعيهم. في هذا الحوار يصف كسينوفون كرب الطغاة، إذ يضطرهم الأذى الذي يلحقونه بالناس جميعاً إلى خشيتهم جميعاً، قائلاً بين ما يقول: إن الملوك الفاسدين يستخدمون المرتزقة الأجانب في شن الحروب فَرَقاً من ترك السلاح في أيدي رعاياهم، الذين

أمعنوا في غبنهم. هذا وإن يكن من الصحيح أن التاريخ قد شهد بين الفرنسيين، أنفسهم، وفي الماضي أكثر منه في الحاضر، ملوكاً صالحين جندوا جيوشاً من الأمم الأجنبية لا عن حذر، بل حرصاً على بني وطنهم، وتقديراً منهم أن خسارة المال يبخس ثمنها في سبيل صيانة الأرواح، عملاً بما يسند إليه سيبيون، وأظنه الأفريقي[٣١]، من قوله أنه يفضل لو أنقذ مواطناً على أن يدحر ألف عدو. ولكن الشيء المحقق هو أنه ما من طاغية يظن أبداً أن السلطان قد استتب له إلا أن يبلغ تلك الغاية التي هي تصفية المأمورين بأمره[*]، من كل رجل ذي قيمة ما، بحيث يحق لنا أن نوجه إليه التقريع الذي يفخر تيراسون في إحدى مسرحيات تيرانس بتوجيهه إلى مروض الأفيال: «ألأنك تأمر الأنعام تجرؤ هذه الجرأة[٣٢]؟».

بيد أن هذا التحايل من قبل الطغاة على التغرير برعاياهم لا يمكن أن يتجلى على نحو يفوق تجليه في ما صنع كسرى إزاء الليديين[٣٣]، إذ دحرهم بثرائه واستولى على عاصمتهم سارد، وأسر كريسوس ملكهم الذي ضربت بثرائه الأمثال، وعاد به إلى بلاده فبلغه أن أهل سارد قد ثاروا، وكان يسعه سحقهم إلا أنه رغب عن تدمير مدينة فاق جمالها الأوصاف، ثم هو لم يكن يريد أن يجمد بها جيشاً لحراستها، فتفتق ذهنه عن حيلة كبيرة توصل بها إلى مأربه: فتح دور الدعارة والخمر والألعاب الجماهيرية[**]، ونشر أمراً يحض

(*) الطاغية لا يثق بأحد فيصفّي حتى أقربهم إليه.

(**) كما كان يشجع الاستعمار الطرق الخرافية في الممارسات الدينية التي لا تمت إلى الدين.

السكان على الإقبال على هذا كله، فكانت له من هذه الحيلة حامية أغنته إلى الأبد عن أن يسلّ السيف في وجه الليديين، فقد انصرف هؤلاء المساكين البؤساء إلى التفنن في اختراع الألعاب من كل لون وصنف، حتى أن اللاتينيين اشتقوا من اسمهم الكلمة التي يدلّون بها على اللهو فقالوا «لودي»، وكأنهم يريدون أن يقولوا «ليدي». صحيح أن الطغاة لم يعلنوا جميعاً عما يسعون إليه من تخنيث الشعوب، ولكن ما فعله هذا الطاغية صراحة يتوخاه معظم الآخرين خفية، والحقيقة هي أن تلك طبيعة العامة الذين تضم المدن القسط الأوفر منهم، فهم شكاكون في من أحبّهم، سذج حيال من خدعهم، فلا تظنن أن ثمة عصفوراً يسهل اقتناصه بالصفافير[٣٤]، أو سمكة تهرع إلى الطعام بمثل العجلة التي تسرع بها إلى العبودية كل الشعوب منجذبة، كما نقول، بأقل زَغَبة تقرب فاها. وإنه لأمر عجيب أن نراها تندفع هذا الاندفاع، يكفي فيه مجرد زعزعتها. المسارح والألعاب والمساخر والمشاهد والمصارعون والوحوش الغريبة والميداليات واللوحات، هذه وغيرها من المخدرات كانت لدى الشعوب القديمة طُعم عبوديتها، وثمن حريتها، وأدوات الاستبداد بها. هذه الوسيلة وهذا المنهج وهذه المغريات هي ما تذرع به الطغاة القدامى حتى تنام رعيتهم تحت النير. هكذا تأخذ الشعوب المخدوعة، إذ تروق لها هذه الملاهي، وتتسلى بلذة باطلة تخطف أبصارها، تأخذ في تعوّد العبودية بسذاجة تشبه سذاجة الأطفال، الذين تخلب لبهم الكتب المصورة فيحاولون فك حروفها، ولكن بتخبط أكبر. واكتشف الطغاة الرومانيون اكتشافاً آخر فوق هذا كله: موائد العشرات[٣٥] يكثرون من الدعوة إليها في الأعياد تمويهاً على هؤلاء الرعاع، الذين لا ينقادون لشيء مثلما ينقادون للذة الفم، والذين ما كان يستطيع أشدهم مكراً، وأقربهم إلى أسماعهم، أن يترك وعاء حسائه ليسترجع حرية جمهورية أفلاطون. كان

الطغاة يجودون برطل من القمح، ونصف لينر من النبيذ، وبدزهم، وكان أمراً يدعو إلى الحسرة أن يعلوا عندئذٍ الهتاف: عاش الملك! فما كان يخطر على بال هؤلاء الأغبياء أنهم إنما كانوا يستردون جزءاً مما لهم، وحتى هذا الجزء ما كان الطاغية ليجود به عليهم لولا سبْقُه إلى سلبهم إياه. من يلتقط اليوم الدرهم ويأكل حتى التخمة مسبّحاً بحمد تيبريوس، ونيرون، وبسخاء عطائهما، لا ينبس بحرف يزيد عما ينبس به الحجر، ولا تصدر عنه خلجة تزيد عما يصدر عن الجذع المقطوع، حين يرغم غداً على أن يترك أملاكه لجشع هؤلاء الأباطرة المفخمين، وأطفاله لشهواتهم، لا بل دمهم نفسه، لقسوتهم. ذلك كان شأن الشعب الجاهل دائماً: مفتوح الذراعين، مستسلم للذة التي كانت الأمانة(*) تقضي بالإمساك عنها، فاقد الإحساس بالغبن والألم، اللذين كانت الأمانة تستدعي الشعور بهما. إني لا أرى اليوم أحداً يسمع حديثاً عن نيرون إلا ارتعد لمجرد ذكر اسم هذا المسخ الكريه، هذا الوباء الشنيع القذر الذي لوّث العالم أجمع، ومع هذا فلا سبيل إلى إنكار أن هذا السفاح، هذا الجلاد، هذا الوحش الضاري، حين مات ميتة لا تقل خزياً عن حياته[٣٦]، قد أثار بموته هذا حزن الشعب الروماني النبيل، الذي راح يتذكّر ألعابه وولائمه حتى أوشك على الحداد، هذا ما كتبه كورنيليوس تاسيت، وهو مؤلف جاد محقق في طليعة من يوثق بهم[٣٧]. ولا أظننا سنعجب لذلك كثيراً إذا تذكرنا ما صنعه هذا الشعب من قبل حين مات يوليوس قيصر، الذي استهان بالقوانين والحرية معاً، والذي لا أرى في شخصه مزية ما لأن إنسانيته التي

(*) ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها﴾ [الأحزاب: ٧٢].

كثر الحديث عنها في كل معرض ومقام كانت أبلغ ضرراً من قسوة الوحوش الضارية، فالحقيقة هي أن هذه الحلاوة المسمومة، هي التي سكّرت طعم العبودية لدى الشعب الروماني، ولكنه ما إن مات حتى شرع هذا الشعب، ولمّا تزل ولائمه في فمه، وعطاياه بذاكرته، في تكريمه وتكديس المقاعد المنتشرة في الميدان العام ليوقد منها النار التي تحوله تراباً، ثم بنى له نصباً تذكارياً ملقباً إياه بأبي الشعب (هذا ما جاء بعالية النصب)، وأبدى له من مظاهر التشريف ميتاً ما لم يكن ينبغي إبداؤه لحي إلا إذا أردنا أن نستثني قاتليه[٣٨]. ثم لقب «وكيل الشعب»[٣٩]، هذا أيضاً لم ينسه الأباطرة الرومان، لم ينسوا التلقّب به الواحد بعد الآخر، لما كان لهذه الوظيفة من الحرمة والقداسة، ثم لأن القانون اقتضاها للدفاع عن الشعب وحمايته في ظل الدولة. بذا أرادوا اكتساب ثقة الشعب كأنما كان همّ هذا الأخير هو سماع الاسم لا الشعور بنتائجه. وما يُحسن عنهم صنعاً طغاة اليوم، الذين لا يرتكبون شراً مهما عظم من دون أن يسبقوه بكلام منمق عن خير الجماعة وعن الأمن العام، لأنك تعلم حق العلم، يا «لونجا»[٤٠]، ثبت الصيغ المحفوظة التي يريدون بها تغذية فصاحتهم، وإن جانبت الفصاحة غالبيتهم لنفورها من وقاحتهم.

كان ملوك آشور، ومن بعدهم ملوك ميديا، لا يظهرون علانية إلا بعد وقت متأخر بقدر المستطاع، ليتركوا الجمهور في شك، أهم بشر أم شيء يزيد، وليتسلّموا لهذه الأحلام أناساً لا ينشط خيالهم إلا حيث يعجزون عن الحكم على الأشياء عياناً. هكذا عاشت في ظل الإمبراطورية الآشورية شعوب متعددة ألفت خدمة هذا السيد الغامض، وخدمته طائعة بمقدار جهلها أيَّ سيد يسودها، لا بل هي كانت لا تكاد تعلم إن كان لمثل هذا السيد وجود، فخشيت جميعها بعين الاعتقاد واحداً لم يره أحد قط. كذلك ملوك مصر الأوائل كانوا لا يظهرون علانية إلا وقد حملوا على رؤوسهم حيناً

قطاً، وحيناً فرعاً، وحيناً ناراً، تقنّعوا بها وتبرّجوا كالمشعوذين، وبذا أثاروا بغرابة المنظر المهابة والإعجاب في نفوس رعاياهم، وكان أجدر بالناس لولا فرط حمقهم وعبوديتهم ألا يروا في هذا كله، على ما أعتقد، إلا مدعاة للهو والضحك[٤١]. إنه لأمر يدعو إلى الرثاء أن نسمع بأي الوسائل تذرّع الطغاة حتى يؤسسوا طغيانهم، وإلى أي الحيل التجأوا من دون أن تتخلف الكثرة الجاهلة في كل زمان عن ملاقاتهم، فلا يرمون شبكة إليها إلا ارتموا فيها، وخلا تغريرهم بها من المشقة حتى أنهم إنما ينجحون في خداعها أكبر النجاح حين يسخرون منها أكثر السخرية.

ثم ماذا أقول عن محرقة أخرى تلقفتها الشعوب القديمة كأنها نقد لا زيف فيه؟ لقد دخل في اعتقادها أن إبهام بيرّوس[٤٢]، ملك الإيبيريّين، كان يصنع المعجزات ويشفي أمراض الطحال، ثم جمّلوا القصة فأضافوا أن هذا الإصبع قد ظهر سليماً وسط الرماد، لم تصبه النار بأذى بعد أن احترق الجسد كله. هكذا يصنع الشعب نفسه الأكاذيب كيما يعود ليصدقها. هذه الحكايات قد سجلها كثير من الناس، ولكن على نمط لا يترك مجالاً للشك في أنهم لم يعدوا نقلها عما تردد في جلبة المدن، وعلى أفواه العامة. منها أن فاسباسيان[٤٣] رجع من آشور فمرّ بالإسكندرية متوجهاً إلى روما، فصنع في طريقه المعجزات: قوّم العُرج وردّ البصر إلى العُمي، وأتى عجائب أخرى من هذا القبيل، لا يغفل في رأيي عن زيفها إلا من أصابه عمى يغلب عمى الذين ينسب إلى فاسباسيان شفاءهم. إن الطغاة أنفسهم يعجبون لقدرة الناس على احتمال ما يصبّه على رؤوسهم من الإساءة أناس مثلهم، لهذا احتموا بالدين واستتروا وراءه، ولو استطاعوا لاستعاروا نبذة من الألوهية سنداً لحياتهم الباطلة. إليك سالمونيوس[٤٤] الذي تروي العرافة، في ملحمة

«فرجيل»، أنه يرقد الآن في قاع الجحيم عقاباً على هزئه بالناس إلى حد جعله يريد تقمص جوبيتر أمامهم:

لحقه شديد العذاب إذ ابتغى
محاكاة جوبيتر رعده وصواعقه
فشد أربعة جياد صواهل إلى عربته الفانية
ثم علاها ممسكاً بشعلة من النار الساطعة
وجرى في سوق إليدا ناثراً الرعب بين سكانها
المجنون ادّعى ملك السماء وادعى بالصاج
محاكاة الرعد الذي يأبى دويّه المحاكاة!
ولكن جوبيتر رماه بالصاعقة الحقة
فقلب عربته في زوبعة من النار
غطتها هي وجيادها وربها وصاعقته.
كان النصر قصيراً ولكن العذاب مقيم.

فإذا كان هذا المأفون لا يزال يلقى هذا العقاب في الدار الأخرى، بينا هو لا يعدو أن ركبته نزوة من الحمق، فيقيني أن من تذرّعوا بالدين تحقيقاً لشرورهم ينتظرهم كيل أعظم.

أما طغاتنا نحن فقد نشروا في فرنسا رموزاً لا أدري كنهها كالضفادع، والزنابق، والقارورة المقدسة، والشعلة الذهبية[٤٥]، وكلها أشياء لا أريد أياً كانت ماهياتها أن أثير التشكك فيها ما دمنا، وما دام أجدادنا، لم نرَ مدعاة للارتداد عن تصديقها، إذ وهبنا على الدوام ملوكاً طيبين في السلم، شجعان في الحرب، حتى ليخال المرء أنهم وإن ولدوا ملوكاً لم تسوّهم الطبيعة على غرار الآخرين، وإنما اختارهم الله القدير قبل أن يولدوا لحكم هذه المملكة

والحفاظ عليها[٤٦]. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك لما أردت الخوض في الحديث عن صحة قصصنا، ولا نقدها نقداً دقيقاً، حتى لا أفسد جمالاً قد يتبارى فيه شعراؤنا أمثال رونسار وبايف وبلاي[٤٧]، الذين لا أقول إنهم حسّنوا شعرنا، بل خلقوه خلقاً جديداً، وبذا تقدموا بلغتنا تقدماً يجعلني أجرؤ على الأمل في ألا تعود بعد ذلك لليونانية واللاتينية مزية عليهم سوى حق الأقدم. فلا شك في أني سوف أسيء الآن إلى نظْمنا، ولا أنكر أني أستخدم هذه الكلمة طواعية، لأنه إذا كان من الحق أن البعض قد جعل من النظم صنعة آلية، فمن الحق أيضاً أن هناك عدداً كافياً من القادرين على استرجاع نبله ومقامه الأول، أقول إني أسيء الآن إلى نظمنا لو أني جردته من حكايات الملك كلوفيس الجميلة، بعد أن رأيت بأي رشاقة وسهولة يسبح فيها وحي رونسار في فرنسوياته. إني أحس أثر الرجل في المستقبل، إني أعرف توقّد فكره وأعلم لطفه، لسوف يوفي الشعلة الذهبية حقها مثلما صنع الرومان بدروعهم، دروع السماء الملقاة على أرضنا[٤٨].

كما يقول فرجيل، لسوف يرفق بقارورتنا رفق الأثينيين بسلّة أريكتون[٤٩]، ولسوف يجعل الناس تنشيد بشعاراتنا مثلما شاد الأثينيون بغصن الزيتون، الذي لا زالوا يحفظونه في برج مينرفا. لهذا كنت أتجاوز الحد يقيناً لو أني أردت تكذيب كتبنا وجريت في مراتع شعرائنا. ولكني لكي أعود إلى موضوعي الذي لا أدري كيف أفلت مني خيطه، ألحظ أن الطغاة كانوا يسعون دائماً كيما يستتب سلطانهم، إلى تعويد الناس على أن يدينوا لهم لا بالطاعة والعبودية فحسب، بل بالإخلاص كذلك[٥٠]. فكل ما ذكرته حتى الآن عن الوسائل التي يصطنعها الطغاة ليعلّموا الناس كيف يخدمونهم طواعية إنما ينطبق على الكثرة الساذجة من الشعب.

إني أقترب الآن من نقطة هي التي يكمن فيها على ما أعتقد مفتاح السيادة وسرها، وفيها أيضاً يكمن أساس الطغيان وعماده. إن من يظن أن الرمّاحة والحرس وأبراج المراقبة تحمي الطغاة يخطىء في رأيي خطأ كبيراً. ففي يقيني أنهم يعمدون إليها مظهراً وإثارة للفزع لا ارتكازاً عليها. فالقوّاسة تصدّ من لا حول لهم ولا قوة على اقتحام القصر، ولكنها لا تصدّ المسلحين القادرين على بعض العزم. ثم إن من السهل أن نتحقق أن أباطرة الرومان الذين حماهم قوّاسوهم يقلون عدداً عمن قتلهم حراسهم، فلا جموع الخيالة، ولا فرق المشاة ولا قوة الأسلحة، تحمي الطغاة. الأمر يصعب على التصديق للوهلة الأولى، ولكنه الحقّ عينه، هم دوماً أربعة أو خمسة يبقون الطاغية في مكانه، أربعة أو خمسة يشدون له البلد كله إلى مقود العبودية، في كل عهد كان ثمة أربعة أو خمسة تصيخ إليهم أذن الطاغية، يتقربون منه أو يقربهم إليه ليكونوا شركاء جرائمه، وخلان ملذاته، وقواد شهواته، ومقاسميه في ما نهَب. هؤلاء الستة يدرّبون رئيسهم على القسوة نحو المجتمع، لا بشروره وحدها، بل بشروره وشرورهم. هؤلاء الستة ينتفع في كنفهم ست مئة يفسدهم الستة مثلما أفسدوا الطاغية، ثم هؤلاء الست مئة يذيلهم ستة آلاف تابع، يوكلون إليهم مناصب الدولة ويهبونهم إمّا حكم الأقاليم، وإما التصرف في الأموال، ليشرفوا على بخلهم وقساوتهم، وليطيحوهم بهم متى شاءوا، تاركين إياهم يرتكبون من السيئات ما لا يجعل لهم بقاءً إلا في ظلهم، ولا بعداً عن طائلة القوانين وعقوباتها إلا عن طريقهم. ما أطول سلسلة الأتباع بعد ذلك!

إن من أراد التسلي بأن يتقصى هذه الشبكة وسعَهُ أن يرى لا ستة آلاف، ولا مئة ألف، بل أن يرى الملايين يربطهم بالطاغية هذا الحبل، مثل جوبيتر إذ يجعله هوميروس يتفاخر بأنه لو شد سلسلته

لجذب إليه الآلهة جميعاً. من هنا جاء تضخم مجلس الشيوخ في عهد يوليوس[٥١]، وجاء خلق المناصب الجديدة، وفتح باب التعيينات والترقيات على مصراعيه، كل هذا يقيناً لا من أجل إصلاح العدالة، بل أولاً وأخيراً من أجل أن تزيد سواعد الطاغية. خلاصة القول إذن هي أن الطغاة تُجنى من ورائهم حظوات، وتجنى مغانم ومكاسب، فإذا بالذين ربحوا من الطغيان، أو هكذا هُيّيء إليهم، يعدلون في النهاية من يؤثرون الحرية. فكما يقول الأطباء إن جسدنا لا يفسد جزء منه إلا إن انجذبت أمزجته إلى هذا الجزء الفاسد، من دون غيره، كذلك ما إن يعلن ملك عن استبداده بالحكم إلا التفّ حوله كل أسقاط المملكة وحثالتها، وما أعني بذلك حشد صغار اللصوص والموصومين الذين لا يملكون لبلد نفعاً، ولا ضراً، بل أولئك الذين يدفعهم طموح حارق وبخل شديد[٥٢]، يلتفون حوله ويعضدونه لينالوا نصيبهم من الغنيمة، وليصيروا هم أنفسهم طغاة مصغرين في ظل الطاغية الكبير. هكذا الشأن بين كبار اللصوص ومشاهير القراصنة: فريق يستكشف البلد، وفريق يلاحق المسافرين، فريق يقف على مرْقَبة، وفريق يختبيء، فريق يقتل وفريق يسلب. ولكنهم وإن تعددت المراتب بينهم، وكانوا بعض توابع وبعض رؤساء، إلا أنه ما من أحد منهم إلا خرج بكسب ما، إن لم يكن بالغنيمة كلها فبما انتشل. ألا يحكى أن القراصنة الصقليين[٥٣] لم تبلغ فقط كثرة عددهم حداً لم يجعل بداً من إرسال «بومبي» أعظم قواد العصر لمهاجمتهم، بل هم فوق ذلك قد جرّوا إلى التحالف معهم عدداً كبيراً من المدن الجميلة، والثغور العظيمة، التي كانوا يلوذون بها بعد غزواتهم لقاء بعض الربح مكافأة على إخفاء أسلابهم؟

هكذا يستبعد الطاغية رعاياه بعضهم ببعض، يحرسه من كان أولى

بهم الاحتراس منه لو كانوا يساوون شيئاً، وهكذا يصدق المثل: لا يفلّ الخشب إلا مسمار من الخشب ذاته، ها هو ذا يحيط به قواسته وحراسه وحاملو حرباته، لا لأنهم لا يقاسون الأذى منه أحياناً، بل لأن هؤلاء الضالين الذين تخلّى الله عنهم، وتخلى عنهم الناس، يستمرئون احتمال الأذى حتى يردوه لا إلى من أنزله بهم، بل إلى من قاسوه مثلهم من دون أن يملكوا إلا الصبر. غير أني إذ أنظر إلى هؤلاء الضالين الذين يجرون وراء كُرات الطاغية، حتى يحققوا مآربهم من وراء طغيانه، ومن وراء عبودية الشعب على حد سواء يتملكني أحياناً كثيرة العجب لرداءتهم، وأرثي أحياناً لحماقتهم: فهل يعني القرب من الطاغية، في الحقيقة، شيئاً آخر سوى البعد عن الحرية واحتضانها بالذراعين، إذا جاز التعبير؟

ليتركوا ولو حيناً مطامعهم، وليتجردوا ولو قليلاً من بخلهم، ولينظروا بعدئذٍ إلى أنفسهم وليقبلوا على معرفتها: فلسوف يرون عندئذٍ أن أهل القرى والفلاحين، الذين يحلو لهم دوسهم بالأقدام طالما استطاعوا، وتحلو لهم معاملتهم معاملةً أشرّ من معاملة السخرة والعبيد، سوف يرون أن هؤلاء المستضعفين هم مع ذلك أسعد حظاً وأوفر حرية بالقياس إليهم. فالأجير والحرفي، وإن استعبدا، يفرغان مما ضرب عليهما بأداء ما يطلب إليهما. ولكن الطاغية يرى الآخرين يتزلفون إليه ويستجدون حظوته، فعليهم لا العمل بما يقول وحسب، بل عليهم أيضاً التفكير في ما يريد، وغالباً ما يحق عليهم أن يحدسوا ما يدور بخلده حتى يُرضوه. فطاعتهم له ليست كل شيء بل تجب أيضاً ممالأته، والانقطاع له، ويجب أن يعذبوا أنفسهم، وأن يَنفقوا في العمل تحقيقاً لمراميه. ثم لما كانت نفوسهم لا تلذ لهم إلا إذا لذت له، فليتركوا أذواقهم لذوقه، وليتكلفوا ما ليس منهم، وليتجردوا من سليقتهم. عليهم الانتباه لكلماته وصوته،

ولما يبدر منه من العلامات، ولنظراته، ليتزلوا عن أعينهم وعن أرجلهم وأيديهم، وليكون وجودهم كله رصداً من أجل تحسس رغباته وتبينّ أفكاره. أهذه حياة سعيدة؟ أتسمى هذه حياة؟ هل في الدنيا شيء أقسى احتمالاً، لا أقول على رجل ذي قلب، ولا على إنسان حسن المولد، وإنما على كائن حظي بقسط من الفهم العام، أو له وجه إنسان لا أكثر؟ أي وضع أشد تعساً من حياة على هذا النحو لا يملك فيها المرء شيئاً لنفسه، مستمداً من غيره راحته وحريته وجسده وحياته؟

لكنهم يريدون العبودية ليجنوا من ورائها الأملاك، كما لو كان في مستطاعهم أن يغنموا شيئاً، بينما هم لا يستطيعون أن يقولوا إنهم يملكون أنفسهم. يودّون لو حازوا الأشياء كأن للحياة متسعاً في ظل الطاغية، ويتناسون أنهم هم الذين أعطوه القوة(*) على أن يسلب الجميع كل شيء، دون أن يترك لأحد شيئاً يمكن القول إنه له. إنهم يرون أنه ما من شيء يعرض الناس لقسوته مثل الخير، وأنه لا جريمة نحوه تستحق الموت في نظره كحيازة ما يستقل به المرء عنه. إنهم يرون أنه لا يحب إلا الثروات، ولا يكسر إلا الأثرياء، وهم مع هذا يسعون إليه سعيهم إلى الجزار كي يمْثلوا بين يديه، ملأى مكتنزين، ولكي يستثيروا جشعه. هؤلاء المقربون قد كان أولى بهم ألا يتذكروا من غنموا من الطغاة كثيراً، بل أولئك الذين بعد أن كدسوا المغانم بعض الوقت خسروا المغانم والحياة جميعاً، كان أولى بهم أن يتعظوا لا بالكثرة، التي أثرت، بل بالقلة التي استطاعت

(*) ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

الاحتفاظ بما كسبت. لنستعرض كل القصص القديمة ولنستعد تلك التي تعيها ذاكرتنا، لسوف نرى ملء عيوننا إلى أي مدى كثر عدد الذين اجتذبوا آذان الطاغية بطرق بخسة، محركين سوء جبلّتهم، أو مستغلين غفلتهم، ثم إذا هم بعد ذلك يُسحقون في النهاية سحقاً بأيدي الأمراء أنفسهم، لا يعدل مقدار السهولة التي علّوهم بها إلا مقدار ما خبروه من انقلاب إلى ضربهم. هذا العدد الغفير من الناس، الذين عاشوا في حمى هذه الكثرة من الملوك الأرذال، لم يسلم منهم يقيناً إلا القليل، إن لم نقل لم يسلم منهم أحد، من قسوة الطاغية التي بدأوا بتأليبها ضد الآخرين، ففي معظم الأحيان يثري الغير بما يسلبون بعد أن أثروا هم بما سلبوا في ظل ما تمتعوا به من الحظوة.

أما القوم الأفاضل، لو وجد بينهم رجل واحد يحبه الطاغية، فهم مهما لقوا من قبوله، ومهما سطعت فيهم الفضيلة والنزاهة اللتان لا يقربهما أحد، ولو كان أردأ الناس صنفاً، إلا أثارتا فيه بعضاً من الاحترام، هؤلاء القوم لا دوام لهم في كنف الطاغية، فهم يؤولون إلى ما آل إليه الجميع، ولا يجدون مفراً من أن يعرفوا بخبرة مرة ما هو الطغيان. خذ مثلاً هؤلاء الأفاضل: سينيكا، وبورّوس، وترازياس[٥٤]. الأولان كان من نكد طالعهما أن عرفا الطاغية فترك لهما إدارة أشغاله، وأكنّ لهما التقدير والإعزاز، خاصة وأن أولهما كان قد تعهّده في طفولته، وكان له في ذلك ضمان لصداقته، ولكن ثلاثتهم يشهد موتهم الأليم شهادة كافية بأن حظوة السيد الرديء ليس أقل من ضمانها. وفي الحق أي ضمان يرتجى من رجل قسا قلبه حتى شمل كرهه مملكته المذعنة لأمره، ونضبت فيه معرفة الحب، فلم يعد يعرف إلا كيف يعدم نفسه ويدمر إمبراطوريته؟

فلو قلنا إن هؤلاء الثلاثة إنما ترديا في هذه العواقب لحسن خلقهم،

كفى أن نسدد النظر حول نيرون نفسه لنرى أن الذين لقوا حظوته واستقروا فيها بأرذل الوسائل، لم يدم عهدهم زمناً أطول. من الذي سمع عن حب استسلم له صاحبه بلا حد، عن إعزاز بلا قيد؟ من الذي قرأ في أي زمن من الأزمنة عن رجل ولع بامرأة ولعاً عنيداً ملازماً كولع نيرون هذا قبل بوبيا(٥٥)؟ ثم بعدئذٍ دسّ لها السم! ألم تقتل أمه أجريبينا(٥٦) زوجها كلوديوس حتى تفسح له الهيمنة على الإمبراطورية؟ ألم تبذل ما وسعت، ألم تُقبل طواعية على كل إثم إعلاءً له؟ ومع هذا ما لبث ابنها هذا، رضيعها، إمبراطورها الذي صنعته بيدها، ما لبث بعد أن جحدها مراراً، أن انتزع حياتها في النهاية، وإنه لعقاب ما كان أحد ينكر أنه جزاؤها المستحق لو أن يداً أخرى أنزلته بها غير يد من مكّنته. أي رجل كان أسهل انقياداً، وأكثر سذاجة، أو بالأصح أكثر بلهاً من الإمبراطور كلوديوس؟ أي رجل ركبته امرأة مثلما ركبته مسالينا(٥٧)؟ ومع هذا أسلمها أخيراً ليد الجلاد! إن الغباوة تلازم الطغاة دائماً، حتى حين يريدون إسداء الحسن إذا أرادوا إسداءه، ولكنهم حين يريدون البطش بالمقربين إليهم يستيقظ فيهم، لا أدري كيف، القليل من فصاحتهم. ألا تعلم هذه النادرة التي فاه بها هذا الذي رأى صدر المرأة، التي شغف بها أيما شغف، حتى بدا كأنه لا يستطيع الحياة من دونها، رآه عارياً فداعبها بهذه المزحة: هذا العنق الجميل قد يقطف قريباً لو أردت؟ لهذا كان معظم المقربين إلى الطغاة القدامى يلاقون حتفهم على أيدي الطغاة أنفسهم، ولذلك لم يستطيعوا الاطمئنان إلى إرادة الطاغية بقدر ما حذروا قوته. هكذا قتل دُوميسيان إتيِنْ، وقتلت كومودوس إحدى محظياته، كما قتل أنطونان على يد مارسان، وهكذا في سائرهم(٥٨).

إن من المستيقن أن الطاغية لا يلقى الحب أبداً، ولا هو يعرف الحب،

فالصداقة اسم قدسي وجوهر طاهر، إنها لا تعرف لها محلاً إلا بين الأفاضل، ولا تؤخذ إلا بالتقدير المتبادل وليس بإغداق النعم، فالصديق إنما يأمن إلى الصديق لما يعرفه من استقامته، ضمانته هي استقامته وصدق طويّته وثباته، فلا مكان للصداقة حيث القسوة، حيث الخيانة، حيث الجور، فالأشرار إذا اجتمعوا تآمروا ولم يتزاملوا، لا حب يسود بينهم وإنما الخشية، فما هم بأصدقاء بل هم متواطئون.

وحتى لو صرفنا النظر عن هذه العوائق لتبيّنا أن من الصعب أن يضم فؤاد الطاغية حباً يوثق به، لأنه إذا علا الجميع، وعدم كل رفيق، قد خرج بهذا عينه عن حدود الصداقة التي مقعدها الحق هو المساواة، والتي تأبى دوماً التعثر في خطواتها المتساوية أبداً، لهذا نرى (في ما يقال) شيئاً من القسط بين اللصوص عند اقتسام الغنيمة، لأنهم متزاملون متكافلون، وإذا كانوا لا يتبادلون الحب فهم على الأقل يتبادلون الحذر، ولا يرغبون في إضعاف قوتهم بالتفرق بدل الوحدة. أما الطاغية فما يستطيع المقربون إليه الاطمئنان إليه أبداً، ما دام قد تعلم منهم أنفسهم أنه قادر على كل شيء، وأنه لا حق، ولا واجب يجبرانه، وما دام تعريفه صار يقوم في اعتبار إرادته العقل، وفي انتفاء كل نظير، وسيادة الجميع. أليس أمراً يدعو إلى الرثاء أن كل هذه الأمثلة الواضحة، وهذا الخطر الدائم، لا تدعو أحداً إلى الاتعاظ بها، وأن يتقرب إلى الطاغية طواعية هذا العدد الغفير من الناس من دون أن يجد أحد الحصافة والجرأة اللتين تمكّنانه من أن يقول ما قاله الثعلب، على ما ورد في الحكاية، لملك الغابة الذي اصطنع المرض: «كنت أزورك طواعية في عرينك لولا أني أرى وحوشاً كثيرة تتجه آثارها قدماً إليك، وما أرى أثراً يعود».

هؤلاء التعساء يرون بريق كنوز الطاغية، وينظرون مشاهد بذخه وقد

بهرتهم أشعتها، فإذا هذا الضوء يغريهم فيقتربون منه من دون أن يروا أنهم إنما يلقون بأنفسهم في اللهب، الذي لن يتخلف عن إهلاكهم. هكذا صنع الساتير[٥٩] الطفيلي، الذي تحكي الحكاية أنه شهد النار التي اكتشفها بروميثيوس وهي تضيء، فرأى لها جمالاً فائقاً فذهب يقبّلها فاحترق. مثله مثل الفراشة التي تلقي بنفسها في النار أملاً في الحظوة بلذة من نورها، فإذا هي تعرف قوتها الأخرى، قوتها الحارقة، كما يقول الشاعر التوسكاني[٦٠]. ولكن لنفرض أن هؤلاء الأغرار يفلتون من قبضة من يخدمون، أيعلمون أي ملك آت من بعد؟ إذا كان طيباً وجبت الإجابة عما صنعوه ولِمَ صنعوه، وإذا كان سيئاً شبيهاً بسيدهم فلسوف يصحبه أيضاً أتباعه الذين لا يقنعون بالاستحواذ على مكان الآخرين، بل تلزمهم أيضاً في معظم الأحايين أملاكهم وحياتهم. أيمكن إذن وهذا مدى التهلكة، ومدى قلة الأمن، أن يكون هناك امرؤ يرغب في ملء هذا المكان البائس ليقاسي خدمة سيد هذا مبلغ خطره؟ أي عذاب، أي استشهاد هذا أيها الرب الحق، أن يقضي المرء النهار بعد الليل وهو يفكر كيف يرضي واحداً، بينما هو يخشاه مع ذلك أكثر مما يخشى أي إنسان آخر على وجه البسيطة؟ أن يكون عيناً دائمة البصّ وأذناً تسترق السمع، حتى يحدس مأتى الضربة القادمة، وموقع المصائد، وحتى يقرأ في وجوه أقرانه أيهم يغدر به، يبتسم لكل منهم وهو يخشاهم جميعاً، لا عدواً سافراً يرى ولا صديقاً يطمئن إليه، الوجه باسم والقلب دام، لا قِبَل له بالسرور ولا جرأة على الحزن!

ولكن الأغرب هو أن نرى ما يعود عليهم من هذا العذاب الشديد، والكسب الذي يستطيعون توقعه من مكابدتهم وحياتهم البائسة. فالذي يقع هو أن الشعب لا يتهم الطاغية أبداً بما يقاسيه، وإنما ينسبه طواعية إلى من سيطروا عليه، هؤلاء تعرف أسماءهم الشعوب

والأمم، ويعرفها العالم قاطبة، حتى الفلاحون والأجراء يعرفونها، ويصبّون عليهما ألف قذيعة وألف شتيمة وألف سبة، كل أدعيتهم وأمانيهم تتجه ضدهم، كل ما يلحق بهم من البلايا والأوبئة والمجاعات يقع فيه اللوم عليهم، فإن تظاهروا أحياناً بتبجيلهم سبّوهم معاً في قلوبهم، ونفروا منهم كما لا ينفرون من الوحوش الكاسرة. هذا هو الشرف، وهذا هو المجد، اللذان ينالون جزاء على ما صنعوه تجاه الناس الذين لو ملك كل منهم جزءاً من أجسادهم لما شقي، ولا رأى فيه نصف عزاء عن شقائه، فإن أدركهم الموت لم يتوانَ من يجيء بعدهم عن أن يظهر بينهم ألف قلم، يسوّد بمداده أسماء آكلي الشعوب[٦١] هؤلاء، ويمزق سمعتهم في ألف كتاب، وحتى عظامهم ذاتها، إذا جاز هذا التعبير، يمرغها الوحل عقاباً لهم بعد مماتهم على فساد حياتهم.

لنتعلم إذن، لنتعلم مرة أن نسلك سلوكاً حسناً، لنرفع أعيننا إلى السماء بدعوة من كرامتنا، أو من محبة الفضيلة ذاتها، أو إذا أردنا الكلام عن علم فيقيناً بدعوة من محبة الله القادر على كل شيء وتبجيله، وهو الشاهد الذي لا يغفل عن أفعالنا، والقاضي العادل في أخطائنا. أما في ما يتعلق بي فإني لأرى ـ ولست بالمخدوع ما دام لا شيء أبعد عن الله، وهو الغفور الرحيم من الطغيان ـ أنه يدخر في الدار الأخرى للطغاة وشركائهم عقاباً من نوع خاص.

---

(١) عن «الإلياذة»، الأنشودة الثانية، البيتان ٢، ٤... كانت جيوش اليونانيين تحاصر طروادة منذ تسع سنوات دون أن تتمكن من الاستيلاء عليها، فبدأ المحاربون يستهويهم اقتراح العودة إلى ديارهم من دون تحقيق النصر، إلا أن أوليس استوقفهم يشرح حجته للقواد من أقرانه، فإن تحدث إلى جندي عنفه وذكره أن واجبه الطاعة لأن الأمر والرأي إنما يكونان لواحد.

هذا ولقد كانت المدن أو الدول اليونانية الأولى (حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد) تتألف من عصبيات يرأسها ملوك وأمراء، مثل الذين أشاد هوميروس بحروبهم على طروادة، صحيح أن هوميروس كان يفصل بينه وبين هذه الوقائع نحو ثلاثة قرون، وأن إلهامه كان يستند في أغلب الظن إلى روايات كانت ما تزال تتردد على الأفواه إبان حياته (القرن الثامن ق.م)، إلا أن التطابق بين أوصافه وبين ما يمكن استنباطه من الحفريات يدعو إلى الأخذ بصحتها، فلا شك في أن هؤلاء الملوك والأمراء كانوا يتفاخرون بانتسابهم إلى الآلهة، وأن هذا الانتساب لم يكن يلقى تصديق الجميع وحسب، بل إن عامة الناس كانت ترى فيه، تحديداً، السبب الذي من أجله تسرع إلى خدمتهم والقتال في سبيلهم، وهذه ظاهرة ما نزال نشهدها بين العشائر التي يتألف منها كثير من المجتمعات إلى يومنا هذا، كل الاختلاف الذي ينجم حين تعتنق هذه المجتمعات عقيدة التوحيد، هو أن الرؤساء لا ينسبون أنفسهم إلى الآلهة، بل إلى الأنبياء، والغزاة، والأبطال، من كل مضمار.

أمر آخر يجدر الوقوف عنده، ذلك أن الكلمات الدالة في اللغة اليونانية (واللغة دستور الجميع إذا جاز التعبير) على علو المكانة (مثل أريسطوس وأجاثوس وأستلوس...، إلخ.) كانت تدل كذلك على السمو الخلقي. وهذه أيضاً ظاهرة ما نزال نشهدها إلى يومنا في اللغة الإنكليزية، مثلاً حيث تدل الكلمة ذاتها (نوبل) على الانتماء إلى الطبقة الأرستقراطية، وعلى صفة تسند إلى أفعال الشخص أو حتى ما يقدمه من النبيذ.

(٢) الكلمة التي ترجمناها هنا بـ «الجماعة» هي ما يترجم اليوم بـ «الجمهورية»، ولكنها كانت ترد في القرن السادس العشر بالمعنى الحرفي الذي يخرج من اشتقاقها، وهي مشتقة من كلمتين في اللغة اليونانية: رس بمعنى شيء، وبوبليكوس بمعنى عام، ومنه كان معناها الأضبط هو المنفعة أو المصلحة العامة، ولما كانت هذه الفكرة أحد التصورات الأساسية التي ينبني عليها القانون الروماني، فقد بدا لنا ــ بعد أن نبهنا إليه الدكتور إسماعيل عبد الله ــ أن أقرب ما يعادلها في الفقه العربي هو تصور «الجماعة».

(٣) هنا أيضاً يستخدم المؤلف كلمة تترجم اليوم بـ «الملكية»، وترجمناها بـ «حكم الواحد» لاشتقاقها من اليوناني «مونوس» بمعنى واحد، و«آركي» بمعنى السلطة أو الحكم.

(٤) كانت الديموقراطية في أثينا (مثلها في الولايات المتحدة اليوم) لا تنفصل عن سياستها المسيطرة أو الإمبريالية، التي تكفل رغد مواطنيها، لذا أعلن عليها الحرب عام ٤٣١ ق.م. درءاً لهذه السياسة عدد من المدن أو الدول اليونانية تزعمته إسبرطة، وهي الحرب المعروفة باسم حرب البلوبونيز. وفي العام ٤٠٤ ق.م. انتهت هذه الحرب الطويلة بهزيمة أثينا، وبأن أملت إسبرطة على شعبها مجتمعاً في مجلسه اختيار ثلاثين (محرراً) (لوغوغرافوي) أوكل إليهم تحرير دستور جديد، ولم يلبث هؤلاء الثلاثون، الذين ينتمون إلى الطبقة الأوليغاركية، أي إلى القلة الثرية ذات الحسب، أن استولوا على زمام الحكم، ولم يلبث حكمهم أن انقلب إلى رعب مسلط على الرؤوس: الجيش الإسبرطي يرابط فوق الأكروبول، الأجانب المقيمون بأثينا ومواطنوها أنفسهم إما يقتلون أو يشردون أو تصادر ممتلكاتهم، أما الدستور الموعود فلم يرَ الضوء. وبلغت المأساة ذروتها حين قُتل زعيم المعتدلين بين الثلاثين، لاثيرامي، وانفرد بالحكم أعتاهم، كريتياس، إلا أن الطغاة لم يستطيعوا دفع جماعة من المتمردين ترأسهم ثراسيبول عن الاستيلاء على بيريه، مرفأ أثينا، بعد معركة قتل فيها كريتياس (ديسمبر ـ يناير ٤٠٤/٤٠٣ ق.م.)، بهذا الانتصار تسنى الاتفاق بين المعتدلين من الأوليغاركيين وبين الديموقراطيين اتفاقاً توسط فيه ملك إسبرطة، وانتهت المحنة برجوع النظام الديموقراطي في أواخر صيف ٤٠٣ ق.م.، والقضاء على فلول الثلاثين، ويعد هذا الاتفاق صفحة من أمجد صفحات الديموقراطية في أثينا، لأن ثراسيبول قد أمكنه من جهة فرض مطالب الشعب (أي الفلاحين والحرفيين وبعض التجار) ومن ناصره من العبيد والأجانب، ولكنه من جهة أخرى قد أمكنه إقناع الشعب بألا يشتط في مطالبه إلى الحد الذي يخلق حزازات وضغائن لا نهاية لها. هذا في وقت خرجت فيه أثينا والدول اليونانية عامة من الحرب ضعيفة منهكة إلى حد لم

تقم لها قائمة بعده، ومكن فيليب المقدوني وابنه الإسكندر من افتراسها. ويذهب بعض الكتاب المعاصرين إلى أن الاتفاق المذكور كان بمثابة النقلة التي حلت فيها فوقية القانون أو سيادته العليا محل فوقية إرادة الشعب، ولكن المغزى الأوضح الذي يخرج من هذا الاتفاق هو أن «القانون» إنما يعني هنا العقد، الذي تم بمقتضاه التراضي بين الطبقات في وقت لم يكن فيه بد من التراضي.

(٥) يبتدع لابواسييه في هذا الموضع لفظاً فرنسياً استمده من لفظ لاتيني نجده عند شيشرون، والمؤلف المسرحي بلرط، بمعنى صيغة التصغير من رجل، كما لو قلنا بالعربية (رجيل). آثرنا ترجمته بكلمة (خنث) من (خنث الرجل خنثاً: كان فيه لينٌ وتكسر وتثنٍّ فكان على صورة الرجال وأحوال النساء فهو خنث) (عن المنجد).

(٦) ثار نقاش حول من المراد بهذا الوصف: أهو شارل التاسع أو هنري الثالث؟ ولكن الأصح أن المؤلف إنما أراد أن يرسم صورة نموذجية، وإن صدقت على كثير من الحكام، دحضاً للرأي العام القائل بأن هناك من جعلوا بطبيعتهم للسيادة وهناك من جعلوا مسودين.

(٧) ميلسيادس قائد أثيني تحقق بفضله أول انتصار حققه الإغريق ضد الفرس، وذلك في معركة ماراتون عام ٤٩٠ ق.م. ثيميستوكل قائد آخر يرجع إلى سياسته من أجل تقوية الأسطول الأثيني، ويرجع إلى براعته ونبوغه الفضل الأول في انتصار اليونانيين الحاسم في معركة سلامين البحرية عام ٤٨٠ ق.م.، التي انتهت بها حملة كسركس الثانية، التي كان قد أعد لها جيشاً يقدّر بمائة ألف مقاتل، وأسطولاً يقدّر بألف سفينة. أما ليونيداس فإسبرطي خلد ذكره استشهاده مع ثلاثمائة من رجاله في معركة مضيق ترمويبل، التي خاضها بغية تعويق تقدم الفرس في البر. هذا ولقد صار هذا الانتصار رمزاً لانتصار الحرية على الاستبداد. وصحيح أن شعوب الإغريق كانت لها في إدارة شؤونها مشاركة حرمت منها في أغلب الظن شعوب العدو، وأن هذا الفارق ربما لعب دوراً في هذا الانتصار، ولكن ذلك لا يمنع أن هذه الحرب،

أياً كان وجه استخدامها لأغراض الرمز، كانت في واقع أمرها صراعاً ضارياً بين قوتين تهدف كل منهما إلى السيطرة على المعمورة: فارس وأثينا، ومن المعلوم أن المدن أو الدول اليونانية ما أن تحقق لها هذا النصر المشترك، حتى عادت إلى تفرق بعد اتحاد، وحتى شن بعضها الحرب على أثينا في حرب البلوبونيز التي سبقت الإشارة إليها.

(٨) أول نص تشريعي صاغ فكرة القانون، أو الحق الطبيعي، هو موسوعة القانون الروماني التي قام بجمعها وتبويبها وتعريف تصوراتها الأساسية والإشراف على تحريرها، بأمر من الإمبراطور جوستنيان، أمام رجل القانون في عصره: تريبونيان. يبدأ النص بهذا التعريف: «قانون الطبيعة هو القانون الذي غرسته الطبيعة في جميع المخلوقات». تلي ذلك التفرقة بين هذا القانون المسمى أيضاً باسم «قانون كافة الشعوب» و«بين قانون الدولة»، أي القانون الخاص بهذه الدولة أو تلك، ثم بيان عن سبب هذه التفرقة: «إن ضرورات الحياة الإنسانية بمطالبها قد أدت بشعوب العالم إلى سن شرائع معينة: نشبت الحرب بينها، وأسر البعض وصاروا عبيداً خلافاً لقانون الطبيعة. فالناس بحسب قانون الطبيعة ولدوا أحراراً في البدء». هذا بينما «تصدر جميع العقود تقريباً عن قانون كافة الشعوب، سواء تعلق الأمر ببيع أو إيجار أو شركة أو إيداع أو قرض أو غيره» فكل شعب يطبق قانوناً يخصه جزء منه، ويشترك بجزء آخر منه مع غيره. ولقد استعاد مفكرو العصور الوسطى، الذين لم تكن فكرة الدولة عندهم قضية مسلّمة، لأنهم إنما كانوا يشهدون دولاً جديدة آخذة في النشوء على أنقاض الدولة الرومانية المندثرة، استعادوا فكرة القانون الطبيعي هذه، لأنهم واجهوا هذا السؤال: كيف يمكن ألا يكون القانون إلا بالدولة ومن أجلها وفي ظلها، وألا تكون الدولة إلا بالقانون ومن أجله وفي ظله؟ فوجدوا المخرج في التمييز الذي فصّله بنوع خاص القديس توماس الإكويني بين «القانون الطبيعي» و«القانون الوضعي». هذا وقد تجدد في عصرنا الاهتمام بمناقشاتهم في هذا الباب كما في غيره، خاصة وأن السؤال الذي أثاره قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بسؤال آخر لا يقل عنه حدة: هل جوهر القانون هو العقل أو الإرادة؟

(٩) لا شك أن لابواسييه يلمح هنا إلى نظرية أذاعها المشرعون الإنكليز في عصر أسرة تيودور مؤداها أن للملك جسدين، أحدهما مادي فانٍ والآخر غيبي لا يتطرق إليه الفناء، هذه النظرية المضحكة فيزيولوجياً كانت لها وظيفة سياسية بالغة الأهمية، هي إدخال التمييز بين ما يعود من الحكم إلى شخص الحاكم، وما يعود إلى وظيفته أو منصبه. هذا التميز هو الذي سمح للإنكليز بمحاكمة الملك شارل ستيورات وإعدامه بتهمة الخيانة، من دون أن يذهبوا إلى إلغاء الملكية كما فعل الفرنسيون في ١٧٩٣م، لأن (الملك) كما قال أحد قضاتهم، اسم للدوام، باق بما هو رأس الشعب وحاكمه (حسب القانون) طالما بقي الشعب... وفي هذا الاسم لا يموت الملك أبداً. أضف أن هذه النظرية مستقاة لا من العقائد النصرانية عن المسيح والكنيسة وحسب، بل أيضاً، وأكاد أقول أولاً من استعارة الجسد من حيث تطلق على كل مجتمع ديني أو مدني، وعلى مقوماته المختلفة بما فيها الاتحادات المهنية والجامعية التي لعبت دوراً هاماً في تطور الغرب، والتي يطلق عليها في لغاته اسم ترجمته الحرفية هي «المتجسدات».

(١٠) المراد بالأكاديميين هنا هم أشياع الفلاسفة الأفلاطونية في القرن السادس عشر. ففي ٣٨٥ ق.م.، على أرجح تقدير، أسس أفلاطون، بضاحية من ضواحي أثينا، مدرسة عرفت باسم «الأكاديمية» لوقوعها في حديقة وملعب عرفا بهذا الاسم، نسبة إلى البطل أكاديموس. استمر نشاط هذه المدرسة تسعة قرون، إلى أن حلها جوستنيان في ٥٢٩ ب.م. وفي القرن الخامس عشر، بعد أن سقطت القسطنطينية في يد الترك، وهجرها العلماء الهيللينيون، سنحت للغرب معرفة المخطوطات المشتملة على محاورات أفلاطون ورسائله، وما لبث أن ظهرت لها ترجمات متعددة، ومع هذا ظلت الجامعات تعرض عن تدريس فلسفته لغلبة الفلسفة الأرسطية عليها، لهذا عاد الفضل في نشر الفلسفة الأفلاطونية، التي لم يتم انتصارها إلا في القرن السابع عشر، إلى رجال عرفوا باسم «الأكاديميين»، ولم يكن غريباً أن يتجه أول اهتمام هؤلاء إلى مسائل الفلسفة السياسية التي اشتغل أفلاطون بها اشتغالاً لا يكاد يترك

مجالاً للشك، في أنه إنما أسس مدرسته بغية تكوين التلاميذ تكويناً يؤهلهم لخدمة المدينة على أفضل وجه.

(١١) لا وجود لهذين البيتين في أشعار لابواسيه التي نشرها مونتينيه.

(١٢) عضو برلمان بوردو الذي أخذ لابواسيه مقعده، وإليه أهدى مخطوطه.

(١٣) إشارة إلى ما ورد في العهد القديم (صموئيل الأول، الإصحاح الثامن) من أن كل شيوخ إسرائيل اجتمعوا، وجاءوا إلى صموئيل يسألونه أن يجعل لهم ملكاً يقضي لهم كسائر الشعوب (وكان يحكم إسرائيل قضاة) فساء الأمر في عيني صموئيل، فصلى إلى الرب فأمره بأن يصنع ما طلب الشعب بعد أن ينذره، فأنذره: «هذا يكون قضاء الملك الذي يملك عليكم، يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه، ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثه ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه، ويأخذ بناتكم عطّارات وطباخات وخبازات، ويأخذ من حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده، ويعشّر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده، ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله، ويعشّر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً، فتصرخون في ذلك اليوم في وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم» فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا: لا بل يكون علينا ملك. ومما يذكر أن اختيار صموئيل قد وقع بإيعاز من الرب على شاول. فجعله ملكاً بأن أخذ «قنينة الدهن وصب على رأسه وقال أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيساً». وهكذا بدأت طقوس الدهن التي سبقت الإشارة إليها في التراث اليهودي المسيحي.

(١٤) كان بيستراتس ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، برز في الحرب بين أثينا وميغارا، حوالي العام ٥٦٥ ق.م. فلما دبّ الانقسام في أثينا بين الحكام ترأس هو فريقاً أو حزباً ثالثاً ضم إليه المعتقين والمدقعين، ثم نصب نفسه طاغية عليه فطردوه من الحكم بعد أن ظل يمارسه زهاء خمس سنوات، فلم يستتب له الاستبداد به إلا بعد أن رجع وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً عام ٥٤٦

ق.م. مات عام ٥٢٧ بعد مرض. ولقد حرص بيستراتس على الالتزام بدستور صولون فلم يذهب إلى حد مصادرة أملاك النبلاء وتوزيعها بالتساوي، ولكنه شجع صغار الملاك بتيسير القروض لهم، وعمل على إزاحة البطالة من الريف معتمداً في هذه السياسة على الضرائب المفروضة على الإنتاج، والتجارة، في وقت ازدهرت فيه صناعة الخزف، وانتشرت في كل بلاد اليونان، جمّل أثينا وجمع أشعار هوميروس ونشرها، وكان من نتائج حكمه الطويل أن أضعف قبضة النبلاء على أشياعهم، وشجع ظهور الفردية في كثير من المجالات، مما مهد الطريق لعودة الديمقراطية بعد أن تخلص الشعب من أبنائه.

(١٥) ديونيسيوس، بين ٤٣٠ و٣٦٧ ق.م. تقريباً، في عام ٤٠٦ق.م. أخفقت سيراقوصة في تحرير اجريجنتا من قبضة القرطاجنيين، فتسنى له إقناع مجلس الشعب بانتخاب قواد جدد بينهم هو، ثم لم يلبث أن أزاح زملاءه وتزود بحرس خاص وظل انتخابه على رأس الدولة يتكرر تكراراً منتظماً، سوى أنه أخفق في وقت تقدم القرطاجنيين، وواجه ثورة أرستقراطية جعلته يقبل صلحاً باهظاً مع قرطاجنة، فلما تغلب على المعارضة الداخلية عاد إلى محاربتها حتى انتصر عليها، وصد غزواتها المتعددة، ثم بعدئذٍ وسع سلطانه على الجزء الغربي من صقليه، وعلى إيطاليا، حتى امتد نفوذه إلى الأدرياتيك. كان ديونيسيوس طاغية من الطراز الأول، اتسم حكمه بمزيج من البأس والحنكة والأبهة، ما زال يثير العجب حتى اليوم.

(١٦) المراد ميثريدات السادس ملك بونطوس جنوب البحر الأسود، حكم بين ١٢٠ و٦٣ ق.م. ازدحمت حياته بالأحداث العاصفة، أولها مصرع أبيه ووصية تدعو إلى الارتياب يستخلف فيها زوجته وولديه الأصغرين، فرّ من أمه وظل هارباً حتى عاد فجأة إلى العاصمة سينوب فحبس أمه، وقتل أخاه، وتزوج أخته، ثم استأنف سياسة والده التوسعية فاستولى على معظم آسيا الصغرى، وامتدت فتوحاته إلى اليونان حيث رده الرومان. وقعت بينه وبينهم عدة حروب انتهت باستيلائهم على بونطوس، وثورة الرعية، وعلى رأسها

ابنها فارناسس، فلما أراد الانتحار تبين أن نظاماً من الوجبات الوقائية قد جعل له مناعة ضد السم، فمات بسيف حارس من حراسه وقد بلغ من العمر ٦٩ عاماً. لا شك أن ميشريدات كان أصلب أعداء روما عوداً في مكره، وشجاعته، وقدرته على تعبئة الجيوش وتنظيمها، ولكنه خلا من المهارة في التخطيط، وعجز عن الاحتفاظ بولاء رعيته، ثم هو في النهاية لم يكن يمثل تمثيلاً صادقاً لا اليونانيين الذين كان يميل إليهم، ويحب التشبه بهم (تدل صوره على تقليد الإسكندر)، ولا الإيرانيين الذين كان يتكون منهم العنصر الغالب بين أبناء شعبه.

(١٧) كان مثقفو عصر النهضة يرون في جمهورية مدينة البندقية المثل الأجمل للحرية، حتى أن لابواسيه كان يؤثر لو وُلد بها، على ما يخبرنا به صديقه مونتنيه (المقالات، الكتاب الأول، الفصل ٢٨). ولكن الحقيقة هي أن الأمر كان له وجهان: فالبندقية شأنها شأن جميع المراكز العمرانية الكبرى التي يؤمها التجار والصيارفة وصانعو الثروات من كل حدب وصوب، كانت تتمتع فعلاً بحرية اجتماعية واسعة، تتيح تجاور الجميع على اختلاف عاداتهم وأزيائهم. أما من الناحية السياسية فقد احتكرت الحكم فيها، منذ القرن الرابع عشر، طبقة من الأعيان ذوي الثروات الطائلة انقطعت صلتها بالشعب (وأعني بالأخص الحرفيين الذين كان لهم على العكس دور مهم في فلورنسه) وإن حرصت على ألا ينفرد به واحد منهم. لهذا أسندت السلطة إلى مجلس العشرة. هذا المجلس، الذي ندر أن حاذاه جهاز في اتجاهه المحافظ، هو الذي كان يقوم بانتخاب الدوق المنوط به تجسيد قوة البندقية، ولكن مع قيود ترمي جميعها إلى تخفيف دوره الشخصي.

(١٨) سلطان تركيا. ننبه إلى أن الشعوب الأوروبية كانت تسمى في القرن الثالث عشر باسم المسيحية أو بلاد المسيحيين، وهي تسمية كانت تصدر عن الشعور بالوحدة الدينية التي بثته فيها الحروب الصليبية، وفي القرن الخامس عشر ظهرت التسمية باسم «أوروبا» أو «الشعوب الأوروبية»، لا لأن هذه الشعوب كانت قد تحققت بينها وحدة سياسية، فقد حدث العكس: صارت فكرة

الإمبراطورية الواحدة أو الشاملة ادعاء لا صلة له بالواقع، بينما بدأ ظهور الدول الحديثة بانقسام الشعوب الأوروبية إلى ممالك يحكم كل منها ملك غيور على استقلاله، كما تدل عليه العبارة الجارية إذذاك: «كل ملك إمبراطور على مملكته». إلا أن هذه الشعوب كان يبدو لها أن ملوكها هؤلاء، وولاة الأمر فيها كانت لهم فيما بينهم، وفي تعاملهم معها، قواعد تختلف عما يتبعه طغاة الشرق، ومنه كان ظهور التسمية الجديدة ينطوي على تعريف الغرب لنفسه بالحرية السياسية، أضف إليه تقوية الشعور بالوحدة الثقافية، ثم حاجة التمييز الجغرافي بالنسبة إلى الأرض المكتشفة حديثاً، وأعني بها القارة الأميركية. فأما نصيب هذا التعريف من الصحة أو الكذب فهذا ما يستحق أن يفرد له مبحث خاص.

(١٩) ليكورج مشرّع نسب إليه الإسبرطيون دستورهم ونظامهم السياسي والاجتماعي، وظلوا حتى منتصف القرن الرابع ق.م. يوجهون إليه من مظاهر التبجيل ما لا يحظى به إلا الآلهة. أما العصر الذي عاش فيه فهذا ما اختلفت فيه الروايات اختلافاً تفاوت بين القرنين التاسع والسادس ق.م. هذا الاختلاف وهذا التبجيل المفرط جعلا بعض الكتاب ينحون إلى الشك في وجوده، محتجين أيضاً بأن الكثير من سمات نظامه تشبه السنن القبلية البدائية، ولكن معظم الثقاة يتفقون على أن قواعد النظام الإسبرطي قد أرسيت في القرن السابع ق.م.، وأنه ما من حجة تمنع الاعتقاد بأن إرساءها هذا كان من صنع مشرّع واحد عظيم.

(٢٠) ورد اسم لاسيدومونيا في هوميروس مرادفاً لإسبرطة. ثم غلبت دلالته الجغرافية والسياسية، إذ أطلق على هذه المدينة والريف التابع لها بما هي جميعها وحدة سياسية. بينما تتكثف حول إسبرطة مستدعيات تاريخية شعرية فلم يستخدم اسمها للدلالة على الأرض من دون المدينة.

(٢١) كاتو (٩٥ ـ ٤٦ ق.م.) أحد كبار رجال الدولة الرومانية في أواخر عهد الجمهورية. عرف بصرامته وبانتصاره الذي لا يلين للمبادىء. انضم إلى بومبي حين قامت الحرب الأهلية بينه وبين يوليوس قيصر. وانتهت به تقلبات

هذه الحرب بأن حاصرته قوات قيصر، وهو بأوتيكا (مدينة على الساحل الأفريقي لا تبعد عن قرطاجنة) حيث مات موتاً مشهوداً ممزّقاً أحشاءه بيده، كما ورد في «سير الأعلام» لبلوتارك.

(٢٢) سيلا (١٣٨ ـ ٧٨ ق.م.) هو أول قائد روماني استغل قوته بين العسكر فاستحوذ على زمام الدولة مستهدفاً تقوية الجمهورية فيما يبدو، ولكنه في الواقع إنما رسم المثل الذي احتذاه بعد ذلك من هدموها. بلغ من إمعانه في مصادرة الأموال والنفي والاغتيال أن عم الخوف مناصريه أنفسهم.

(٢٣) السمريون (وبالآشورية «الجمريّون» الوارد ذكرهم في التوراة، سفر التكوين) شعب أقام على شواطىء البحر الأسود حيث الاتحاد السوفياتي سابقاً، ثم طرده السكيثيون فأغار على آسيا الصغرى مقوضاً عرشها، ناشراً الذعر في ربوعها، إلى أن قضت عليه شيئاً فشيئاً الأوبئة وحروبه ضد الليديين والآشوريين. ولكنه يرد في الإلياذة للدلالة على شعب أسطوري يستوطن أبعد بقاع المعمورة، حيث لا تشرق الشمس أبداً، وإليه قصد أوليس بغية استحضار الموتى، واستفسار العرّاف ثيربسياس، الذي كان ينسب إليه العلم بالغيب. الراجح أن لابواسيه يلمح هنا إلى أسطورة أهل الكهف عند أفلاطون.

(٢٤) يتضمن النص هنا رأياً قانونياً يدحض الرأي القائل بأن أساس الحق هو العادة أو العرف. وتتأيد هذه الدلالة إذا تنبهنا إلى أن الكلمة الفرنسية التي ترجمناها بـ «الغبن» تعني حرفياً، إذا رجعنا إلى اشتقاقها، انتفاء الحق أو عدمه.

(٢٥) التعبير الفرنسي ترجمته الحرفية «التركي الكبير»، ولكنه ينطوي على استخفاف، ثم إن حامله كان يعد الرمز الأول للطغيان. ولا يُكذِّب كلام لابواسيه هنا وإن لم يكف في تأييده ما يخبرنا به الدكتور إبراهيم سلامة، في رسالته المقدمة إلى السوربون عام ١٩٣٩، عن التعليم الإسلامي في مصر من أثر سياسة الأتراك في القضاء على المدارس.

(٢٦) هذا الإله الساحر شخصية مسرحية أكثر منه خلقاً أسطورياً.

(٢٧) فولكان إله النار والحدادة، هيفايستوس عند اليونان.

(٢٨) بروتوس وكاسيوس قاتلا يوليوس قيصر.

(٢٩) هارموديوس وأرسطوجيتون شابان أرادا قتل هيباس الذي تولى حكم أثينا مع أخيه، بعد موت أبيهما بيستراتوس (انظر هامش ١٤)، ولكنهما أخفقا وماتا شرّ ميتة. رأى الأثينيون في موتهما استشهاداً، وأشادوا بذكرهما ملقبين إياهما بلقب مانحي الإيسومونيا ـ وهو المساواة أمام القانون ـ. عن ثراسيبول انظر الهامش ٤. أما بروتوس الأقدم وفاليريوس، فكانا بين مؤسسي الجمهورية الرومانية. أما ديون فكان صهراً لديونيسيوس الأول الذي سبق ذكره (انظر الهامش ١٥). أراد أن يجعل من ابنه ديونيسيوس الثاني ملكاً فيلسوفاً متأثراً في ذلك بعلاقته بأفلاطون والأكاديمية. فلما أخفق خلّص البلد منه ولكن زمام الأمور أفلت من يديه، فاشتد وتعسف، برغم ادعائه الاستناد إلى المبادىء الفلسفية، حتى قتل بدوره.

(٣٠) عاش كسينوفون بين ٤٢٧ و٣٥٤ ق.م. وضع كتباً كثيرة ربما كان أشهرها دفاعه عن سقراط. انفرد باهتمامه بالقضايا المالية والاقتصادية. أما الكتاب الذي كتبه في شكل حوار، كما ينبغي لرجل تتلمذ على سقراط، فيشير عنوانه «هيرون» إلى طاغية فتح بلاطه للشعراء والفلاسفة، بينما زادته انتصاراته في الألعاب صيتاً على صيت. مات عام ٤٧٦ ق.م. وكان سيمونيد، وهو طاغية آخر حكم جزيرة رسبوس، قد زاره بسيراقوصة عام ٤٧٦ ق.م.

(٣١) حمل كثير من رجال الدولة الرومانية اسم سيبيون. لقب أحدهم «بالأفريقي» لأنه فتح أفريقية.

(٣٢) من مسرحية «الخصي»، الفصل الثالث، المشهد الأول.

(٣٣) المراد كسرى الأكبر، الذي أسس الإمبراطورية الفارسية في القرن السادس قبل الميلاد، وليديا من ممالك آسيا الصغرى.

(٣٤) طريقة في اصطياد العصافير تقوم في استدراجها بالصفير لها على نحو معين.

(٣٥) موائد يلتف حولها أفراد الشعب، عشرة حول كل مائدة.

(٣٦) فر نيرون من روما بعد أن تمرد عليه حكام الأقاليم، ولفظه الشعب بجميع

طبقاته، فلما لحق به مطاردوه انتحر في مخبئه وهو يولول، غير مصدق لما يحدث له، هكذا كان مبلغ فتونه بنفسه.

(٣٧) وصف دقيق لهذا المؤرخ الذي ولد عام ٥٦ بعد الميلاد، ولا نعلم على التحقيق متى مات. تقلب في أرفع المناصب، وكتب كتباً كثيرة أشهرها المعروف باسم التواريخ، وصف فيه الحرب الأهلية بما زخرت به سواء من المطامع والمؤامرات، أو من أمثلة الشجاعة والصداقة، وصفاً لا يدانى في قوته.

(٣٨) وصف المؤرخ سويتون جنازة قيصر في كتابه «حياة القياصرة الاثني عشر» فقال: «لما أعلن عن موعد الجنازة نصبت المحرقة في ميدان مارس (إله الحرب) بجانب قبر يوليا (ابنة قيصر) وشيّد تجاه منصة الخطابة مبنى مطلي بالذهب، على طراز معبد فينوس الوالدة، وضع به سرير من العاج غطي بالأرجوان والذهب، ووضعت على رأس السرير شارات انتصارات قيصر مع الثياب التي كان يرتديها حين قتل، ولما تبين أن اليوم كله لن يكفي لمرور الناس الذين اصطفوا حاملين قرابينهم، صدر قرار بأن يحمل كل من شاء قرابينه إلى ميدان مارس متبعاً أي طريق كان من دون الانتظام في الصف، وفي خلال الألعاب الجنائزية تغنى الناس بالأشعار التي تثير الشفقة على قيصر، والنقمة على قاتليه، مثل هذا البيت: «أوجب أن ينقذهم ليصبحوا قاتليه؟» وأبيات أخرى بالمعنى نفسه، واكتفى القنصل أنطونيو (مارك) في رثائه بأن طلب إلى أحد المنادين أن يقرأ مرسوم مجلس الشيوخ الذي أسبغ على قيصر بالإجماع كل التشريفات الإلهية، والإنسانية، وكذلك العهد الذي كان جميع الشيوخ قد أقسموا فيه بالذود عن حياة قيصر، ولم يضف هو إلا كلمات قليلة، ثم بعدئذٍ حمل النعش إلى الميدان أمام منصة الخطابة عدد من كبار رجال الدولة الحاضرين والسابقين، وكان البعض يرى حرقه في معبد جوبيتر على الكابيتول، والبعض الآخر في مجلس الشيوخ، وإذا برجلين تمنطق كلاهما بسيف وحمل بيده رمحاً يشعلان فيه النار فجأة بشموع موقدة، ولم يلبث جمهور المشيعين أن كدّس حوله الحطب والمقاعد ومنصات القضاة، ثم جمع الهدايا التي وسعه أن يجدها، بعدئذٍ خلع لاعبو المزامير والممثلون ثياب

الاحتفال بالنصر، التي كانوا ارتدوها لهذه المناسبة، وزجوا بها في النار، كما زج قدماء الجنود الذين حاربوا تحت لوائه بالأسلحة التي كانوا قد تزينوا بها للمشاركة في جنازته. لا بل إن عدداً كبيراً من الأمهات رمين في النار حليهن وحلي أطفالهن وعباءاتهم. إلى جانب هذه المظاهر العامة التي تجلى فيها حزن الجمهور أدت الجاليات الأجنبية مراسم الحداد، كل جالية على حدة حسب طقوسها وبخاصة اليهود، الذين ذهبوا إلى حد التجمع حول قبره لليالي عديدة، (لأن قيصر هو الذي هزم بومبي الذي كان قد استولى على القدس). وبعد أن انتهت الجنازة على الفور شيّد له العامة عموداً من مرمر نوميديا بلغ ارتفاعه نحو العشرين قدماً، ونقش عليه: «إلى أبي الوطن».

(٣٩) لقب «وكيل الشعب» يحتاج إلى بعض الإيضاح، ذلك أن رومولوس كان قد قسّم الشعب الروماني تقسيماً إدارياً وليس على أساس صلات الدم، أو الرحم، إلى عشر قبائل يترأس كلاً منها عشرة آباء، أو شيوخ، ويتكون من مجموعهم المجلس المعروف بهذا الاسم، أما الملك فلم يكن يتولى الحكم بالوراثة، بل كان يستخلفه سابقه. فإن مات السابق من دون أن يستخلف أحداً تناوب الشيوخ الحكم إلى أن يختار الشعب ملكاً بشرط أن يوافق الشيوخ على اختياره. وكانت سلطة الملك، أو بالأدق إمارته المدنية (أميريوم) إمارة مطلقة تشمل حق السلم والحرب وحق الحياة والموت على جميع سكان المدينة، ثم هي كانت لا تنفصل عن إمارته الدينية (آوسبيسيوم) التي تبيح له حق استشارة الآلهة لمعرفة مشيئتهم في شؤون السياسة والحرب والقضاء. وفي القرن الخامس قبل الميلاد سقط النظام الملكي، وحلت محله (الجمهورية) (انظر الهامش ٢) ولكن جميع الوظائف القيادية في إدارة الدولة ظلت بيد الشيوخ وأسرهم، فنجم عن ذلك شقاق هدد بتصدّع الأمة كلها لولا أن العامة ظفرت بحق انتخاب وكلائها الذين يتحدثون باسمها دفاعاً عن مصالحها. ولم يكن هؤلاء الوكلاء يشاركون في الحكم مشاركة إيجابية، ولكنهم كان في مستطاعهم حماية شرف العامة ومصالحها بممارسة حق الفيتو إزاء جميع القرارات الإدارية، وإزاء القوانين التي يصدرها مجلس

الشيوخ على السواء. هذا ولقد كانت الكلمة اللاتينية التي ترجمناها بـ «الوكيل» (تريبونوس) مشتقة من كلمة تريبوس بمعنى «قبيلة»، لأن كل قبيلة كانت تختار وكلاءها ـ ويقال أيضاً لبعضهم ماجستير ـ ومعناه كل موظف في جهاز الدولة، وإن غلب بعد ذلك إطلاقه على القضاة خاصة.

(٤٠) كان لونجا، وهو عضو برلمان بوردو، الذي أخذ لابواسيه مكانه، يعلم بطبيعة الحال نصوص القرارات والمراسيم الملكية التي لم يكن يخلو واحد منها من نفاق التعلل بالخير المشترك، والمنفعة العامة.

(٤١) كان ملوك مصر القديمة ـ وكذلك ملوك آشور ـ شيئاً يزيد على البشر فعلاً، كما يقول لابواسيه. كان فرعون أقرب إلى الشمس منه إلى سائر الخلق: فهو ابن رع، وإلى السماء منه إلى الأرض: فهو حوريس المحلق فوق القبة الزرقاء، وكانت له بعد الممات حياة يبعث إليها في شكل أوزيريس. ثم هو كان الوسيط بين الآلهة والبشر، يضمن لأولئك أداء الفرائض ولهؤلاء الرغد والعدالة والنصر. لذا سمي حكمه حكماً ثيوقراطياً أو ربوبياً (ثيو: باليونانية= إله أو رب). وكان حصول هذه المكانة فيه يتحقق بطقوس من نوع ما يسمى في الأنثروبولوجيا بطقوس الانتقال، يدبرها الكهنة تدبيراً دقيقاً أهمها عدا التزيين والتتويج التطهير بالماء والدهن بالزيت، ومنه سمي الملك في المسيحية بعد أن انتقلت إليها بعض هذه الطقوس عبر التوراة باسم (دهين الله). إلا أن القيمة الكبرى التي كان يعلقها قدماء المصريين على الإلهة من (الحقيقة والعدالة) كانت تحول دون جنوح الحكم الفرعوني إلى ما يسمى بالحكم المطلق، وإن تكن هذه القيمة قد بقيت في صورة العرف من دون أن تتخذ شكل التشريع. أضف أن هذه المكانة التي كان فرعون يعلو بها سائر البشر لم تكن تضفى عليه من حيث وجوده الفردي البيولوجي بل من حيث وظيفته العامة. لذا يخطىء القارىء إذا ظن أن هذه التعلية قد امحت اليوم آثارها بفضل التقدم، فلفظ فرعون نفسه لفظ مركّب من كلمتين تعنيان بالمصرية القديمة «البيت الكبير»، مثلما نقول اليوم البيت الأبيض، أو الإليزيه، دلالة على رؤساء الدول المعاصرين. أما الأغاني التي كانت تصحب طقوس الدهن

أو التوبيج، كهذه الأغنية: «ليفرح البلد كله فقد جاء الزمن السعيد، علا سيد جميع الأراضي... والغمر فاض والنهار طال. الليل انضبطت ساعاته والقمر يرجع في مواقيته»، فهل من ينكر أن التغني بالحكام من شيم الشعوب؟

(٤٢) بيروس (٣١٨ ـ ٢٧٢ ق.م.) هو أشهر ملوك أبيروس بجوار مقدونيا. بهر معاصريه ببراعته في فنون الحرب والقتال وبمهارته الانتهازية في مجال السياسة، ولكنه لم يحقق نصراً دائماً. ربما كان أهم آثاره أنه حول أبيروس إلى دولة قوية مندمجة اندماجاً تاماً في العالم الهلليني.

(٤٣) ولد فاسيان عام ٩م. كان أبوه جابياً للضرائب، وكانت أسرة أمه تنتمي إلى ما يسمى في روما بطبقة الفرسان، وهي طبقة تقل درجة عن طبقة الشيوخ، وإن يكن أخوها قد دخل مجلسهم. تقلب في أكبر مناصب الدولة المدنية والعسكرية، ثم لما احتدم الصراع حول خلافة الإمبراطور جالبا أعلنت فرقتان رومانيتان بالإسكندرية اختيارهما له إمبراطوراً في الأول من يوليو عام ٦٩م، ولم تلبث أن حذت حذوهما الجيوش الرومانية في فلسطين وسوريا. كان ذا طاقة كبيرة على العمل متواضعاً في حياته محباً لأسرته حباً انحرف إلى المحاباة، حتى أنه استخلف ولديه كالمتبع في ممالك الشرق وبخلاف المتبع في روما. ربما كان أعظم منجزاته إنهاء الحرب الأهلية ونشر السلام. هذا ولقد كان الاعتقاد بقدرة الملوك على إتيان الشفاء لا يزال سارياً في عصر لابواسيه في فرنسا وانكلترا على السواء. كان المرض بالتحديد هو البرص، وكان الشفاء بتلمس المواضع المصابة ورسم علامة الصليب تتلوه صدقة نقدية. وكان المفروض أن هذه الكرامة تدخل في ما يحصل للملك بفضل طقوس الدُّهن. ولم يبطل هذا الاعتقاد لأنَّ الوقائع كذبته، فكون العلة تدخل في سجل الوهم لا يمنع قدرتها على إحداث نتائج تدخل في سجل الواقع، ولكن بفضل الثورات السياسية التي بدأت في انكلترا وفرنسا.

(٤٤) ورد ذكر سالمونيوس في النشيد السادس من ملحمة فرجيل، عن وقائع إينيه، على أنه ملك إليدا في شمال شبه جزيرة اليونان قريباً من البحر الأيوني. يتردد في هذه القصة صدى الطقوس السحرية المبنية على تقنية المحاكاة، كفرع

الطبول استثارة للوعد.

(٤٥) كانت هذه الرموز تزين خواتم الملوك وأختامهم وأزياءهم وسلاحهم ومتاعهم، وكان كل منها بمثابة نواة تراكمت حولها الحكايات والأساطير على مر العصور. فالزنابق مثلاً أصلها أن الملك كلوفيس قبل أن يهتدي إلى المسيحية كانت رموزه الأهلّة (وهنا تنطوي القصة على خلط بين الوثنية والإسلام). ولكن ناسكاً أعطى زوجته المسيحية كلوتيلد درعاً يحمل الزنابق الثلاث مؤكداً لها أن زوجها منتصر به، فما انتصر. كذلك الشعلة الذهبية (وهي راية في صورة الشعلة أكثر استخدامها استخدام زخرفي في مواكب الملوك) قصتها إن إمبراطور القسطنطينية رأى في المنام فارساً يقف بجانب مضجعه وبيده رمح خرج منه اللهب، وعندئذٍ بدا له ملاك يُنبه أن هذا الفارس لا أحد غيره هو الذي سوف يخلص أراضيه من قبضة العرب. وكان هذا الفارس هو شارلمان ملك الفرنجة. ولكن أحب هذه القصص إلى النفوس، وأثبتها في الاعتقاد لاتصالها بالمشاعر الدينية، كانت تلك المتعلقة بالقارورة أو القنينة المقدسة، وهي زجاجة صغيرة كانت تحوي الزيت الذي كانت تقتضي الطقوس بدهن الملك به كما سبقت الإشارة إليه. قيل إن القس المكلف بإحضار الزيوت الطاهرة قد عاقته حشود الجماهير عن الوصول في الميعاد يوم تعميد الملك كلوفيس، فهبطت يمامة من السماء تحمل إلى القديس ريمي (الأسقف المعمد) أنبولة صغيرة حوت الزيت المطلوب. هذا الدهان الذي ليس من هذه الأرض ظل محفوظاً في قارورته الأصلية بكاتدرائية رانس، وهكذا كان تتويج ملوك فرنسا يتم دائماً في هذه المدينة.

(٤٦) أغلب الظن أن لابواسيه لا يشير هنا إلى رموز الملك، بل إلى أمارات العزق، مثل علامة الرمح التي قيل إنها تميز العائلات النبيلة في طيبة اليونانية. نسجت أمثال هذه الروايات عن الملوك المسيحيين في القرون الوسطى، فقيل إنهم يتميزون بعلامة في هيئة الصليب على الكتف الأيمن دليلاً على اختيار الله لهم.

(٤٧) ينتمي هؤلاء الشعراء الثلاثة إلى جيل قريب العهد باكتشاف ذخائر الأدب

اليوناني، فكانت أول رغبات المثقفين في وقت بدأت تتأجج فيه المشاعر الوطنية مع تحقق وحدة المملكة، على يد أسرة فالوا هي أن يسبغوا على اللغة الفرنسية، وشعرها، الجمال الذي أحبوه في اليونانية. أعلن «بلاي» مذهبهم في كتابه «دفاع وبيان عن اللغة الفرنسية» الذي نشر عام ١٥٤٩م. وتألفت منهم جماعة ألبلياد كما سماها رونسار، الذي نشر هو أيضاً موجزاً في فن الشعر. ولا غرو أن يعرب لابواسيه عن إعجابه بهم، فقد أثروا اللغة الفرنسية بوسائل لا تحصى: خلق الجديد، استرجاع القديم، الاشتقاق من اللاتينية واليونانية والإيطالية، حرية الصرف والنحت، ابتكار صيغ جديدة لا وجود لها في اللغة الفرنسية وإن وجدت في اللغات الأخرى، إلخ.

(٤٨) دروع قيل إنها سقطت من السماء على أرض روما في عهد الملك نوما، وإن الغلبة سوف تظل دائماً لهذه المدينة طالما احتفظ الرومان بها.

(٤٩) أريكتون بطل أسطوري قيل إنه انحدر من هيفاستوس ملك الحدادين (فولكان عند الرومان)، وإن الآلهة أثينا عنيت به عند ولادته فوضعته في سلة عهدت بها إلى ثلاث أخوات، شريطة ألا يفتحنها، ولكنهن فعلن فأصابهن الجنون إما لغضب الآلهة، وإما لأن الطفل كان إنساناً نصفاً ونصفاً ثعباناً، وألقين بأنفسهن من قمة جبل الأكروبول. صار الطفل ملك أثينا فأدخل عبادة الآلهة. وإليه ينسب أيضاً أنه اخترع العربات ليخفي نصفه الثعباني.

(٥٠) يسدي ابن الربيع ـ لا فضّ فوه ـ بهاتين النصيحتين إلى المالك في سياسة جمهور الرعية: يجتهد في استمالة قلوبهم، وجعل طاعتهم رغبة لا رهبة. و«ليجعل محبتهم له اعتقاداً دينياً لا طمعاً في أغراض الدنيا». «سلوك المالكين في تدبير الممالك»، تحقيق ناجي التكريتي، بغداد، ١٨).

(٥١) المراد يوليوس قيصر.

(٥٢) المراد بالبخل هو بوجه خاص الاكتناز بالمعنى الذي سجله ماركس، إذ قال في وصف سيكولوجية المكتنز: «من أجل متعة خيالية لا حدود لها يترك كل متعة في الواقع».

(٥٣) القراصنة المشار إليهم كانوا يفدون بالأصح لا من صقلية، بل من سيسيليا

على ساحل آسيا الصغرى الجنوبي.

(٥٤) سينيكا هو الفيلسوف الرواقي المعروف، بورّوس كان معلماً لنيرون وتراسياس كان عضواً بمجلس الشيوخ. ثلاثتهم اشتغلوا مستشارين لنيرون، وثلاثتهم اتهمهم نيرون بخداعه والكيد له، فحكم على بورّوس بالسجن، أما الآخران فانتحرا.

(٥٥) بوبيا محظية نيرون، تزوجها ثم قتلها، ويقال بركلة قدمٍ عام ٦٥م.

(٥٦) تزوجت أجريبنا أم نيرون ثلاث مرات، وكان آخر أزواجها عمها الإمبراطور كلوديوس. جعلته يتبنى ولدها نيرون ثم سمّمته حتى يعتلي نيرون العرش. ولكنه ضاق بها فأمر بقتلها.

(٥٧) كانت مسالينا (١٥ ـ ٤٨) الزوجة الرابعة للإمبراطور كلوديوس وأم بريتانيكوس وأكتافيا. ضربت بجورها الأمثال.

(٥٨) الأباطرة دوميسيان وكرمودوس وأنطونان (الذي عرف باسم كاراكالا) حكموا على الترتيب في السنوات الآتية ٨٠ إلى ٩٦، ٨٠ إلى ١٩٢، ٢١١ إلى ٢١٧.

(٥٩) كائن في صورة إنسان له قرون الماعز وأقدامها. يطلق مجازاً على الفاجر.

(٦٠) المراد بترارك.

(٦١) آكلو الشعوب، وصف ورد في الإلياذة عدة مرات خلعه هوميروس على بعض الملوك.

تعقيب الأستاذ جودت سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى والآمرين بالقسط من الناس، وبعد:

يقول الذي كتب تعريف (لابواسييه): «إن هذا النص يحظى اليوم بانتباه منقطع النظير من جانب المشتغلين بالفلسفة السياسية، والاجتماع».

كتب هذا في منتصف القرن ١٦ الميلادي، والمؤلف مات وعمره (٣٢) سنة، وكان صديق مونتنييه الذي وصفه بحق ول ديورانت قائلاً: إنه كان بارعاً في أنه كان يشعل النار ويقذف بها في الهواء، ولكنه كان من البراعة أنه يطفئها قبل أن تصل مشتعلة إلى الأرض، وإنه كان من النبل أنه لم يكن ليهدم بيت جاره قبل أن يُعِدّ له المسكن اللائق به.

ولما نشر مونتنييه ـ صديق لابواسييه ـ أعمال صديقه الشعرية لم ينشر مقالته الفلسفية المتعلقة بالسياسة مستقلة، ولم تنشر إلا بعد نحو ٢٧٠ عاماً من وفاة الكاتب، وفسر ذلك أن هذه المقالة «مقالة العبودية المختارة» فيها حياكة أدق وألطف من أن تخرج إلى الجو الخشن الذي اتسم به ذاك العصر الفاسد.

ويمكن أن نقول إن هذه المقالة في العبودية المختارة متصلة برؤية آيات الأنفس، وآية رؤية الآفاق والأنفس: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ [فصلت: ٥٣] اعتبرها من الآيات ـ المفتاح للدخول إلى عالم القرآن، لأن هذه الرؤية هي التي أدت إلى دخول الإنسان عصر التسخير بمعنى متقدم كثيراً، فبعد أن كان الإنسان يعتمد على عضلاته انتقل إلى الحصان ثم إلى الطاقة بمختلف أشكالها.

والآن بدأ الإنسان يدخل إلى كشف آيات النفس ليسخرها كما سخر آيات الآفاق. وهذه المقالة متعلقة بكشف آيات الأنفس، وأن قيمة الإنسان ليست في عضلاته، وإنما في جهازه العصبي القابل لكشف السنن وتسخيرها، والحداثة الحقيقية إنما بدأت حين بدأ الإنسان يكشف ذاته والقوانين والسنن التي تحكم وجوده بالذات.

والذين كشفوا شيئاً من هذه السنن واجهوا صراعاً وخوفاً وطمعاً، خوفاً من جانب الذين يستغلون الجهل، وطمعاً من قبل الذين يريدون رفع الآصار والأغلال عن الناس، ولا يزال الصراع على أشده في العالم كله، وإن كان حسب ما يبدو لنا أن التقدم متسارع، ومثل هذه المقالة تأخر نشرها في موطنها أكثر من قرنين ونصف ولم تصل إلينا نحن أيضاً إلا بعد مائة وخمسين سنة من نشرها.

إن جذور الديموقراطية تكونت في مثل هذه المقالات ومقالات مونتنييه وإيرزموس وأمثالهم الذين ساهموا في توعية الإنسان ورفع مستواه في فهم الوقائع الاجتماعية حين يقول: «كثرة الأمراء سوء» نقلاً عن أوليس قبل الميلاد بقرون، ويتمنى أن يقف عند هذا القول ولا يضيف إليه «كفى سيد واحد ملك واحد» كأنه يقول يكفي سوء واحد، ولكن العيب ليس في الكثرة والقلة، إنما العيب أن لا يكون هناك تنافس في الخير وأن يبقى التنافس محصوراً في الشر.

إن البشر يتنافسون في الشر، لكن التاريخ في جانب آخر، فالزبد يذهب جفاء، ويمكث في الأرض ما ينفع الناس. ينبغي أن نفهم اتجاه رياح التاريخ، فإذا عرفنا ذلك أمكننا أن نقلل زمن المعاناة، والذي يعطي أهمية لمثل هذا التحليل الفلسفي للمشكلة السياسية والاجتماعية، هو تلمسه وانتباهه وملاحظته للواقع، وهذا ما ساعد على الانتباه إلى الفلسفة القرآنية التي تحكم المجتمعات، وهي فلسفة وحكمة وسنة وقانون ﴿من عند أنفسكم﴾ [آل عمران: ١٦٥].

هذا القانون مرسخ في القرآن والسنة والتاريخ من عهد آدم إلى يوم القيامة، وربما هذا الذي كرس له مالك بن نبي تحليله لمشكلة الحضارة والثقافة، وأطلق عليه مصطلح «القابلية للاستعمار».

إن القرآن يشير إلى الظلم الذي يُلحقُه الإنسان بنفسه أكثر من الظلم الذي ينزل عليه من الآخرين، هذا اتجاه في فهم طبيعة الإنسان ﴿ما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ [النحل: ٣٣]، هذا التفسير للوضع الإنساني هو الأهم، وحين يقصّ علينا الله قصة آدم والشيطان ويواجه كلاً من آدم وزوجه حواء، ويواجه الشيطان. فآدم

الذي عصى ربه هو وزوجه كان جوابهما: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولم يقولا: إن الشيطان أغرانا أو خدعنا. مع أن القرآن يصرح أن الشيطان مارس الإغراء حين قال لهما: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملَكين﴾ [الأعراف: ٢٠]، وقال لآدم أيضاً: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ [طه: ١٢٠]، وهذا دليل على قدرة الإنسان على الاعتراف بالمسؤولية وتحمل التبعة، وعدم البحث عن كبش فداء، وعدم تحميل حدوث الخطأ والمعصية للآخرين، وكذلك ينبغي أن نتأمل كيف يقص علينا موقف الشيطان في الامتناع عن السجود، فقد ذكر أمرين، فلسفي وتحليلي، تفسيراً لموقفه الرافض فقد قال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [الأعراف: ١٢]، هذا تفسير مادي عرقي، إبليس هنا افتخر بأصله المادي، وهذا هو التفسير المادي، وأما التفسير المعنوي المبني على رفع المسؤولية عنه، فقال: ﴿فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ [الأعراف: ١٦]، هذا التفسير الثاني هو التفسير الجبري الذي ينزه الذات وينسب سبب رفضه إلى الله الخالق لكل شيء. ونحن حين ننظر إلى المغزى لهذه الرواية القرآنية، لذلك الحدَث، يتبين لنا السبب الذي من أجله وقعت اللعنة والطرد على إبليس، وكذلك السبب الذي من أجله استُخلف آدم وزوجه وذريتهما في الأرض، لأنهما تحملا المسؤولية وقبلا التحدي، وإن كنا نحن البشر عامة لم نبلغ الرشد، ولا نزال على تفسير إبليس لأحداث العالم، لهذا لا يوجد في العالم من يشعر بالمسؤولية عن الفساد الذي يقع في الأرض وإنما كل ينسبه إلى الآخرين.

نحن ننسب الفساد إلى الاستعمار والإمبريالية، وهم ينسبون إلينا المشكلات، لأننا بنظرهم الرجعيون الإرهابيون، وكأن الميدان خالي

من إمكانية وجود نموذج ثالث.

إن لهذه المقالة أهميتها الفلسفية، لأن كاتبها تنبه إلى هذا الجانب الإنساني المهم: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦]، وفي هذا المعنى يأتي الحوار الذي يذكره القرآن في يوم القيامة: ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتَّبَعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧]، إن أهمية الموضوع هي أن الإنسان لا يُظلم إلا برضاه وبجهله.

لقد خلق الله الإنسان ومصيره بيده، وهذا اتجاه وقِبْلَةٌ ينبغي أن لا يضيعها الانسان، وأهمية هذه المقالة الفلسفية أنها تنبهت إلى هذا الجانب الإنساني الهام، وإلى مشكلة إنسانية كبيرة: ﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠]، و﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١]، أمر التغيير يرجع إلى البشر أولاً، ولكن القرآن يؤصله كثيراً ويجعل دعوة الأنبياء جميعاً متجهة هذا الاتجاه، وقد ضيّع البشر هذا الاتجاه، وتخلوا عن تحمل المسؤولية، ولم يكونوا مثل آدم وزوجه، ولا يزالون يتبعون خطوات الشيطان، مع أن الله يقول: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾ [النحل: ١٠٠]، وفي الواقع فإن الفلسفات السياسية والاجتماعية لم تنتبه إلى هذا الموضوع جيداً، ولم تظهره ببيان مبين.

وهذه المقالة حين تشير إلى هذا الاتجاه فإنها تبشر بأن الناس بدأوا يبصرون الطريق، رغم أن العالم كله إلى يومنا هذا يفسر الموضوع تفسيراً خاطئاً، وإلا كيف يتقبل العالم إلى الآن حق الفيتو؟!!

يقول صاحب المقال: «إنه لأمر صعب على التصديق أن نرى الشعب (الناس) متى تمّ خضوعه يسقط فجأة في هاوية عميقة من النسيان لحريته إلى حد يسلبه القدرة على الاستيقاظ. لا مناص من التسليم بأن سلطان الفطرة (الطبيعة) يقل عن سلطان العادة عملياً، لنقل إذن إن ما درج عليه الإنسان وتعوّده يجري عنده بمثابة الشيء الطبيعي... إلخ». فنحن لو تأملنا مسألة الفيتو في العالم الآن، نجد أن ليس لها من مبرر إلا العادة المضرة المقيتة التي يخضع لها الناس باختيارهم، حيث لا نجد في العالم صوتاً معلَناً ووراءه مؤمنون به ينكر حق الفيتو، وأنا أزعم أن السبب في ذلك تعوّد الناس وعدم وجود من ينكر ذلك.

القرآن يحدثنا كثيراً عن الأقوام التي تنكر ما لم تسمع به، ونحن لم نسمع من ينكر حق الفيتو، مع وجود دعاة للديموقراطية ولحقوق الإنسان، ومع أن الديموقراطية ضد حق الفيتو، وضد حقوق الإنسان، وأكبر مستخدم لحق الفيتو هو أميركا وهي أعظم وأكثر انتهاكاً لحقوق الإنسان من أي ديكتاتور أو طاغية من الطغاة الصغار في العالم، لأن سيدهم الكبير على قدر كبره يكون إفساده للعالم كبيراً. لا أحد في العالم يواجه هذا الطاغوت الأكبر، وهو بكل تبجح يطارد الناس لأنهم ينتهكون حقوق الإنسان، بينما لا يقدر أحد أن يواجه هذا المتكبر الأكبر، فإذا كان لابواسييه يندهش ويعقد الاندهاش لسانه في بيان خضوع الناس للوهم، فإن الاندهاش يعقد لساني من إجماع الناس الخرافي على التسليم بحق الطاغية في أن لا يخضع لقانون، وأن يكون فوق البشر يحيي من يشاء ويميت من يشاء.

وأنا ربما أريد أن أتعمق في بحث سبب أعمق لخضوع الناس وخنوعهم وتذللهم وعدم إنكارهم للطغيان، لماذا لا نرى الطغيان

طغياناً؟ لماذا لا نفهم على الأقل أن حق الفيتو انتهاك لحقوق الإنسان؟ لأننا لا نزال نؤمن بالقوة وليس بالمنطق، لأننا نريد مواجهة ألوهية القوة بالقوة، ولا نريد مواجهة القوة بالمنطق بل بالبداهة، البداهة عندنا أن القوة وصاحب القوة هو الحق، هذا الشيء رسخ في أعماقنا واعتدنا عليه حتى صار بدهياً، إذن علينا أن نضع العتلة تحت هذه البدهية لنرفعها ولنلقيها بعيداً فنتحرر من الوهم.

إن الإيمان بالقوة يوقعنا في خطيئتين: الأولى أننا نحاول مواجهة القوة بالقوة نفسها، ونكون بذلك قد جعلنا منطلقنا وقبلتنا وملتنا واحدة، وننتظر حتى تصير لنا قوة حتى نكون مثله، وننسى أن الانتصار بالقوة لا يغير الواقع، لأن الذي يحلّ ويجيء بالقوة مثل الذي زال وليس مختلفاً عنه إطلاقاً.

هذه هي الخطيئة الأولى، أما الخطيئة الثانية فهي أن إيماننا بالقوة يحول بيننا وبين أن ندرك قوة المنطق وقوة الحق وقوة العدل، ولهذا نحن لا نفهم أن المنطق والحق والعدل فيها قوة أعظم. وأعتقد أنه يكفي أن نصدق هذا ونكون مؤمنين به حتى نتحرر، ولكننا إلى الآن لم نؤمن بهذا ولم نكشفه، وهذه المقالة تريد أن تنبه إلى شيء من هذا، وأنا كمسلم وكمؤمن بالقرآن وبالأنبياء أشعر جيداً بأن الوهم هو الذي يحكمنا ويذلنا، إنه هو الذي يتحكم فينا، ولم يوجد بعد بيننا من يفك السحر حتى نشفى من مرض الوهم.

إن لابواسييه يريد أن ينبّه الناس إلى هذا السحر، ونحن علينا أن نوضحه أكثر ونجعله جلياً.

إن الفضيحة العالمية الآن أنه لا يوجد من ينكر أصل ومنبت وطبيعة

الفيتو الذي يُعقِّد كل مشاكل العالم، حتى أنه لا يوجد من ينكره، ولكن يوجد من يريد أن يكون له هذا الحق الذي هو فساد للحق ونبذ للعدل ولكلمة السواء.

إن ما دعا إليه الأنبياء جميعاً هو: ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً﴾ [آل عمران: ٦٤]، وكذلك قولهم: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ [هود: ٨٨]، وكذلك قولهم ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ [البقرة: ٤٤].

لا يوجد في العالم من يقبل كلمة السواء، لأن كل مجموعة يرون أنفسهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، والآخرون من البشر ليسوا على شيء، بل خلقوا لخدمتهم، فهم من أملاكهم.

إن المنتصر بالقوة هو الحق في العالم، ولو أن هتلر كان المنتصر لم يكن ليصنع قانوناً أظلم من القانون الذي وضعه المنتصرون في الحرب العالمية الثانية. وأصحاب الديموقراطيات ساكتون عن حق الفيتو لأن ذلك لصالحهم.

إن مثقفيهم صامتون أيضاً، والعدل لا بواكيَ عليه ولا دعاة له، وإنما يوجد من يتلمظون ليصيروا مكان الطاغوت الأكبر، هذا السر الذي في قلوب الناس هو الجرثوم الذي يحول بينهم وبين إعلان إيمانهم بالحق والعدل.

يا عالم! أيها الناس! أليس منكم رجل رشيد ينصر الحق والعدل ولو بالمنطق؟ إن لابواسييه أراد أن يقول: فللبلد إذا أراد أن لا يتحمل

مشقة السعي وراء ما فيه منفعته، كل ما يقتضيه الأمر هو الإمساك عما يجلب ضرره.

إن الشعوب هي التي تترك القيود تكبلها، أو قل إنها تكبل نفسها بنفسها ما دام خلاصها مرهوناً بالكف عن خدمته.

إن الأنبياء جميعاً جاءوا بالخروج من ملة الإيمان بالقوة، إلى ملة الأنبياء الذين يرفضون الإكراه.

ورفض الإكراه يجب أن يكون من طرفيه السلبي والإيجابي، لأن الذي وقع عليه الإكراه ورفضه من طرف واحد أو في حالة وقوعه عليه فقط، سوف يستمتع به حين يكون هو الذي يفرضه، وهذا لا يخطر في بالنا. كذلك الناس يكونون دعاة ديموقراطية ما داموا خارج القدرة على الإكراه، ولكن بمجرد أن يصيروا قادرين على الإكراه ينبذون الديموقراطية وراء ظهورهم ويصيرون في الميدان قائلين: أنا ربكم الأعلى، وإلا كيف يكون دعاة الديموقراطية وحقوق الإنسان هم الذين يعيقون الديموقراطية في العالم ويخافون أن يصير الناس ديموقراطيين؟

علينا أن ننتبه إلى ذلك حتى لا نصير مثلهم إذا صرنا في مكانهم، والقرآن يظهر هذا الجانب المغفل والمسكوت عنه والمستبعد من الانتباه إليه، في نظر مستقبلي، ففي حوار موسى مع قومه يقول تعالى: ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾ [الأعراف: ١٢٩]، كأنهم يقولون لم نستفد شيئاً من دعوتك، وكان جواب موسى لهم: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ [الأعراف: ١٢٩].

إنه ينبههم إلى المرض الخطير الذي يقطع الظهور ويلوي الأعناق ويوقظ جينات ثقافة الطغيان التي لم تُستأصل من النفوس.

هذا ما يقصه القرآن عن السابقين وهكذا يقول للذين نزل عليهم القرآن أيضاً: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها، إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم﴾ [محمد: ٢٢ ـ ٢٥].

إن عدم الانتباه الجيد إلى هذه المشكلة أي المشكلة التي تنتظر المجتمعات حين تشعر بالقوة سوف يوقظ جرثومة الطغيان النائمة: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى﴾ [العلق: ٦ ـ ٧] هذه مشكلة إنسانية كبيرة بدأت الدراسات تنتبه إليها، كموضوع الشرعية.

متى يصير الوضع شرعياً؟ وكيف تُفْقَد الشرعية؟ هذه المشكلة واجهت كل المجتمعات بما فيها المجتمع الإسلامي، حيث إن المسلمين فقدوا الشرعية في وقت مبكر، ولم يهتدوا إليها إلى الآن.

وكذلك من الدراسات في هذا الموضوع ما أشار إليه كاتب التعريف بـ لابواسييه: «لأن أحداث العصر الذي نعيشه، منذ الحرب العالمية الثانية لا تترك بُدّاً من التفرقة بين السيادة والاستغلال، ومن مواجهة هذا السؤال: هل الاستغلال أساس السيادة؟» إن هذه الأسئلة فتحت مجالات لدراسة الشرعية أو السيادة، أو السلطة بحسب تعبير بعضهم، وتتجلى أكثر في بحوث أكثر حداثة بعناوين مثل السلطة والمعرفة. إنها مواضيع حيوية.

السيادة حسب رأي بعضهم، وكما يحاول أن يفسر أركون، هي التي يتقبلها الناس طواعية بالإقناع، والسلطة هي التي تفرض بالقوة والإكراه، القرآن لا يعترف بالإيمان الذي يأتي بالإكراه، كلا ولا بالكفر الذي يأتي بالإكراه، فمن هنا كان من مبادىء الإسلام نفي الإكراه، نفي جنس الإكراه كلياً: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ [البقرة: ٢٥٦]. بـ ﴿لا إكراه في الدين﴾ تبين الرشد من الغي، وإن الذي يأتي بالإكراه هو الغي، والذي يأتي بـ (لا إكراه) هو الرشد وهو الذي يأتي بالإقناع، والطاغوت هو الذي يأتي بالإكراه، لهذا أمر الله بالكفر بالطاغوت وعدم الإيمان به، وأمر الناس أن يؤمنوا بالله الذي ليس في دينه إكراه، والقرآن لا يخاف من الانهزام إن تخلى عن الإكراه، فهو يثق بالمنطق وبالإنسان وبالله الذي ليس في دينه جنس الإكراه.

فإذا كان (لا إكراه في الدين) فمن باب أولى رفع الإكراه من بقية الأمور وخاصة السياسة، لأن السياسة التي تأتي بالإكراه ليست بسياسة وليست برشد، وإنما هي غي وبغي، لهذا سمى المسلمون الخلفاء الذين جاءوا بدون إكراه ولم يجعلوها وراثة في أبنائهم سمّوهم راشدين، لأن الرشد من الغي يتبين بالإكراه أو عدمه، ولم يسمّوا بعدهم أحداً راشداً ممن جاءوا بالإكراه أو الوراثة، وهذا أصل عظيم للشرعية السياسية في الإسلام، وأصل للسيادة ونظام المجتمع، علينا أن نعضّ عليه بالنواجذ، وإذا لم يهتد السابقون إلى إمكانية إعادة الرشد بالرشد، فإن آيات الآفاق والأنفس التي بدأت تظهر، وتطور التاريخ ومعاناة البشر، كل ذلك جعل من هذه المواضيع مواد دراسة علمية سننية تاريخية في نفي جنس الإكراه، وعلى قدر الاعتماد على الإكراه يكون الرشد بعيداً والشرعية ناقصة أو معدومة مطلقاً.

يمكن القول بناء على إشارة القرآن إلى التحذير من الوقوع في تبني الإكراه في المستقبل، بأن التاريخ السابق مظلم جداً في هذا الموضوع، في طغيان الإنسان والمجتمعات حين يصير لهم القوة والغلبة والسلطان، وينسون الاعتبار بالتاريخ من أن الذي يأتي بالإكراه لا يكون شرعياً لأن الذي ذهب مثل الذي جاء.

ويمكن أن يقول هذا ما كان ينقص الحداثة الغربية، حيث وقعوا في ما وقع فيه السذج في الفهم، حين أجازوا إزالة الإكراه بالإكراه، وظنوا أنهم بذلك يصلون إلى الشرعية في إزالة الإكراه، إنهم لم يزيلوا الإكراه إنما رسخوه، فإن الثورة الفرنسية وإن كانت تحمل نسمات إنسانية في إمكانية رؤية الشرعية، إلا أنهم تلطخوا بالدماء، والثقافة الغربية أجازت الإكراه في إزالة المستبدين والمستعمرين، ولكن التعويل على الإكراه خذلهم في منتصف الطريق لأنهم لم يتخلصوا من الإكراه.

هذا الذنب هو الذي طاردهم ولم يمكّنهم من التخلص من حق الفيتو، إن أصلهم الإكراهي خذلهم، وهذا ما يجعل أمام الناس مهمة عظيمة هي ضرورة الاهتداء إلى حضارة جديدة، إلى علاقات إنسانية جديدة مبنية على التعاون في إيصال الخير إلى الآخرين، لا إلى منعهم من الوصول إلى الخير، فالإكراه الذي لم يتخلص منه الغربيون هو الذي جعلهم الآن مستغلين أمام العالم، إنهم ليسوا أهلاً للحكم بين الناس وبالعدل وكلمة السواء، وأرجو أن يتفهم المسلمون هذا فلا يكرروا الخطأ الذي وقعوا فيه قديماً حين فقدوا الرشد وأجازوا صنع الحكم بالإكراه والقوة، فجاءت الحضارة الغربية وبدلاً من أن تخفف من المشكلة زادت الطين بلة حين أجازت الإكراه في إزالة الخطأ.

إن فوكوياما حين خرج على الناس بمقولته عن نهاية التاريخ كان مصيباً، لأن نهاية هذه الحضارة فعلاً قد اقتربت إذ إن أمام التاريخ مهمات كبيرة لقبول كلمة السواء، وهذا لن يأتي من الكبار المستكبرين في الأرض وإنما من المستضعفين الذين هم أقدر على الاستفادة من التاريخ.

إن الكبار السكارى لا يمكنهم أن يغيروا طريقهم، لكن هذه المقالة التي كتبها لابواسييه تحمل ملامح اليقظة، وعلى المستضعفين أن يتبيّنوا جيداً، فإذا كان فوكوياما أعلن نهاية التاريخ فإنه يعلن نهايتهم هم، وكذلك حين أعلن صموئيل هنتنغتون عن صراع الحضارات فإنه يعلن ذلك من منطلق المفاهيم الغربية. لقد بنى الغربيون حقوقهم الإنسانية والديموقراطية على أساس فاسد في تفريق الناس وجعلهم شيعاً كما فعل فرعون يستضعف طائفة منهم ﴿يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ [القصص: ٤].

إن الذين لا يفهمون إلا الصراع لا يمكن أن يفهموا معنى التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان، ولا تزال قلوبهم تحمل الحنين إلى الإكراه، ولا زالوا يحملون الغل وهذا ما منعهم من الوصول إلى سلامة القلب من الإكراه، يظهر هذا عند لابواسييه حين يقول: «إن من يظن أن الجنود وأبراج المراقبة تحمي الطغاة يخطىء بشكل كبير، فالحرس تَصُدُّ من لا حول لهم على اقتحام القصر، لا المسلحين القادرين على العزم، ثم إن من قتلهم حراسهم من الطغاة أكثر ممن حماهم حراسهم».

ينبغي أن لا تفلت من يدنا الشرعية شرعية اللاإكراه وشرعية الرشد.

لا بد أن يسلّم الجميع بأن اللجوء إلى العنف مَنْفِيٌ نفياً قاطعاً،

وبدلاً من ذلك عليهم أن يلجأوا إلى الإقناع ليعيدوا الشرعية للجهاز العصبي الإنساني، وهو أبدع ما خلق الله، تبارك الله أحسن الخالقين، وأن يثقوا بعقل الإنسان ليس بعضلاته لأن عضلات كثير من الحيوانات أقوى من عضلاته، فلهذا سميت بحق شريعة من يعتمد على القوة شريعة الغاب، لأنها لا تقبل مخاطبة ما شرّف به الإنسان وهو وعيه، بل تخاطب انفعالاته وعضلاته.

وينبغي أن نفهم بعمق أن الديموقراطية ثمرة، شجرتها وعي الأمة، وبدون وعي الأمة لا ينفع اقتراع ولا برلمان، وسَلَفُنا ولابواسييه لم يشاهدوا ما حدث في العالم، لم يشاهدوا كيف تتحد أوروبا الآن بالتفاهم ليس على أساس الإكراه والعنف والقوة، إن هتلر ونابليون لم يوحدا أوروبا وإن فتحا أوروبا إلى روسيا وإلى جنوب البحر الأبيض المتوسط، لقد وصل كلاهما إلى روسيا وإلى جنوب البحر، ورومل حارب في العلمين على حدود مصر، وتجاوز نابليون مصر إلى محاصرة مدن في فلسطين، ولكن هتلر مات منتحراً ونابليون مات منفياً، والآن تتحد أوروبا ليس على أساس التسلط وإنما الإقناع ليربح الجميع ولا يخسر أحد.

إنهم يتحدون لا على أساس أن ألمانيا فوق الجميع أو فرنسا أو بريطانيا العظمى التي لم تكن تغيب عن ممتلكاتها الشمس، يتحدون الآن على أن الجميع سواء، وهذا يمكن أن نفعله نحن العرب والمسلمون. علينا أن نكشف جذور الإيمان النبوي الذي لم نعلم نبأه إلى الآن، ولكن سنفهم رغماً عنا وسيظهر صدق قوله تعالى ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ [ص: ٨٨]، ولهذا يقول القرآن لنا: انظروا إلى التاريخ الماضي وإن لم تكفِ عِبرةُ فانتظروا المستقبل فإن المستقبل سيأتي بأدلة أقوى تضطر الناس أن يخرجوا من شريعة

الغاب إلى شريعة العدل وكلمة السواء، والبشرية تتقدم إلى هذا رغماً عنها، وإذا كان التقدم بطيئاً إلا أنه تقدم راسخ وثابت، والله تعالى يقول: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ [الصف: ٨]... ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ [التوبة: ٣٢] ونور الله هو (لا إكراه في الدين) وهو الرشد وهو الإيمان بالله والكفر بالإكراه، لهذا يقول الله بعد آية لا إكراه في الدين: ﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات...﴾ [البقرة: ٢٥٧]. هذا هو نور الله وهو اللاإكراه وهو الرشد وهو الإيمان بالله والكفر بالطاغوت الذي هو الإكراه، والإنسان ما دام في قلبه حنين إلى القوة ليصنع الرشد بالقوة فهو مثل الذي عنده حنين لأن يصنع التوحيد بالشرك، إن تجارب التاريخ تنفي هذا، وإذا لم تقنعنا تجارب البشر جميعاً فإن تجربة المسلمين من ألف وأربعمئة عام تدلنا على أن الذي يريد أن يعيد الرشد بالإكراه وبالعنف لا يمكن أن ينجح، ألا يكفي المسلمين أنهم أرادوا أن يعيدوا الحق إلى نصابه بالقتل فقتلنا عثمان وقتلنا علي، وقتلنا بني أمية حتى نبشنا قبورهم، وقتل الذي اسمه المأمون أخاه الذي اسمه الأمين، وإلى يومنا هذا يقتل الطغاة رفاقهم، فمن هنا كان لابواسييه يلامس الواقع في تحليله للعبودية المختارة فهو يلامس معنى الشرعية في أعماقه، معنى القدرة الإنسانية على رفض العبودية وأن الإنسان قادر على ذلك إلا إذا تنازل بإرادته وليس رغماً عنه، وهذا ما يحتاج إلى تسليط الأضواء عليه، وإلى بدء القول في بحثه وإعادة البحث به مرة من غير ملل، إنه من أشرف البحوث وأكرمها وأعظم كشف لطبيعة الإنسان وكيفية استثمار طاقة الإنسان أعظم استثمار، وأن ذلك لا يكون بقهره وإكراهه وإنما بإقناعه، وينبغي أن نعيد القول ونكرره بأن الإيمان الذي يأتي بالإكراه ليس بإيمان، كلا ولا

الكفر الذي يأتي بالإكراه يكون كفراً، وكذلك السياسة التي تأتي بالإكراه ليست سياسة، وبهذا يمكن أن نفهم أن الشرعية والرشد ليس فيهما إكراه وإنما إقناع، ولهذا راهن الأنبياء جميعاً على التشبث والتمسك والعض على هذا المفهوم بالنواجذ، راهن الأنبياء على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، الكفر بالطاغوت الذي يمارس الإكراه والإيمان بالله الذي لا إكراه في دينه، وبهذا التصور يكون معنى الشرعية التي هي الخروج من الظلمات إلى النور، ومن ظلمات الاشتباه إلى نور الوضوح واليقين، وسيتم هذا في المستقبل أكثر، وسيتم وعد الله بإتمام نوره، لأنه تعالى يأبى إلا أن يتم نوره، فهذا وعد الله في قرآنه في خاتم الكتب السماوية. وبهذا نعلم أن التاريخ هو مرجع الكتب السماوية. وأوضح ما يكون ذلك في القرآن، فإن وقائع التاريخ وأحداث الأمم في نجاحها وهلاكها هي مرجع القرآن على صدق أحكامه: ﴿ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٢]، والقرآن مليء بما يفتح أبصار الناس إلى عواقب التاريخ، وينبغي أن نتذكر هنا أن التاريخ ليس ما يكتبه الناس من تمجيد الطغيان، ولكن التاريخ هو ما آلت إليه الأمور، ألم تر كيف فعل ربك بالاتحاد السوفياتي الذي كان يكره الناس في هذا العصر المتأخر جداً، ألم تر كيف تمزق اتحادهم الإكراهي، وخرّ صريعاً من دون تدخل عدو خارجي وإنما تهدم من الداخل فأتى الله بنيانهم من القواعد، وخر عليهم السقف من فوقهم وهم الذين عبدوا القوة إلى درجة القدرة على تدمير الأرض وكل الكائنات الحية عدة مرات.

وإذا لم تكفِ العبر الماضية على كثرتها فإن القرآن يحول التحدي

إلى المستقبل، لأن المستقبل سيُفْشل الذين يمارسون الإكراه ويحاولون أن يفرضوا الامتيازات بالقوة على الناس، لأن البشر قادرون ـ حين يعتبرون بالتاريخ ـ على رفض العبودية، ولابواسييه كما قلنا يلامس هذه المواضيع في مقالته المبكرة ولكن شريعة الطغيان لا تطيق الذين يفتحون أعين الناس على المعرفة التاريخية، يقول لابواسييه: «ما من طاغية يظن أبداً أن السلطان استتب له إلا بعد أن يصفي المأمورين بأمره من كل رجل ذي قيمة». هذا الذي أشرنا إليه حين قلنا إن الحل لا يكون بالإكراه والقتل والتصفية الجسدية، وإنما بالإقناع، بالرشد، برفع مستوى وعي الناس لأن الوعي هو رصيد الرشد ورصيد الديموقراطية ورصيد تعميم الرشد وتعميم اللاإكراه وتعميم الديموقراطية، والديموقراطية لن تدخل بلداً إلا إذا اعترف الفرقاء جميعاً بنبذ العنف في صنع السياسة وصنع الحكم.

ومن الأمور العميقة والهامة التي يلامسها لابواسييه انتباهه إلى جوهر الإنسان وأنه خلق ذا طبيعة مزدوجة فحين خلق الكون كله بطبيعة واحدة وباتجاه واحد تميز الإنسان بأنه يتمتع بالاختيار: «إن الشموس والأقمار والمجرات لا قدرة لها على الاختيار فهي ذات اتجاه واحد لا قدرة لها على الخروج ولكن الإنسان ذو اتجاهين يمكن أن يسلك أحد طريقين باختياره وليس ذا اتجاه واحد كالشمس والقمر»، ولهذا حين يتحدث الله عن الشمس والقمر والليل والنهار والأرض في سورة «الشمس» يذكرها معرفة ولكن حين يذكر النفس الإنسانية يذكرها نكرة ويقول: ﴿ونفسٍ وما سوّاها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها، كذبت ثمود بطغواها﴾ [الشمس: ٧ ـ ١١].

إن النفس الإنسانية هي التي تُعرف بنفسها، وإنها تخرج من بطون

أمهاتها نكرة لا تحمل مستقبلها وإنما تختار مستقبلها، إنها تخرج من بطون أمهاتها لا تعلم شيئاً: ﴿أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ [النحل: ٧٨]. فقط تخرج وهي ملهمة أن تكون تقية أو فاجرة، والإنسان هو الذي يختار أحد الطريقين: ﴿قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها،﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠] ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: ١٠]، بالطريقين الفجور والتقوى، التدسية والتزكية. يمكن أن يكون الإنسان في أحسن تقويم ويمكن أن ينتكس إلى أسفل سافلين، يمكن أن يكون سيد الأشياء، ومسخّر له الكون كله سماواته وأرضه، أو يتحول إلى التسخير فيصير مثل بقية الأشياء ويفقد الاختيار بفعلته، ولكن التاريخ يؤدبه ويعلّمه بأسلوبه الخاص، وحتماً سيتعلم ورغماً عنه سيتعلم، هذا ما لامسه لابواسييه حين قال وكرر القول إن الإنسان باختياره وإرادته يتنازل عن حريته وقدرته على الاختيار وليس بإكراهه كما يخيل للنظر القاصر ولأول وهلة، لهذا لما يقول لابواسييه فلو أن الظفر بحريته كان يكلفه شيئاً لوقفت عن حثه... ولكن لا أطمع منه بهذه الجرأة، ولكن إذا كان نوال الحرية لا يقتضي إلا أن نرغب فيها وكان يكفي فيه أن نريد، أكُنّا نرى على وجه الأرض شعباً يستفدح ثمناً لا يعدو تمنيها: هل هذا الكلام صحيح؟ هل مجرد الرغبة والتمني يحققان حرية الاختيار ويزيلان عن الإنسان سلطة الإكراه والطاغوت؟ إنني أقول سلفاً إنه لفتح جديد وفهم مبتكر لم يسبق إليه الانتباه، وأنا أقول إنها أعمق الفلسفات وأكبر الكشوفات وأهم التحليلات التي ينبغي أن يتنافس المتنافسون في إظهارها، وأنا أحث الشباب الذين يحبون التطلع إلى المجد والشرف أن يحدقوا جيداً في هذا الموضوع ويتتبعوا منابته، وإنني أشعر بالقصور في البيان والتوضيح لأن المواضيع التي هجرت في البحث والبيان يصعب على الإنسان التوجه إلى بحثها وحتى فهمها، وإذا فهمها فإنه يعجز

عن تفهيمها، ويعتبر الخوض فيها جنوناً وخرافة، فمن هنا كان الأنبياء يُتهمون بالجنون، لقد قال الله: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ [الذاريات: ٥٢]. إن لابواسييه يلامس هذا الجنون حين يقول: «إن استعمادتك لإنسانيتك لا تكلفك شيئاً ولا تقتضي منك إلا أن ترغب فيها وتتمناها وتحبها فتحصل عليها مجاناً». هكذا كان يقول عيسى عليه السلام: «أخذتم مجاناً وتعطونه مجاناً».

هذا الاتجاه اتجاه جديد مبتكر قديم وجديد في آن واحد، وصعب تصديقه ورؤيته بوضوح، إنه صحيح وصادق، هل حقاً لا تحتاج الحرية إلى الكفاح الدموي بالأموال والأرواح ويمكن تحصيلها بمجرد الرغبة فيها كأهل الجنة لهم فيها ما يشتهون ويدعون؟

ليس عليهم إلا أن يشتهوا ويتمنوا ويرغبوا فيعطون ويقدّم لهم، إن كشف هذا في هذه الدنيا لأمر يدعو إلى العجب!!. ولكن ليس بعيداً عن الإنسان الذي يقول الله تعالى إنه سخر ما في السماوات وما في الأرض، هل في الإمكان كشف هذا الموضوع، أن يكون الحل بدون خسارة لأي أحد بل يربح الجميع؟ هل هذا في الإمكان؟ هل في الإمكان توضيح إمكانه وإقناع الناس بأن ذلك ممكن وسهل؟ ليس علينا إلا أن نبحث جيداً، فكما تسخرت لنا الصواعق يمكن أن يتسخر الإنسان لخدمة الحق وخدمة الخير وخدمة النافع للناس جميعاً وليس لبعضهم، إنه عالم مختلف كلياً عن العالم الذي كوّنه الفلاسفة والشعراء والذين نسميهم حكماء.

حق أن يقول عيسى عليه السلام: «مملكتي ليست في هذا العالم». يعني أن المملكة التي أريد ليست موجودة في هذا العالم الذي كان

معاصراً له، كما أنه ليس في هذا العالم الذي نعيشه حتى الآن، إنه عالم قادم لا محالة. ليس بقتل العدو تُحَلُّ المشكلة وإنما بتحويل العدو إلى وليّ حميم، فمن هنا اعتبر الناس قول عيسى عليه السلام: «أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم وأحسنوا إلى الذين يسيئون إليكم» اعتبروا هذه الوصايا جنوناً مطبقاً غير معقول ولا منطقي ولا واقعي، وإنما أحلام وأضغاث أحلام وخيالات وأمنيات ويوتوبيا وما شئت من ألفاظ الاستبعاد والاستهجان. هل يمكن أن ننقذ هذا المنهج وهذا التصور؟ هل يمكن أن نخرجه من الجنون إلى المعقولية والإمكانية وأنه يمكن تطبيقه عملياً ويمكن أن نرى عواقبه؟

إن التطور ـ الزيادة في الخلق ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ [النحل: ٨] ـ وآيات الآفاق والأنفس تجعلنا نرى ما لم يره من قبلنا بل يصعب على من يعيش معنا.

إن ثقافتنا وما درجنا عليه من الأمثال والأشعار والمأثورات كلها تحمل في طياتها تمجيد القوة الجسدية. فمن مأثوراتنا: «إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب»، ومنها:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

وأمير شعراء هذا العصر يقول أيضاً:

وللحرية الحمراء باب
بكل يدٍ مضرّجة يُدقّ

وحتى الآيات القرآنية تُستخدم لتثبيت وترسيخ هذا الشيء، ولا ترى أن الله يمكن أن يخلق أحداثاً ويمكن أن يُظهر أساليب تتسخر فيها الأحداث للإنسان. إن الله يقول: ﴿أحسِبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون، ولقد فَتَنّا الذين من قبلهم فلَيَعْلَمَنّ الله الذين صدقوا وليَعْلَمَنّ الكاذبين﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣].

ولكن إلى جانب هذا يقول أيضاً: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر: ٤٢]، ويقول: ﴿إن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠]، ويقول في آية أخرى: ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ [آل عمران: ١١١]. على قدر التزامنا بالسنن يكون ما يصيبنا. ويمكن أن نُعيد ما قلناه سابقاً من أن الله والرسول وآدم والشيطان يتفقون على أن المشكلة عندنا.

يقول الله: ﴿من عند أنفسكم﴾ [آل عمران: ١٦٥] ويقول الرسول (ص): «من وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه»، ويقول آدم وزوجه: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ [الأعراف: ٢٣] ولم يقولا: خدعنا الشيطان. ويقول الشيطان أيضاً: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ [إبراهيم: ٢٢]، أي ليس له سلطان ولا يقدر علينا إن نحن رفضنا. لعل نقطة لابواسييه تلوح إلى أنه مهما كان سلطان الثقافة التي تري الناس أن لا قدرة لهم على شيء ويقولون: «ما بيطلع بإيدنا شيء». لقد تسلط عليهم ظن أنه بغير قوة لا يمكن أن يخرجوا من طاعته، لعل لابواسييه يلوح إلى إمكانية تغيير هذه الثقافة لأنها مكتسبة.

إذا تخلصنا من الفكرة المسيطرة عن ضرورة قتله أو إطاعته فقط،

فهناك ستظهر قارة جديدة من الحل، ليس هناك طريقان فقط كما يخيل للناس: إما أن تقتله وإن لم تتمكن من ذلك ينبغي أن تكون بندقية بيده. أو كما يقولون عبد مأمور لا حول ولا قوة. بل هناك طريق ثالث وهذا ما يلمحه لابواسيبه، وهذا ما نريد أن نكشف عنه، وهو أسلوب حل المشكلة من غير أن يتمكن أحد أن يؤذي أحداً ويضره، هذا ما جاء به الأنبياء وتم وظهر بأجلى ما يمكن أن يكون على يد خاتم الأنبياء، حيث صنعوا المجتمع الذي ليس فيه إكراه في الدين والرأي، هذا ما يسمى في هذا العصر حرية الرأي ويسمى في القرآن الشهادة بالحق والقوامة بالقسط: ﴿كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾ [المائدة: ٨]، وفي آية أخرى: ﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء لله﴾ [النساء: ١٣٥].

إن الذي يجعل قول الحق وحرية الرأي صعبين في الواقع أنه ليس عندنا رأي يحل المشكلة من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع، نحن في نظرنا لا بد أن يخسر أحد الأطراف، ولا بد أن يزول من الوجود، إننا لا نعطي للخطأ حق الوجود.
إن هذا التعصب هو الذي حرم أهل الحق أيضاً من الوجود، فلو أعطينا للخطأ حق الوجود أيضاً لصار للحق أيضاً حق الوجود.

نحن غالينا في تعصبنا للحق وحكمنا بالإعدام على الباطل، بينما الله سمح للرأي الخطأ بالوجود والبقاء، هذا معنى ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة: ٢٥٦]، أي لا يُزال الدين الخطأ بالإكراه والإبادة وإنما بالإقناع، أي يزول زوالاً طبيعياً ويتركه الناس برضائهم. هذه هي ميزة الحق وإلا يكون الحق مثل الباطل، والصواب مثل الخطأ. هذا هو الوهم الذي سيطر على البشر وعلى أساسه منعت حرية الرأي وعلى أساسه منع قول الحق، فمن هنا يمكن أن نقول: ليس

عندنا رأي حتى تكون لنا حرية رأي، وليس عندنا حق حتى يصير لنا قول، لأن الذي عندنا هو إبادة الآخرين وإزالتهم من الوجود، فإذا كان هناك قول مأثور يقول: «اطلبوا الموت توهب لكم الحياة» فلا يقلّ عن هذا صدقاً أن نقول: «أعطوا للخطأ حق الحياة فسيموت موتاً طبيعياً» من غير أن يأسف عليه أحد، بل سيتعافى الناس من الخطأ. إنني على أشد اليقين من صحة هذه الفكرة وسلامة هذا القانون، ولكن لا بد من بيانه وإثباته بالتجربة العملية، ويمكن بحث هذا الموضوع من جوانب مختلفة ومتعددة.

على الإنسان أن لا يظن أن العالم لم يبق فيه شيء غير قابل للكشف، هناك قارات مجهولة لا بد من كشفها لنتعافى من الأمراض المهلكة.

لقد كان الناس يموتون بالأوبئة حين كانوا يجهلون مسببات الأمراض، الجراثيم الخفية المبثوثة في الغذاء والشراب والهواء كانت تتحرك من غير أن يكون للإنسان إدراك لها ولا سلطان عليها، ولكن حين تم كشفها أوقفت الأوبئة وتعافى الناس من الآلام وطالت الأعمار التي لم يكن الناس يظنون أنهم يمكنهم أن يتدخلوا فيها، إن سننها صارت معروفة.

والآن يموت الناس بالحروب الأهلية والاستعمارية، بالهجمات والدفاعات الخاطئة التي لا تظهر لنا سننها. إن البلد الذي يحدث فيه حرب أهلية هو بلد قذر فكرياً ويجب أن لا يقال عنه إنه أصيب بهذه الحرب قضاءً وقدراً من الله كما كانوا يقولون عن الأمراض الجسدية. الفلكلور الشعبي الآن. حين يصاب بلد ما بالوباء يقال عنه إنه بلد قذر جاهل، لا أنه أصيب بهذه الأوبئة

قضاءً وقدراً. هل يمكن أن ننقل هذا الذي صار واضحاً إلى حد ما ـ أقول إلى حد ما لأن كثيراً من الناس لم يفهموا ذلك جيداً ـ هل يمكن أن ننقله إلى عالم الأفكار؟ فإذا نقلنا قانون المرض الجسدي والمشكلات التي كانت تفرض علينا ضريبة الآلام إلى المرض الفكري النفسي فيمكن أن نقول بالقانون نفسه: إن البلد الذي تحصل فيه حروب أهلية مدمرة لا نقول إنه قضاء وقدر، وإنما هو أيضاً بلد ملوث فكرياً، وإن الجراثيم الفكرية هي التي تحدث هذه الآلام والأحزان من فقدان الأموال والأرواح بشكل مأساوي.

إن هناك بلداناً وبشراً أمثالنا حلّوا مشكلات الأمراض المتوطنة وتعافى الناس منها، كذلك هناك بلدان تخلصت من الحروب الأهلية، وهناك في مستويات أكبر بشر يتحدون بدون فتوحات عسكرية، بعلم ومعرفة، وليس على أساس سيطرة وهيمنة، على أساس إقناع يربح به الجميع ولا يخسر أحد منهم شيئاً لا أرضاً ولا مالاً ولا زعامة، وإنما يبقى لهم ما عندهم ويزاد عليه أيضاً، ونحن في العالم العربي يمكن أن نفعل هذا، ولكننا لم نتخلص بعد من الحنين إلى القتال والاعتماد على العنف والقوة، وهذا الذي يمنعنا من التفكير في القارات الأخرى التي ينبغي أن نثبت أننا بلغنا الرشد بكشفها وكشف الأساليب التي لا يخسر فيها أحد ويربح الجميع، وإذا كشفنا هذا فيمكن أن نزيل الأحقاد التي تأكل الأكباد وأن نزيل الغل والحقد والكراهية من القلوب، وهذا واجب الذين بلغوا الرشد في الفكر والذين تخلصوا من إرث الآباء الذين لم يتمكنوا من رؤية حل للمشكلة من دون قتل الباطل، ومن دون إزالة الآخر من الوجود. علينا أن نواجه هذه المشكلات بكل الجدية والوضوح والصراحة، من غير أن يبقى في قلوبنا زوايا ميتة تحتفظ بالجراثيم العضوية والفكرية والعقد النفسية والأفكار المنسوخة التي فات أوانها.

وربما أحاول أن أشير ولو إشارة خفيفة وموجزة جداً إلى أن سلامة النفس وصحتها صارت من الأمور الملحّة، فالأنبياء لم يأتوا ليعلموا الناس الصحة الجسدية ولكنهم جميعاً جاءوا ليعلموا الناس الصحة النفسية الفكرية القلبية، وحين يتحدث القرآن عن الصحة أو القلب السليم فليس المراد القلب السليم بعضلاته، وإنما بمفاهيمه الفكرية، لهذا يقول تعالى: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]، واليوم علينا أن نكشف القلب السليم من الغل، من الكراهية، من الأحقاد. إن الإنسان حين يكشف الحلول لا يعود يحمل حقداً ولا كراهية، بل ينظر إلى الأمور نظرة سننية كما ننظر إلى الصحة الجسدية.

وأرى أنه يجب عليّ هنا أن أضيف أنه لا بد أن نفرق بين المرض والمريض، سواء في مستوى الفكر أو مستوى الجسد، فنحن في مستوى المرض الجسدي يمكن أن نتصور إمكان الفصل بين المرض والمريض، ولا سيما حين صرنا نعرف سنن انتقال الأمراض، فلهذا يمكن أن نحب المريض ونتفانى في خدمته ومساعدته، ونكره مرضه ونحارب مرضه بكل ما نملك من قدرات، فهذا واضح في الأمراض الجسدية وخاصة حين يكون المريض من الأحباب.

ولكن تصور إمكان الفصل بين المرض والمريض في مرض الأفكار والأنفس والقلوب صعب علينا، وهذا يجعلنا نخطىء خطأً مأساوياً حين نصير نكره المريض في هذه الحالة، لهذا يكون حكمنا عليه بالموت والإبادة، لا أن نفكر كيف نعافيه ونخلصه من المرض.

ألا من كان له أذنان للسمع فليسمع مثلما كان المسيح عليه السلام يقول في الإنجيل: «من كان له أذنان فليسمع».

في الأمراض الفكرية يمكن أيضاً الفصل بين المريض والمرض فنكره المرض الفكري ونحب المصاب بالمرض الفكري، ونبذل كل الجهد بالحب والخدمة والتعاون لتخليصه من المرض، وحين نفهم هذا يمكن أن نفهم كلمة عيسى عليه السلام: «أحبوا أعداءكم»، هذا الحب هو الذي تعجز عنه المملكة الإنسانية التي نعيشها نحن البشر جميعاً إلى الآن، إن علاجنا للمريض فكرياً هو إلى الآن بكراهيته والحقد عليه وبإعلان الحرب عليه، حرباً لا هوادة فيها...

أين الراشدون؟ أين أطباء القلوب؟ أين الذين كشفوا سنن سلامة تصور الإنسان للإنسان؟ إن الإنسان لم يخلق شريراً وطاغوتاً وإنما نحن الذين صنعناه، هذه النفس خلقها الله قابلة للفجور والتقوى وقابلة للتدسية وللتزكية، ولكن نحن الذين نجعلها مزكاة أو مدساة فاجرة أو تقية. ألا من كان له أذن للسمع فليسمع! إن حب الأعداء ليس جنوناً ولا مستحيلاً لأن هؤلاء الذين نعتبرهم أعداء هم ونحن مليئون بالكراهية والحقد، كأنهم خلقوا سيئين بالطبع، إذا فهمنا هذا يزول الغل والحقد من قلوبنا عليهم ومن قلوبهم علينا، وإذا كان عيسى عليه السلام يقول للحواريين «أحبوا أعداءكم»؛ فإن الله يقول عن حواريي محمد (ص): ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾ [آل عمران: ١١٩].

إن هذا الموضوع شيّق وجذاب، يبعث في النفوس حب الاستطلاع ومحاولة الكشف والتجربة، ليصير الموضوع علمياً ومخبرياً وقابلاً للتطبيق. إن إعادة الثقة بأن الناس يمكن أن يوثق بهم شيء كبير، إن الذين لا يثقون بإمكان تغيير النفوس والقلوب والأفكار لا يمكن أن يبذلوا أي جهد، إن كلمات الأنبياء تصير عميقة وواضحة ومستقبلية حين ندخل إلى هذا العالم، عالم الحب، حب الخير

للإنسان الآخر كما تحب الخير لنفسك، فمن هنا يقول عيسى عليه السلام للذي سأله: كم مرة يخطىء إليّ صاحبي فأغفر له؟ قال له عيسى عليه السلام: «لا أقول سبع مرات وإنما أقول سبعين مرة». هذا هو اليقين بأن الإنسان مهما كان فاقداً الثقة بالإنسان فإنه يضطر أن تعود إليه الثقة بالإنسان، الثقة التي تفتقدها مملكة العالم الذي نعيش فيه. ومن هنا أيضاً كلمة الإنجيل: «إذا كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كم يكون؟». إننا نفتقد في القيادة الفكرية الثقافية الدعوة إلى مثل هذا التصور أو على الأقل الأمل فيه في المستقبل، بحيث لا يستبعد استبعاداً مطلقاً ولا يُنظر إلى هذا الإنسان أو هذه المملكة على أنها غير ممكنة في هذا العالم. إذا كنا نتمكن من فهم قدرة المجتمع على صياغة الإنسان إلى درجة حمله على الانتحار، فما هو هذا الذي لا يمكن أن نصوغ عليه الإنسان؟ لقد صرت أرى إمكانه يقيناً، فهذا الإنسان كان يقبل أن يُقدّم قرباناً لمثل أعلى أو يقبل أن يقدم ابنه قرباناً برضى الطرفين، هذا يقدم لنا نموذجاً من قدرة الإنسان على التوجه إلى التزكية والتدسية إلى درجة الفناء والتماهي في الاتجاهين، فما علينا إلا أن نكتشف السنة لتحويله إلى الجهة الإيجابية، والتاريخ وتجارب الأمم تدعم هذا الاتجاه، والعواقب تغري مهما تجاهلنا أو تنكبنا الآن، التوجه إلى هذا الوعي، لا بد من الرؤية الواضحة لقدرات الإنسان الكامنة بالقوة والمتحققة بالفعل، وإن ما يحدث بالصدفة يمكن تحويله إلى سنة وقانون، لا بد أيضاً من إظهار البدائل عن الواقع الذي سدّ علينا منافذ الفكر والقدرة على الرؤية.

إن رغبة الناس في تبرير الواقع وبحثهم المتفاني عما ينزّه الذات ويشوّه الحقيقة رغبة جامحة يمكن أن تخدع الناظر لأول وهلة، فلهذا نبحث عن كبش الفداء ونبرّئ الذات ونتلمس العذر عن

المهانات التي يعيشها البشر. هذا الواقع عقبة تحرم الإنسان من البحث عن بديل، بل تحرمه من أرضية لإمكان تصور بديل، لهذا علينا أن نبذل كل الجهد لإعادة النظر في المنطلقات. من هنا تظهر أهمية هذه المقالة في فلسفة السياسة والاجتماع، إنها تشير إلى هذا الاتجاه المستبعد إلى الآن. وعلى قدر ترسخ اعتراف الإنسان بإمكان البديل يبدأ البحث عن الحلول الأخرى التي تقطع تسلسل الخطأ، وتوقف إعادة إنتاج الخطأ، هذا الخطأ الفاضح هو الذي لا يملك لابواسييه نفسه من العجب والاندهاش كيف أن البشر لا يفطنون ولا ينتبهون إليه. وبعد دهشته وحيرته يقول: «كأن البشر إنما يرفضون هذا الكسب الجميل لفرط سهولته».

إن تفهّم هذا الموضوع هو الذي يجعلنا نفهم النداء بدعوة الناس إلى التنبه إلى أن بغيهم على أنفسهم: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ [يونس: ٢٣]، وكذلك: ﴿ولا يحيق المكر السيّيء إلا بأهله﴾ [فاطر: ٤٣]. فمن هنا يمكن أن نفهم السبب العميق للسكوت المطبق وعدم الاعتراض على حق «الفيتو». إن السبب هو ما في قلوب ضحاياه من تمني أن يكون لهم هذا الحق، لا أن يلغى هذا الحق في حياة الناس كلياً، وبهذا لا يكون هدف الناس تغيير النظام وإنما الهدف تغيير مواقع الناس من هذا النظام، نظام الاستكبار والاستضعاف، فالمستضعفون والمستكبرون لا قدرة لهم على تصور زوال الواقع المؤلم من ظاهرة الاستكبار والاستضعاف حتى الفناء، والمستضعف يتلمظ أن يحل محل المستكبر، فالأطراف جميعاً من ملة واحدة، ملة إبقاء الاستكبار والاستضعاف.

أما ملة الأنبياء فهي ترى عالماً آخر خالياً من الاستكبار والاستضعاف، وهذا ما اعتبرته ملة الأقوام مستحيلاً، وكأن العالم

كله لا يزال يعمل على استبعاد عالم خال من الاستكبار والاستضعاف، من المستعمِر والمستعمَر من المستغِل والمستغَل، لأن العالم لم يرَ مثل هذا المجتمع، والتاريخ كله ظالم ومظلوم، وهذا ما يؤكده شاعر الحكمة والفلسفة حين يقول:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفة فلعله لا يظلم

مثل هذه الأقوال السائرة على الألسنة ترسخ في لا وعي الناس وتوحي إليهم استحالة العدالة بين الناس، ربما نوافقهم على شيء من الاستحالة على مستوى الصغائر، ولكن حين تنشر بيانات اليونسكو نظام توزيع الثروة في العالم، وأن ٢٠٪ من سكان العالم يستهلكون ٨٠٪ من إنتاجه، وأن العشرين في المئة الأفقر لا ينالهم إلا ١,٤٪ من إنتاج العالم؛ فهذا لا يمكن أن يوزن لا بميزان الجواهر ولا بميزان القبان، وأن الـ ٦٠٪ الباقين من سكان العالم ينالهم ١٨,٦٪ من إنتاجه.

وهذا الإحصاء العالمي للفقراء والأغنياء ينطبق أيضاً على كل دولة بحد ذاتها. فـ٨٠٪ من ثروة الأمة يتمتع بها ٢٠٪ من سكان البلد نفسه، فهذا يدل على مقدار تغلغل ثقافة الإمبريالية عالمياً، وهذا ما يشير إليه القرآن في أن سبب فساد العالم هم المترفون الذين جعلوا أموال العالم جميعاً وأموال كل بلد دُوْلَة بين الأغنياء منهم، وهذا التوزيع السيء يغطى ويموه بذكر نسبة الدخل المتوسط ولا يذكرون أن ٨٠٪ من الدخل لـ ٢٠٪ من السكان وأن الـ ٢٠٪ الأفقر لا ينالهم إلا ١,٤٪.

هذه إحصاءات عالمية، ولكن كنت مرة سألت عاملاً في الولايات

المتحدة من المهاجرين عن عمله هناك، فكان مما قال لي أنه يعمل في شركة عمالها ومصانعها وموادها الخام في جنوب شرق آسيا، وأن السلعة لا تكلف إلا عشرة سنتات، بما في ذلك المادة الخام والأيدي العاملة الرخيصة هناك، وحين تصل السلعة إلى السوق يبيعونها بستة دولارات، أي قريباً من النسبة نفسها التي في الإحصاءات العامة لليونسكو، ففي أي ميزان يمكن قبول أن أصحاب المادة الخام والأيدي العاملة لا يصل إليهم إلا واحد من ستين، وأن المترفين في الأرض يأخذون ربحاً ٥٩ من ٦٠؟! هذا لا يحتاج إلى معرفة دقيقة، ولكن الذين سيطر عليهم الاستلاب لأموال الناس وصفهم الله بـ ﴿الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ [البقرة: ٢٧٥].

فلهذا لا يمكن حل المشكلة إلا بوعي الناس وليس بالمظاهرات العفوية التي تتحول إلى إشعال النار في السيارات والمباني، فأولئك يتخبطهم الشيطان من حب المال وهؤلاء يتخبطهم الحقد والبغض فيكون أسلوب مقاومتهم بفرض حالة الطوارىء واستدعاء الجيش، هذا ما يحدث في البلدان المتخلفة، ولكن هذا نفسه ما حدث في ولاية كاليفورنيا في لوس أنجلوس مدينة هولي وود في حادثة ضرب الشرطة للسائق الأسود. إن المشكلة لا تحل بالغضب والتدمير.

بلال رضي الله عنه لم يمارس شيئاً من هذا كله، ولكن كان يقول، ما أنتم عليه خطأ ونحن نريد أن نصنع مجتمعاً يتساوى فيه الناس أمام القانون، ومجتمعاً ليس فيه «حق الفيتو» أي اغتيال القانون ونبذه وراء الظهر. لقد حق للابواسييه أن يتعجب، ولو كان حياً لكان عجبه أشد من صمت العالم، وكان سيتعجب من مثقفي القرن العشرين الذين لا يدلّون معاصريهم بالأخذ بيدهم ليعلموهم

كيف يمكنهم أن يصلوا إلى حقهم من العدل بين الناس بسهولة ويسر. هذا هو الذي جعل مقال لابواسييه «يحظى إلى الآن بانتباه منقطع النظير من جانب المشتغلين بالفلسفة السياسية والاجتماع» وهذا الذي يجعل مصداقية لقول لابواسييه: «حتى لكأنهم إنما يرفضون هذا الكسب الجميل لفرط سهولته». ونحن لا بد أن نفهم هذا، وأن الأنبياء جميعاً جاءوا بهذا، وهذا هو مضمون التوحيد الواحد في جميع الأديان، والقرآن يعرض هذا الموضوع على أساس رسالة الأنبياء جميعاً: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [النحل: ٣٦]. إزالة الطاغوت ليس بقتله بل باجتنابه، بمعصيته فقط، حتى لا حرج في طاعته في المعروف، إنما الطاعة في المعروف و«لا طاعة في معصية الخالق»(*) لأي مخلوق. هذا هو التوحيد والتنفيذ العملي من غير خسارة، ونبي الإسلام جعل هذا واقعاً عملياً يمكن دراسة تاريخه يومياً، من يوم غار حراء ونزول «اقرأ» إلى يوم حجة الوداع التي ودّع فيها الرسول العالم، وختم القرآن بالآية المتوهجة: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة: ٣]. سنكتشف هذه السنن المجانية التي يقول عنها لابواسييه: «يرفضون الكسب الجميل لفرط سهولته». لا يخسر أحد ويربح الجميع، حتى المستكبر يربح الراحة والأمن، لأنه يعيش في رعب دائم وهذا شقاء وليس أمناً، هكذا صنع الرسول (ص) المجتمع السواء الذي لا مستكبر فيه ولا مستضعف من غير أن يُقتل شخص واحد من المعارضين، وقُتِل شخصان فقط من المسلمين. لم يحدث في التاريخ الماضي أن قامت أمة مجاناً بهذا الكسب الجميل في قلة خسائره وعظم فوائده، وهذا

(*) من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، رقم (٦٧١٦).

ما جعل النزاع قليل التكاليف إلى درجة أن الناس لم يمكنهم فهم هذا الموضوع على أساس السنن والقوانين ففهموه على أنه معجزة خاصة بالرسول، وهذا الأسلوب في التفسير هو الذي كان سبباً في انقطاع هذا النموذج النبوي في إقامة المجتمع والعودة إلى شريعة الغاب، بينما نموذج النبوة قليل التكاليف كثير الفوائد، من الجهود القليلة يمكن للناس أن يكسبوا كسباً عظيماً، لم يكن في الإمكان أن يُفهم سابقاً إلا على أساس أنه أمر خارق ومن خصوصيات الرسول (ص)، بينما هي سنة إلهية، وهذا ما بدأ الناس يدركونه الآن، وبدأ إمكان فهم الدين، وما كان يفسر على أنه من الخوارق صار يمكن فهمه على أساس أنه سنة وقانون قابل للتكرار. وإذا تمكنا من فهم الأمور على هذا الأساس يمكن جعل الخوارق سننية، حتى أنه يمكن جعل مساعدة الملائكة للمسلمين في غزوة بدر أمراً سننياً وليس خارقاً، فنحن حين نهيّىء السنن فإن الملائكة والعواقب الضخمة تأتي لصالحنا، والمواقف السلبية تجاه الطاغية ينتج منها فوائد لا يمكن أن تنتج من المواقف العنيفة التي نظنها إيجابية ولا تحل المشكلات إلا بها، يمكن أن نلاحظ أن بدء العصر الكلاسيكي كان يمثله مفكرون كبار سننيون إنسانيون أمثال أصحاب هذه المقالة، ونظرتهم التي أخرجتهم من العصور الوسطى والظلام والخوارق والسحر والتفسيرات غير السننية كان يمكن أن تتطور، ولكن حصل عندهم تراجع، وهذا التراجع وعدم القدرة على المتابعة بدأ بعد الثورة الفرنسية التي تعتبر بداية للحداثة، ولكن هذه الحادثة كانت تراجعاً وعودة إلى الاستكبار وعدم الاعتراف بإزالة الامتيازات، وجعل المساواة بين الأوروبيين أو الشعوب ذات اللون الأبيض فقط، وحقوق الإنسان بضاعة محلية غير قابلة للتصدير، هذه العودة إلى الامتيازات هي ما تعانيه الحداثة وما بعد الحداثة، لأن عصر الأنوار تراجع إلى الظلام، ولا يزال يتخبط في الظلام.

وربما لا نجد مثلاً يضيء هذا التراجع إلا التراجع الذي حصل للعالم الإسلامي حين فقدوا الرشد وانتكسوا إلى الامتيازات، بحيث لا يطبق القانون إلا على الضعفاء ويستثنى منه أصحاب الامتيازات، هذا هو حق الفيتو، وهذه هي العودة إلى الشرك الأكبر الذي جاء الأنبياء جميعاً لإزالته من الوجود، واعتبروه محور الحركة الإنسانية حين اعتبروا أن الشرك هو الذنب الذي لا يغتفر، وأن التوحيد إذا خلص لا تضر معه معصية، وإذا انتقض لا تنفع معه الطاعات.

وحق الفيتو نكسة عن ثورة حقوق الإنسان، ونكسة عن الديموقراطيات، إن العالم يعيش في مخاض كبير الآن، والحضارة الغربية إن لم تقبل إسقاط حق الفيتو وتعميم الديموقراطية، فستسقط، وبهذا التمسك بحق النقض يسقطون أنفسهم، وهذا معنى الآية التي سبق أن ذكرناها وهي ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ [يونس: ٢٣].

وإذا سقطوا فإن من سيحل محلهم سيسقط أيضاً كما سقطت روما وبريطانيا، وكذلك ستسقط أميركا إذ إنها ليست بدعاً من الأمم، وسيأتي عليها قانون الله.

إن أهل الظلم سيهلكون: ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ [القصص: ٥٩]. ستسقط لأنها ضد التاريخ وضد اتجاه النمو الإنساني، والذي يطيل المخاض أن خصوم أميركا يحملون مرض أميركا نفسه، وأنهم يريدون أن يحلوا محلها، لا أن يُغيروا نظام العالم، فالذي يعارضهم يريد أن يصير له حق الفيتو، حق الربوبية العليا، وقديماً قال فرعون: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤]، و﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿لئن

اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ [الشعراء: ٢٩]، وإن لم تعملوا بإرشادي وإذني ﴿فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى﴾ [طه: ٧١].

فالذي يعارض من الطينة نفسها وليس شيئاً متطوراً، وعلينا أن نظل نذكر هذا ونكرره إلى درجة الإملال، لأن هذا السكوت المطبق عن المرض يطيل بقاءه، ويطيل المعاناة الإنسانية، ويؤخر موعد العدالة. لا بد من أن يتعاون الآمرون بالقسط من الناس جميعاً على مساعدة الجميع، المستكبرين والمستضعفين، للخروج من مأزق الاستكبار الذي يعيد إنتاج نفسه.

إن الميلاد الجديد لم يعد بعيداً، إنه ليس يوتوبيا ولا مثاليات ولا مستحيلات، بل هو شيء صار قريباً.

إن الوحدة الأوروبية نموذج فواح، حيث ليس فيه حق الفيتو، وإنهم يتّحدون على كلمة السواء، ويمكن أن يكون نواة لوحدة عالمية، وأما الأمم المتحدة فلا يمكن أن تكون نواة لوحدة عالمية بل إنها ضدها.

ونحن العرب علينا فوراً أن نختصر التاريخ ولا نكرر الأخطاء، يكفي نجاح واحد لتثبت السنة والقانون، وينبغي أن نذكّر العرب بهذا الذي يحدث أمامهم في الاتحاد الأوروبي وتخليهم عن العنف، لأن الديموقراطية لن تدخل عالماً يعتمدون فيه على العنف، لا بد أن يعلن جميع الأطراف عن الإيمان بتخليهم عن العنف ولجوئهم إلى الإقناع، وعلينا أن نتذكر كيف أن اتحاد وتعاون بلدين عربيين لحظة

من الزمن في عام ١٩٧٣م رفع قيمة العرب في أعين الناس، وكيف دهش العالم جميعاً واضطر العرب أن يدعموا هذا التعاون، وكيف دهش العالم من الحدث الذي لم يكونوا يتوقعونه، وكيف ارتفعت أسعار سلعهم حين ارتفع للحظة واحدة وعيهم وظهر تعاونهم.

على العرب أن يتذكروا هذا ولا ينسوه، كما ينبغي أن يتذكروا جيداً بالمقابل كيف أن بلدين عربيين حين تنازعا تمزق العرب وتشتتوا وذهبت ريحهم، وحتى بعد مرور سنين طويلة لا قدرة لهم على أن يتقابلوا وجهاً لوجه.

يا مثقفون، يا مفكرون، يا من لهم أعين لمراقبة الأحداث وما يحدث في العالم! لا تقفوا متبلدين حيارى، ارفعوا صوتكم للتفاهم وأزيلوا من أنفسكم سحر البطل الذي سيوحد العالم العربي بالعنف، لقد فات أوانه من زمن بعيد من أيام محمد علي باشا وابنه إبراهيم، علينا أن نفهم التاريخ الذي هو مرجع الله رب العالمين في إيقاظ البشر، إنه يأمرنا بالاعتبار: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ [الحشر: ٢].

﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب. إن ربك لبالمرصاد﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤]. إنه سيكرر في المستقبل ما حدث في الماضي.

أليس علينا أن نقول بالأسلوب نفسه: ألم تر كيف فعل ربك بهتلر الذي فتح البلاد من روسيا إلى العالم العربي، ونابليون الذي ملأ اسمه التاريخ، والاتحاد السوفياتي الذي كان يمكن بقوته أن يدمر

الأرض كلها مرات كثيرة؟! فإذا كان هذا في الذين سقطوا فبالأسلوب نفسه وبالتوجه نفسه يمكن أن ننظر إلى النجاحات التي حدثت في العالم.

ألم تر كيف فعل ربك باليابانيين الذين يشبهون قوم يونس؟ ألم تر كيف تحرروا من عبودية القوة والعنف ووسائله، وكيف تحرروا بدون حرب تحريرية، وبدون ملايين الشهداء؟ كيف صاروا قوة عظمى في العالم مع السبعة الكبار؟ وإن كانوا لا يحملون رسالة، وإنما دخلوا إلى مذهب الاستكبار بطريق آخر. لابواسييه يقول: «إن نوال الحرية لا يقتضي إلا أن نرغب فيها ويكفي فيه أن نريد». وأنا أقول إن التعاون العربي لا يقتضي منا إلا أن نرغب فيه بوعي وفهم عميقين، ويكفي أن نريد، ولكن أقول لكم: إن هذه الرغبة وهذه الإرادة وهذه الأمنية لا تصير واقعاً إلا إذا أخرجنا من قلوبنا الأفكار العتيقة المسيطرة علينا والتي ترسخت فينا، وهي الحنين لتحقيق ذلك بالعنف، بالبطل المنتظر الذي سيوحد العرب بإزالة الفساد والمفسدين بحد السيف الصارم، ما هكذا يا عرب تورد الإبل! ولا هكذا تحل المشكلات في عالم اليوم، اخرجوا من العالم المنسوخ الذي فات أوانه، إن هذا الحنين إلى القوة هو المرض ذاته الذي ترسخ في ثنايا قلوبنا، علينا أن نقتلعه من جذوره من دون أن تبقى له باقية، لأنه الجرثوم المميت، لأنه الحقد الذي يعمي الأبصار، والأضغان التي تسد منافذ الفهم، إن هذه الأغلال التي في القلوب هي التي تعيق حركتنا: ﴿ولا تجعل في قلوبنا غلاً﴾ [الحشر: ١٠]، فلننزع من قلوبنا هذه الأغلال التي تحول دون تلاقينا، ولندخل في جنة الدنيا.

إن من يفهم الأمور لا يبقى في قلبه غلّ، إن الغل من الجهل والعجز عن معرفة حل المشكلات، فالذي يعرف حل المشكلة لا يبقى غل

في قلبه، فهنا يتعافى القلب ويحل فيه الأمن والسلام ويغير العالم بالأمانة والسلام.

إن الغل والحقد والكراهية التي بيننا وصلت إلى درجة أننا نخاف من بعضنا أكثر مما نخاف من عدونا، فكم هو المرض الذي فينا عميق وخطير؟! لأن مرضنا حين برز في حرب الخليج الثانية بعنفوانه نسينا عداوة إسرائيل وأميركا، والتجأنا إلى كنفهما. علينا أن نفهم وسنفهم رغماً عنا لأن أستاذنا التاريخ لا يبالي بعواطفنا كالآباء الجاهلين.

فإن نظفنا قلوبنا، فإن قلوبنا ستكون مستعدة لتستقبل الأمنيات الجميلة، أمنية حل المشكلات من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع، ويزدادون ربحاً مجانياً للجميع، علينا أن نتمكن من تنظيف قلوبنا وأعماق ثقافتنا التي تشربت أن ليس هناك من طريق إلا الذبح، فإذا غيرنا ما بأنفسنا فستتغير حتماً مشكلاتنا، يمكن أن نحل المشكلة من غير أن يخسر أحد شيئاً لا أرضاً ولا مالاً ولا زعامة وإنما يربح الجميع، علينا أن نفتح عقل الإنسان العربي لنضع فيه هذه البذرة، هذه الأمنية التي يمكن أن لا نخجل منها وأن لا يعتبر النطق بها جريمة منكرة. علينا أن نؤمن إيماناً عميقاً ونفهم فهماً لا غموض فيه ونصير متمكنين من نقل الفهم إلى الإنسان العادي المرعوب، المحرم عليه أن يفتح فاه لينطق بكلمة، ليس محرماً أن ينطق، ولكن أقنعناه أنه محرم عليه أن ينطق، لأننا لم ندله على حل للمشكلة بغير قوة وعنف، هذا الذي مزق الإنسان العربي والمسلم، وحكم عليه بالذلة والمسكنة وحرّم عليه النطق، لأنه مفرغ القلب والدماغ من أن يكون هناك حل بغير عنف، وإذا لم تتمكن من القوة والعنف فليس أمامك إلا أن تقبل العبودية وأن تكون مثل البندقية يستخدمك كل من يملك القوة، قوة العضلات وقوة المادة. ولم

ندخل بعد إلى قوة الفكر والفهم والعلم، لأن معركة الفكر والفهم والعلم لا تدخل فيها قوة اليد والعضل، فمن هنا ينبغي أن نعلم معنى ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ [البقرة: ٢٥٦]. إن معركة الفكر والعلم والفهم لا إكراه فيها وإنما فيها الإقناع والأساليب العلمية والفهمية، وليس أساليب العضلات والقنابل، لهذا حتى بعد أن تنتصر عليه في ميدان العضل لا سلطان لك على عالم فكره، ولا يجوز لك أن تقول له: غيّر فهمك وإلا قتلتك.

إن الله حمى عالم الأفكار من أن يدخل فيه العنف والإكراه والعضلات، لأن عالم الأفكار عالم خاص لا تجدي فيه العضلات. ولكن يمكن أيضاً أن نفهم أن العالم كله، لا يبالي بعالم الأفكار، وإنما اهتمامه بعالم العضلات. فمن هنا يمكن أن نقول: إلى الآن البشرية لم تعترف بعالم الأفكار. وكل همّها عالم العضلات. لهذا، الفرق بين المؤمن والكافر هو في هذا المجال. فالذي يؤمن بعضلات الإنسان لا بفكره هو الكافر بالإنسان قبل أن يكفر بالله الذي ميّز الإنسان بفكره لا بعضلاته ـ لأن كثيراً من الحيوانات أقوى عضلة من الإنسان ـ ولكنه وحده هو الكائن القادر على الفهم والتفهيم بالحوار والاعتبار بالتاريخ وأحداث الماضي، لهذا كثيراً ما أمر القرآن الناس بالاعتبار بالأمم التي خلت، وذلك لأن التاريخ مصدر معرفة كيف هلك من هلك من الأمم. والأمم كانت تهلك لأنها ظالمة والله يقول: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ [البقرة: ١٥٤] ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ [القصص: ٥٩].

والتاريخ حديث العهد، لأن التاريخ الحقيقي إنما بدأ منذ بدء الكتابة. وما قبله قالوا عنه (ما قبل التاريخ)، لأن الخبرات كانت تضيع

وتنسى، والكتابة هي التي حفظت التاريخ، ولكن تطور وعي الإنسان وأساليب تأويل الأحداث كشف للناس تاريخ الإنسان قبل الكتابة وبعدها. لهذا أرجعنا الله إلى الأرض لنسير فيها وننظر كيف بدأ الخلق. إن الأنبياء هم الذين قرأوا التاريخ، والكتب السماوية هي التي فتحت باب المستقبل، فإن معرفة الماضي هي التي ستعلم الإنسان ما يمكن أن يحدث في المستقبل.

إن البشر المقيدين بالماضي لا يدركون التغيرات التي حدثت، ولا يمكنهم تصوّر التغيرات التي ستحدث في المستقبل.

إن العالم مدفوع رغماً عنه إلى الاعتراف بعقل الإنسان لا بعضلاته، فإن القنبلة النووية اضطرت الإنسان إلى أن يتوقف ليفكر، لأن العضلة إن لم يتحكم فيها العقل والفهم والعلم والفكر يتحطم الدماغ الناعم الهشّ الليّن المحمي بالجمجمة.

إن القنبلة النووية ألغت الحرب بين الكبار. ولن يتمكنوا من الدخول فيها، وإنما يدخلون إلى عالم التفاهم وإمكانية العيش لهم جميعاً بدون أن يدمر بعضهم بعضاً، ولكن الذين لم يصلوا إلى هذا لا يفهمون هذا الفهم، لهذا يسعون إلى أن يكبّروا عضلاتهم لا أدمغتهم. إلا أن اليابان والاتحاد السوفياتي قدّما المثل السلبي والإيجابي، وهو أن السلاح لا يحمي من يملكه ولا يذل من يحرم منه، لأن العز والذل ليسا في العضلات، اليابان استسلمت بدون قيد أو شرط، ومحرم عليها التسلح، ولكنها استطاعت أن تقف أمام العالم على قدم المساواة مع السبعة الكبار، وكذلك الاتحاد السوفياتي الذي ملك من القوة ما يمكن أن يدمر الأرض عدة مرات؛ تمزق إرباً ولم تنفعه آلهته التي عبدها، تحطم من الداخل

وليس من عدو خارجي، ولكن العالم الذي لم يعترف بعد بالفكر ولا يزال الحكم فيه للقوة، لا قدرة له على تأمل هذه الأحداث الجديدة التي حدثت، لأنها حديثة العهد، والسيطرة لا زالت للفكر القديم الذي نُسِخ، ولم نفهم بعد أنه نُسِخَ والناس ستأتيهم أمثلة كثيرة حتى ترغمهم أن يغيروا مسلّماتهم.

إن إيمان الناس بأن الشمس لا تدور حولنا أخذ وقتاً طويلاً، ولا عجب أيضاً أن يأخذ الناس وقتاً طويلاً لفهم أن عقل الإنسان وفهمه لا يدوران حول القوة المادية، بل القوة المادية كلها بما فيها ما في السماوات والأرض مسخرة لفهم الإنسان.

أنا لا قدرة لي على التأثير في الفكر إلا إلى درجة محدودة جداً، وعند عدد قليل من الناس، فمن هنا أقول: أنا على مذهب ابن آدم وأقول كما قال الرسول (ص): «كن كابن آدم» الذي كفر بقوة عضلة اليد وآمن بفكر الإنسان. قصة ابن آدم هذه رمز إلى أن الإنسان لا يكون إنساناً بقوة يده، لهذا قال ابن آدم الذي كفر بعضلة الإنسان كوسيلة لتفضيله وآمن بفكر الإنسان: أنا خرجت من صراع العضلات، أنا صرت خلقاً آخر، قال هذا لأخيه الذي سيطر عليه الإيمان بالعضلات. لكن الناس جميعاً، العالم بما فيه الأمم المتحدة ومجلس الأمن، على مذهب المؤمن بالعضلات والكافر بفكر الإنسان، وكذلك الأسرة مبنية على العضلات، فالذي يفقد القوة في الأسرة يستضعف أيضاً. إن الثقافة اليوم ثقافة الكفر بالفكر والإيمان بالعضلات والسلاح، ونحن لن ندخل عالم الإيمان بقوة الفكر، ولن نخرج من عالم الكفر بقوة الفكر إلا إذا آمنا بالقطيعة بين عالم الفكر وعالم العضلات، عالم حل المشكلات بالفهم وعالم حل المشكلات بالعنف.

وأهمية ما لمع في ذهن لابواسييه أنه بدأ يظهر له إمكان حل المشكلة بدون أن يكلف الإنسان شيئاً، مجرد تغير فكره يحل المشكلة تلقائياً بدون دماء، وبدون قوات مسلحة، بمجرد مجيء الفكر الذي يحل المشكلة من غير أن يخسر أحد شيئاً ويربح الجميع، هذا الفكر بمجرد مجيئه وبروزه وصيرورته مفهوماً يموت الباطل والخطأ، يموت الخطأ ولا يموت الإنسان الخاطىء، عندها الإنسان الخاطىء سيشعر بالراحة. وستشعر بالراحة كل الأطراف، ولن نطارد الهارب ولن نعاقب على ما سبق من التاريخ الماضي، لأننا سنبدأ تاريخاً جديداً ونقضي على ثقافة المستكبر والمستضعف، ليظهر عالم جديد يذهب فيه الزبد جفاء، ويمكث فيه ما ينفع الناس. أنا لا أشعر أني أدخلت الناس بهذا الذي أكتبه في عالم ثقافي جديد، لأن خبرتي من نصف قرن تعلمني أن الأفكار تتدعم بالكوارث، لأن الكوارث هي التي توقظ الناس، إن الحربين العالميتين حدثتا بين الأوروبيين، وأوروبا هي القارة الحديثة والعتيقة في آن واحد، يحدث فيها شيء جديد لم يحدث مثله من قبل في العالم، إنهم يتحدون على الفكر والفهم وليس على أساس أنا قوي وأنت ضعيف، ولكن الذين أنهكهم الصراع لا قدرة لهم على تأمل هذا الحدث. إن الاتحاد الأوروبي مثل رائع عجيب لفهم فكر لابواسييه في حل المشكلة بالفهم والرغبة في الحل الأفضل الذي لا يخسر فيه أحد شيئاً ويربح الجميع. هذا حدث جديد وعميق وابتكار، وليس سحراً ولا خوارق، وإنما إيمان بالفكر الإنساني الذي يمكن أن يحل المشكلات بدون خسائر ودماء وقتال، إنه مثل كبير سنضطر أن نفكر فيه بعقولنا لا بعضلاتنا حين يعجز الناس عن حل المشكلات بالعضلات، لعلهم سيشعرون حينئذ بذلك ولو فيما بين أنفسهم، لأنهم إلى الآن يخجلون من إعلان حل المشكلات بدون عنف، ولكن حين يصير العجز عن العنف ثقيل الوطأة سيفكر الناس بأدمغتهم في أساليب لحل المشكلات بالعدل وبكلمة السواء

وبالإحسان والبر والأخذ بيد المقصر بالإحسان أيضاً.

إن الحل يكون في فهم الإنسان، وحين يسلم بأنه يمكن حل المشكلات بالفهم ستخرج من قلبه الكراهية والبغضاء، وبعد ذلك لن ينطق لسانه بالحقد والغيظ ولن يستخدم يده في حل المشكلات.

يا عرب، هبوا أنكم لا قدرة لكم على حب الآخرين، ولكن من الذي تستطيعون أن تثقوا به بعد أن لجأتم إلى الإنسان الذي ترونه العدو اللدود لينصركم على أخيكم الشقيق؟ هل بقي عندنا بعد ذلك من نثق به؟ إننا فقدنا ثقتنا بالإنسان، فلم يبق لنا ثقة بأحد، نبذنا الثقة والأمانة فماذا بقي لنا بعد أن نبذنا الثقة بالفهم؟ لم يبق أمامنا إلا شريعة الغاب، عليها ننام وعليها نستيقظ، ولكن أستاذنا كبير الصبر سيصبر علينا حتى نفهم ولا يستعجل علينا.

إن التاريخ لن يغير هدفه من أجل قصورنا، ولن يغير التاريخ سننه ولكن نحن الذين سنغير نظرنا.

﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون. وانتظروا إنا منتظرون﴾ [هود: ١٢١ ـ ١٢٢].

جودت سعيد

بئر عجم ١٩٩٨/٩/٦

١

عندما تنطفىء الحضارة تنتج الإنسان المريض

في عام ١١٩٨م مات (ابن رشد) بعد أن طرده الغوغاء من مسجد قرطبة ونفاه الملك الموحدي إلى قرية الليسانة اليهودية بعمر السبعين. وبعد عشرين عاماً طُحنت الدولة الموحدية بجنب مدينة (ثيوداد رويال) في الأندلس في معركة «العقاب» في أفظع عقاب. وبعدها تهاوت الحواضر الأندلسية كورق الخريف: بالنسيا (عام ١٢٣٧م)، قرطبة (عام ١٢٣٨م)، وأخيراً إشبيلية (عام ١٢٤٧م). ومع أفول عصر الموحدين دخل العالم العربي ليل التاريخ وأنتج إنسان ما بعد الحضارة كما في نفايات الطاقة بعد استهلاكها. وهكذا تفعل الحضارة بالإنسان، تستهلكه كمادة خام وتصنعه إنساناً متفوقاً ويخرج منها متبخر الطاقة الإبداعية. يظهر بعدها على السطح إنسان يتقن التمثيل ويؤدي كل الأدوار بدءاً بالصعلوك وانتهاءً إلى الإمبراطور. وقد تبخّر عنده المثل الأعلى ووقع في شبكة (علاقات القوة) في مجتمع فرعوني تحول إلى (مستكبرين ومستضعفين).

يعيش (كالأميبيا) على شكل كائن رخوي بدون مفاصل تحدد حركته أو عمود فقري يقيم صلبه. يحلّ مشاكله بمد أذرعة كاذبة قابلة للتشكّل على أي صورة فيمكن أن يأخذ صورة (قلم) يوقع كلمة نعم في كل انتخاب. كما يمكن أن يكون (بوقاً) مردداً ما يطلب منه من شعارات. أو (بندقية) تقوم بحفلات الإعدام حسب الأوامر. أو (سيارة) جاهزة للقيادة لمن يحكم قبضته على مقودها، ولو كان لصاً يخطفها ـ فمتى اعترضت سيارة على هوية السائق؟ ـ وبتعبير (مالك بن نبي) عن هذا الكائن الاجتماعي: «ثم يبدأ تاريخ الانحطاط بإنسان (ما بعد الموحدين)، ففي عهد ابن خلدون استحالت القيروان قرية مغمورة بعد أن كانت في عهد الأغالبة قبة الملك وقمة الأبهة والعاصمة الكبرى التي يقطنها مليون من السكان، ولم يكن حظ بغداد وسمرقند خيراً من ذلك؛ لقد كانت أعراض الانهيار العام تشير إلى نقطة الانكسار في المنحنى البياني». تروي لنا السيرة والتاريخ واقعتين على التشكل الصحي للمجتمع أو الانحراف المرضي. أما الأولى، فهي موقف أحد الصحابة في معركة أحد وهو يفارق الحياة قائلاً: «لا عذر لكم إن خُلِص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف». وأما الثانية، فهي موقف عقيل بن أبي طالب وهو يواجه مصادرة الحياة الراشدية على يد البيت الأموي: «إن صلاتي خلف علي أقوَم لديني وإن معاشي مع معاوية أقوم لحياتي»، فالتاريخ ينقل لنا هنا مأساة انفكاك الضمير عن الواقع. في الوقت الذي كان (الصحابي) نموذجاً يندمج فيه الضمير مع المثل الأعلى والحياة «إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين». إن حادثة السيرة تروي أقصى ما يمكن أن تفعله التربية بالإنسان، والمجتمع يمكن أن يحدد بين الصحة والمرض بموجب مؤشرين: إنتاج (النموذج الإنساني) و(الكمية الحرجة) من هذه الكتلة كما في أي تغير نوعي في أي وسط. فالقنبلة النووية لم تنفجر إلا بكتلة حرجة،

كما أن تغيّر الماء النوعي يتمّ وفق الدرجة الحرجة سواء في التجمد أو التبخر، وهذا ينطبق على اندلاع الثورات في المجتمع عندما تصل إلى الوضع الحرج بين سوء الأوضاع من جهة والوعي الجماهيري من طرف مقابل. وهناك ثلاثة مستويات يمكن أن يتشكّل وفقها (الإنسان الاجتماعي)، ففي الأول يبرز إنسان مستلب الإرادة، والثاني محرر الإرادة والثالث إيجابي الإرادة. فأما الأول، فممسوخ الآدمية أقرب إلى القردة والخنازير يفعل ما يوحى إليه في مجتمع متدني الفعالية يعبد سادته وكبراءه، ويعيش حالة وثنية سياسية بأصنام وصور مشرعة. وهو ما شبهناه بشكل القلم أو البوق أو البندقية، فلا يرد القلم ما تخطه اليد من الموافقة بنعم، أو بوق يردد رجيع الصوت بدون مناقشة، أو يقوم بالجريمة بأكبر حجم لأن الأوامر جاءت هكذا. إن إنسان ما بعد الموحدين مستعد أن يهدم الكعبة لو أمر بذلك. ولربما بكى وهو يفعلها. هذا النموذج الممسوخ يمثل الطبيعة في ظاهرة، (القصور الذاتي)، فالسقوط محتم لكل الأشياء باتجاه الأسفل. أما الصعود فيحتاج إلى طاقة، وهنا تفعل التربية فعلها فترتفع بالإنسان باتجاه المثل الأعلى. يقول (بن نبي): «وهنا لا نواجه تغيراً في النظام السياسي بل إن التغير يصيب الإنسان ذاته الذي فَقَد هِمّته المحضِّرة فأعجزه فقدها عن التمثل والإبداع». ويطرح عالم النفس البريطاني هادفيلد في كتابه «التحليل النفسي للخلق» هذا السؤال الحرج: ما هو المنبه المناسب لتنشيط الإرادة؟ ويجيب أن كل حاسة لها مثيراتها، وهكذا فالفوتونات تحرّض حاسة البصر، والذبذبات الصوتية تحرّض حاسة السمع، والجزئيات الكيمياوية تحرّض حاسة الشم. ولكن ما يحرّض حاسة الإرادة هو المثل الأعلى. ويرى المؤرخ البريطاني توينبي أن الإرادة الجماعية تحرّض عند بروز التحدي التاريخي في وجه جماعة اختارت العمل المشترك، وهو ما تفعله التربية بالقفز بالإرادة الإنسانية

إلى فرق جديد في الطاقة فتتحرر ويؤدي الأعمال في صورة مواطن واع مشارك مسؤول، فيفعل ما يراه صحيحاً ويمتنع عن المعصية. وهكذا يظهر إلى سطح المجتمع إنسان جديد (محرّر الإرادة) ليس عصا للضرب بكل يد، أو طبلاً جاهزاً للقرع بكل الأنغام والرقصات أو مسدساً جاهز الزناد لإعدام أقرب الناس إليه. إن القرآن قَرَن بين ثلاثة مظاهر للمسخ في اتجاه العبودية فذكر (القردة والخنازير وعبدة الطاغوت) ويظن البعض أن المسخ كان بيولوجياً، وهو ثقافي كما نرى. إن أول ما نزل من القرآن كان (سورة العلق) وهي أكدت ثلاثة معانٍ مفصلية: «الأول تأكيد الكرامة بالقراءة (إقرأ وربك الأكرم) من خلال تغيير محتوى الوعي بالمعلومة المكتوبة بالقلم ﴿علّم الإنسان ما لم يعلم﴾. والثاني معالجة أشدّ مشاكل المجتمع خبثاً واستعصاءً وهو الطغيان، إذ إنه قابلية مشكّلة في جبلة كل منا إذا مُنح السلطة بدون ضوابط. ونحن نعرف أن سلطة قليلة تعني فساداً قليلاً وسلطة مطلقة تعني فساداً مطلقاً. والثالث: وصفة بسيطة للتخلص من الطغيان وهو (عدم التعاون) ورفض الطاعة لأن الحساب في الآخرة فردي ويجب أن يفكر الإنسان باستقلال ويتصرف بإرادة وهو مسؤول عن أعماله ولو كانت مثقال ذرة من خردل. والاقتراب من الله في النهاية لا يتم بغير سجود فعلي ولا سجود إلا برفض الطاعة ﴿كلا لا تطعه واسجد واقترب﴾. في انتخابات أي بلد عربي لو جلس الناس بكل بساطة في بيوتهم ورفضوا النزول ما الذي سيحصل لهم؟! إن الناس لا تقرأ القرآن عما فعل فرعون بالجماهير ﴿واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ العقل معتقل وإن المثقف مقطوع اللسان. وإن مواطناً تقدم له بطاقة مخيّر فيها بين (نعم) و (لا) كحق دستوري ويشعر أنه مجبر على مخالفة ضميره لمواطن مسحور. إن السحر أعيد إحياؤه بعد موت هاروت وماروت بأربعة آلاف سنة. يقول مالك بن نبي عن (إنسان

ما بعد الموحدين) إن «نفسه المريضة تخلقت في جو يشيع فيه الإفلاس الخلقي والاجتماعي والفلسفي والسياسي». إن القرآن يبني فلسفته ليس على قتل الباطل، أو التآمر على النظام، ولا إشباع القلب بكراهية الحاكم أو محاولة اغتياله، فكلها اختلاطات مربكة لا تزيد المرض إلا سوءاً. ولا حل المشكلة إلا بالابتعاد عن كل حل. ونعود إلى فكرة النماذج، فالأول هو الإنسان العربي الحالي الذي طلّق إرادته ثلاثاً في بينونة كبرى (قد لبس حلة القاصرين) وهناك من يفكر عنه بالوكالة. والثاني هو من تحررت إرادته من العبودية فرفض الطاعة. أما الثالث فهو الذي يقول: قبل أن تهدموا الكعبة اقتلوني فلن أرى أو أسمع بما يحدث. إن الجيوش والشعوب العربية كلها تقاد إلى الكوارث من حطامها لأنها في حالة خدر لذيذ مغيبة الوعي عن التاريخ، خارج العصر يفعل بها الأوصياء ما يشاؤون. إن شحن الإرادة من السلبية المطلقة إلى الإيجابية المطلقة هو محصل تيار إلكتروني عارم من الإرادة يدفعها باتجاه المثل الأعلى كما يفعل الليزر بتجميع حزم الضوء باتجاه نقطة واحدة حارقة. يروي المؤرخ ديورانت أن كوبرنيكوس اكتحلت عيناه بكتابه عن الأجرام السماوية قبل موته بساعة. ويبقى السؤال لماذا كان اكتشاف كوبرنيكوس انقلابياً إلى هذا الحد وهو لا يزيد عن شرح (من يدور حول من؟) والجواب في ثلاث زوايا: زلزلة أشد الأمور وثوقاً. ويجب إعادة النظر في مفاصل أساسيات التفكير. وأن الإيمان يجب أن يحرر من الدوغمائية. فالإيمان هو تقليب النظر في السموات والأرض: آيات لأولي الألباب، وأن الكفر هو إغلاق منافذ الفهم وتكميم الأفواه عن التعبير، وأن الكافرين لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها. ويفيدنا هذا الأمر اليوم في إضاءة ثلاث حقائق: إن الشعوب هي التي تختار أصفادها فهي إلى الأذقان فهم مقمحون. وإن الحكام لا يزيدون عن كواكب

انفصلت من جرم الشمس فهي تدور حول الأمة، والحاكم على دين الأمة وليس العكس. وإن الكسوف الاجتماعي يتم عندما تكف إرادة الفرد عن التشكل فيبهت كل شعاع وتنضب كل طاقة ويدخل المجتمع ليل التاريخ. يقول بن نبي: «وطالما ظل مجتمعنا عاجزاً عن تصفية هذه الوراثة السلبية التي أسقطته منذ ستة قرون فإن سعيه إلى توازن جديد سيكون باطلاً عديم الجدوى». وما يحتاج له المجتمع بالدرجة الأولى هو العلوم الأخلاقية والنفسية، أما العلوم المادية فقد تكون على حد تعبيره: «خطراً في مجتمع ما زالوا يجهلون فيه حقيقة أنفسهم ومعرفة إنسان الحضارة أشق كثيراً من صنع محرك أو ترويض قرد على استخدام ربطة عنق».

٢

إرادة العبودية أو العبودية المختارة (في محاولة لفهم آلية الطغيان)

وصف المؤرخ سويتون جنازة القيصر في كتابه «حياة القياصرة الاثني عشر» على النحو التالي: «فلما أعلن عن موعد الجنازة نصبت المحرقة في ميدان مارس (إله الحرب) تجاه منصة الخطابة. ولما تبين أن اليوم كله لن يكفي لمرور الناس الذين اصطفوا حاملين قرابينهم صدر قرار بأن يحمل كل من شاء قرابينه إلى ميدان مارس. واكتفى القنصل أنطونيو مارك في رثائه بأن طلب إلى أحد المنادين أن يقرأ مرسوم مجلس الشيوخ الذي أسبغ على قيصر بالإجماع كل التشريعات الإلهية والإنسانية ولم يضف هو إلا كلمات قليلة. وكان البعض يرى حرقه في معبد جوبيتر والآخر في مجلس الشيوخ. وإذا برجلين تمنطق كلاهما بسيف وحمل بيده رمحاً يشعلان فيه النار فجأة بشموع موقدة. ولم يلبث جمهور المشيعين أن كدّس حوله الحطب والمقاعد ومنصات القضاة. بعدئذٍ خلع لاعبو المزامير والممثلون ثياب الاحتفال بالنصر، التي كانوا قد ارتدوها لهذه المناسبة وزجوا بها في

النار. إلى جانب هذه المظاهر العامة التي تجلّى فيها حزن الجمهور أدّت الجاليات الأجنبية مراسم الحداد كل جالية على حدة حسب طقوسها وبخاصة اليهود الذين ذهبوا إلى حد التجمع حول قبره ليالي متعددة. وبعد أن انتهت الجنازة شيّد له عمود من مرمر بلغ ارتفاعه عشرين قدماً ونقش عليه: «إلى أبي الوطن»(*). والسؤال المحيّر والملحّ الذي يطرح نفسه: كيف يقفز البشر إلى هذه المنزلة من القداسة في محياهم ومماتهم؟ وحتى نعرف معنى هذا الكلام ميدانياً فليتجرأ أحد الناس فيجرّب حظه علناً في شارع مكتظ بالناس فيقوم بالتعرّض لمقدّس ما ثم التعرّض لرئيس الجمهورية في بلد عربي... وليرَ في أي من الحالتين تكون قوى الأمن أسرع بإلقاء القبض عليه وإشباعه ضرباً بالسوق والأعناق، مما يفتح أعيننا على أن نستوعب أين دائرة المحرم والمقدّس فعلاً. كيف يضع فرد قبضته على رقبة شعب بأكمله فيرسم مصيره إلى حين؟ كيف تقع الشعوب في قفص العبودية وكيف تتحرر؟ كيف يتحوّل الإنسان (عملياً) إلى (إله) يملك أقدار الناس في أرزاقهم وتسريحهم من وظائفهم، في حريتهم واعتقالهم متى يشاء. في حياتهم فيدفعهم إلى الإعدام أو ساحات القتال في صورة قرابين بشرية أو سجنهم حتى الموت أو دفعهم إلى الهرب من البلد في موت من نوع جديد. كان تعبير النبي يوسف عليه السلام واضحاً أن فرعون هو عملياً رب العباد والبلاد ﴿ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ [يوسف: ٥٠] وبالمقابل فإن فرعون هتف بالناس ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨] وبالتالي فهو يملك القداسة والحقيقة الحقيقية النهائية المطلقة ﴿ما أريكم إلا ما أرى وما

(*) إتيين دي لابواسيه، **العبودية المختارة**، ترجمة مصطفى صفوان، حاشية ٣٨.

أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ [غافر: ٢٩]. ونحن اليوم نظن أن فرعون هو بيبي الثاني الذي عاش في الألف الثانية قبل الميلاد وليس كل من اتصف بصفاته، وبذلك نقرأ القرآن بأعين الموتى وعلى الموتى في مناسبة موت الرؤساء. إن إدراك قوانين التغيير الاجتماعي أهم بما لا يقارن من اكتشاف قوانين الفسيولوجيا أو أطلس المورثات والجينوم البشري. والمشكلة الخطيرة التي واجهها الأنبياء في التاريخ هي المشكلة الاجتماعية، ولعل أخطر مرض يواجه المجتمع هو في كيفية تنظيم نشاطه. في ١٨ آب/ أغسطس من عام ١٥٦٢م توفي شاب فرنسي هو (إتيين دي لابواسييه) عن عمر ٣٢ سنة بعد أن ترك خلفه كتاباً صغيراً بعنوان «العبودية المختارة» اختفى تحت لجة التاريخ، وكان صديقه الفليسوف (ميشيل مونتينييه) هو من انتبه إلى أهمية النص ولكنه لم يتمكن من نشره لأنه كما قال: «إن فيه حياكة أدق وألطف من أن تخرج إلى الجو الخشن الذي اتسم به ذلك العصر الفاسد». وفي عام ١٩٣٦م تمّ إعدام الشاعر الأندلسي (فيديريكو غارسيا لوركا) في ظروف غامضة في الحرب الأهلية الإسبانية. والسؤال كيف تحكم الآلة الاجتماعية على تصفية إنسان؟ من أصدر الأوامر؟ من نفذ واعتقل؟ من أطلق النار؟ وكيف يتم الإجهاز على الناس بهذه الآلة الاجتماعية من تسلسل الأوامر؟ وكيف يتحوّل البشر مع تتابع الهيراركية (التراتبية) إلى آلات صماء تنفذ أفظع الأشياء بأقل الأوامر وبكلمة واحدة: أعدموه!. إن كتاب (لابواسييه) يمثل فعلاً (سوبرنوفا) اجتماعية، فهذه الظاهرة الكوسمولوجية لها ما يشابهها في قوانين الاجتماع. وكما في الانفجار النجمي الهائل الذي يصل نوره على موجات الضوء تعبر الفضاءات الكونية فنبصرها على الأرض، هناك ما يشبه هذا في الظواهر الاجتماعية. وعندما تنقدح الأفكار بشرر كالقصر فإنها تعبر الفضاء الثقافي في زمن يطول ويقصر على نحو متغير حسب قدرة

الاستقبال عند المجتمعات، ويقدر الغور الثقافي الذي يفصل عن مكان انفجار الأفكار بمسافات عقلية وليست مكانية، فقد يولد تركي في ألمانيا ويعيش فيها ولا يعرف سوى مصنع الصلب الذي يشتغل في أفرانه، وقد يعيش إنسان في الأرجنتين بعيداً عنها بمسافة ألفي كيلومتر ويتذوّق الفلسفة الألمانية ويعرف متى دشنت ميكانيكا الكم. وهكذا فإن أفكار لابواسييه غطست عبر العصور لينشر النص الكامل عام ١٨٣٥م للمرة الأولى بعد ٢٧٣ سنة من وفاة صاحبها، ولكن هذا الانفجار المعرفي لم يصل إلى فضاء الثقافة العربية إلا بعد أربعة قرون ونصف مع نهاية القرن العشرين على نحو باهت لا يكاد يرى بفعل كثافة قشرة الثقافة العربية ومناعتها ضد التغيير وغيابها عن الحضور العالمي. وهو كتاب لم يلاق الرواج حتى الآن ولم ينتبه إليه إلا الآحاد. يتعجب لابواسييه من سقوط البشر في أصفاد العبودية وكيف يخضعون لجبروت شخص واحد يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون: «فلست أبتغي شيئاً إلا أن أفهم كيف أمكن لهذا العدد من الناس من البلدان من الأمم أن يحتملوا أحياناً طاغية واحداً لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه ولا من القدرة على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه. إنه لأمر جلل حقاً وأدعى إلى الألم منه إلى العجب أن ترى الملايين يخدمون في بؤس وقد غلّت أعناقهم دون أن ترغمهم على ذلك قوة أكبر بل هم فيما يبدو قد سحرهم». نعم إنه السحر الجديد. عندما أراد البعض تعريف السحر قالوا إنه الشيء على غير حقيقته، وعندما وصف القرآن عمل السحرة ذكر تصورات موسى عليه السلام ﴿يُخيَّل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ [طه: ٦٦]. فهذا التخيّل لشيء ليس له أرضية يتم من خلال اغتيال العقل بطريقة خفية ومدروسة. إن الإسلام أراد تحرير الإنسان من فكرة المعجزة وامتيازات الأشخاص جميعاً في أي خانة كانوا، من عائلة أو حزب أو طبقة أو طائفة أو

جنس، وعمد إلى كسر احتكار الكهان والسحرة والعرافين لإخراج نموذج جديد للإنسان والمجتمع. إنسان محرّر بعقل غير معتقل. ومجتمع توحيدي متجانس بدون طبقات وامتيازات. إن الدين جاء لمعالجة أعقد مشكلة إنسانية وهي تحريره من الوثنية، ولذا فإن موضوعه الجوهري يتصل بأكثر مشاكل المجتمع إلحاحاً، وإن الشرك الذي لا يغفر ولا تنفع معه طاعة، وإن التوحيد الذي لا تضر معه معصية هو في إعلان كلمة السواء في المجتمع فلا يستقل أناس بامتيازات، أو يمسخ المجتمع بانقلابه إلى آلهة وعبيد و(مستكبرين ومستضعفين). هذه القضية أرقت الفلاسفة والمفكرين والسياسيين. وفي المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي طرح خروتشوف هذا السؤال المحوري: كيف أمكن لفرد واحد مثل ستالين أن يتحكّم بمصير أمة؟ كيف أرسل للموت مئات الآلاف ولم يقتل واحداً بيده؟ إن كارثة الحكم الفردي وسيطرة النخب والعائلات والأنظمة الشمولية عرضها (الكتاب الأسود) للكاتب الفرنسي ستيفان كورتوا (Stephane Courtous) الذي صدر في فرنسا وكيف أن مائتي مليون إنسان أصبحوا ضيوفاً على الأبدية على يد حكم الطغاة. ومن هنا فإن قضية الشرك والتوحيد هي لبّ القضايا الاجتماعية التي يغفر كل ما عداها ولا يغفر ذنبها، فهي أهم مشكلة تواجه البشرية على الإطلاق وبدون حلها تأسن كل الحياة، فالتوحيد هو أوكسجين الحياة. واليوم يعيش الجنس البشري في صورة وثنية جديدة بطبقة امتيازات تضم أصناماً تحت (هبل) العالم. أميركا بقرار الفيتو في صورة شرك أكبر يعيق ولادة العدل، ومن الطاغوت الأكبر يأخذ بقية طواغيت العالم الصغار شرعيتهم. وأمام العالم ولادة جديدة باتجاه التوحيد ليس بإضافة أصنام جديدة مصنوعة في فرانكفورت وطوكيو بتوسيع مجلس اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، بل بتحطيم نادي الفيتو كله وإلغاء

هذا الشرك العالمي كله جملة وتفصيلاً، والعودة إلى التوحيد الذي هو خير وأبقى، بإيجاد عالم جديد متجانس يقوم على (كلمة السواء) محرر من علاقات القوة، كما وجه تلك الدعوة رسول الإسلام (ص) إلى هرقل. ولكن من العجيب أن مثقفي الحداثة من الغرب والشرق كلهم صم بكم عمي عن هذه الوثنية فهم لا يعقلون.

٣

الطبيعة البشرية والطغيان

لا يوثق بالإنسان لأن في جبلته الاستعداد للطغيان مع كل امتلاك ما لم توجد ضوابط ومراقبة، ولا يعول عليه لأنه خلق هلوعاً جزوعاً منوعاً. وبقدر التعطش للسلطة بقدر الفراغ والنقص الداخلي عنده، والسلطة بدون مراقبة ومحاسبة تفسد، وقليل من السلطة تعني قليلاً من الفساد، وسلطة مطلقة تعني فساداً مطلقاً وإن الإنسان لظلوم كفار. هذه الحقيقة اهتدى لها (إتيين دي لا براسيبه ١٥٣٠ ـ ١٥٦٢م) قبل ٤٤٠ سنة في علم الاجتماع والفلسفة السياسية. فاعتبر أنه «البؤس ما بعده بؤس أن يخضع المرء لسيد واحد يستحل الوثوق بطيبته ما دام السوء في مقدوره متى أراد. فإن تعدد الأسياد تعدد البؤس بقدر ما نملك منهم». والقرآن يضرب المثل في هذا بين رجلين أحدهما ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً﴾ [الزمر: ٢٩] وهذه الحقيقة موجودة في علم الفيزياء كما هي في علم الاجتماع، فإذا ضغط الغاز تحوّلت

الكمية الهائلة منه إلى قطرات من سائل، وإذا سمح لجزيئات بسيطة من عطر أن تخرج من عنق زجاجة فعلت كما فعل جنّي المصباح فانتشرت في جنبات الغرفة جميعاً مهما كانت الصالة رحبة. وكذلك في امتلاك مفاتيح القوة الاجتماعية، فأي شخص منا يجلس في داخله الفرعون (رمسيس الثاني) الذي حكم تسعين سنة وقتل من الناس ما لا يحصيه عدد، وتزوج عشرات النساء وأنجب أكثر من مائة طفل، وزوّر أسماء الفراعنة الذين سبقوه فمسح أسماءهم وكتب اسمه على النصب والتماثيل. وما يضبطنا هو قانون انتشار الغازات نفسه، فكلما أفسح في المجال أمامها انتشرت، وكذلك في وضع اليد على السلطان، ويمكن لأي فرّاش أو خادم في أي دائرة أن يتحوّل إلى فرعون بشرط واحد: امتلاكه مفاتيح القوة بدون كوابح، ويمكن لأي مدير في أي دائرة أن ينقلب إلى طاغية يذيق الموظفين أشد البلاء والعنت بشرط واحد هو امتلاكه مفاتيح القوة بدون مراقبة ومحاسبة. ويمكن لأي شرطي أن يصبح ديكتاتوراً، وكل ما يحتاج له هو وضع يده على السلاح والجيش. ولا يمنح الإنسانَ الاعتدالَ والمجتمع العدل إلا (المعارضةُ)، ولذا كانت المعارضة شرطاً للاتزان. وهذا المرض أي تحول البشر إلى صنفين: آلهة وعبيد، أو بتعبير القرآن مستكبرين ومستضعفين، هو اختلال في رافعة القوة في المجتمع، ويمكن أن يتسرّب هذا المرض بجراثيمه الفكرية إلى كل طبقات المجتمع ومستوياته حتى في علاقة الرجل بعائلته، فيعامل امرأته كعبدة وأولاده كرقيق، ولا يمكن لأحد أن يعترض عليه فكلماته لا معقب لها وإذا أراد بهم سوءاً فلا رادّ له وما لهم من دونه من والٍ. من هنا كانت المعارضة أساسية لإرساء العدل الاجتماعي، وهي تهب الصحة النفسية لكل الأطراف، وهي ضرورية للأمة وتصب في مصلحة الحاكم وتحافظ على الكل، ولم يكن غريباً أن أفرد القرآن سورة كاملة باسم (المؤمن). إنها رواية عن

رجل رفض السكوت على الجريمة وكان في الظل يكتم إيمانه في أجواء مشبعة بالرعب ورجال الأمن والجواسيس، فشعر أن الأمان ليس في الصمت بل بالجهر والإعلان في اللحظة المناسبة فقال: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾ [غافر: ٢٨]؟ في هذه الرواية يبرز معنى الحكمة: ليست أن يتسربل صاحبها بقميص (السرية) ليقوم بانقلاب ناجح يطيح الحاكم في ساعة الصفر، بل النطق بالكلمة المسؤولة والصحيحة في الوقت المناسب ولو كانت مكلفة، وهي ستخرج في النهاية بضريبة أخف بكثير من الخرس الاجتماعي. والقرآن يسجل أن الله وقاه سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب، وخُسف بالمجتمع الفرعوني في ظلمات التاريخ. إن العدل مفهوم وجودي لأنه التوازن بين أطراف القوة، وهذا ينطبق على قوانين الميكانيك وتيارات النفس وحركة المجتمع. فالسيارة التي لا تملك فرامل (كوابح) تمشي باتجاه الحوادث، والنفس التي لا تنمي ملكة النقد الذاتي تصاب بالكبر، ولن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. والمجتمع الذي لا يوجد فيه معارضة ميت. وهو أقرب إلى عالم القبور حيث الأمن والسكون بدون أي حركة، وهل رأينا الأموات يقومون من قبورهم فيمارسوا نشاطاً سياسياً؟ إنهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون؟ تستقيم حركة السيارة بين (دعسة البنزين) و (الفرامل) وتعمل العضوية على ترشيد أي حركة من أي إصبع بتمرير أوامر الحركة بمنظمات خاصة في قاعدة الدماغ. وتعطلها أو عجزها يقود إلى مرض باركنسون فيمشي الإنسان مكباً على وجهه مترنحاً مهتز الأوصال. وتعيش الروح بصحة نفسية مع ممارسة النقد الذاتي، وتنضج النفس بدخول مرحلة (النفس اللوامة) بتشغيل آليات المراجعة بحيث تتحول إلى جهاز يعمل تلقائياً من عالم الوعي واللاوعي أكثر من صحوات غير منتظمة للضمير. وانتبه الغرب إلى مؤسسات المعارضة فاعتبرها قطعة

أساسية من جهاز الحكم، بحيث إن الحزب الذي يصل إلى الحكم يفرمل بحزب المعارضة، فيراقبه ويعارضه إذا أخطأ، ويعصيه في المعصية ويطيعه في الطاعة، ويكشف أخطاءه فلا تأخذه في الله لومة لائم. أما عندنا في العالم العربي فقد انقلبت النسب وانعكست الصورة. كمن يبني طرقات سريعة باتجاه واحد، أو سيارات بدون فرامل، وعقلاً بدون نقد، ونقلاً بدون عقل. لا غرابة إن رسا مصيرنا في أسفل سافلين في استعصاء خبيث للثقافة ومواصلة في خط الانحدار في رحلة موجعة نحو القاع. إن المفكر أحمد أمين انتبه مبكراً إلى هذه الظاهرة القاتلة في مسيرة الحضارة الإسلامية عندما انفرد بالساحة الفكر الوثوقي الدغمائي النصوصي، مما يذكّر بظاهرة الكتبة والفريسيين التي واجهت المسيح عليه السلام في المجتمع اليهودي، وتمنى بقاء الخطين معاً يعدل كلٌّ الآخر، وأن لا ينفرد بالساحة حزب المحافظين على الحزب التحرري العقلاني. والمسلمون يظنون أنهم استثناء للقانون والله يقول فلم يعذبكم بذنوبكم؟ ولذا فإنهم لا يستفيدون من كنوز القرآن لأنهم يشعرون أن الحديث عن الآباء هو عن آباء قريش وليس آباءهم. عندها استقرّ الأمر للعقل الكسيح وطحن التيار العقلاني من المعتزلة وسواهم بحيث إنه للتشكيك بعقيدة أي إنسان حتى اليوم يكفي أن تنتسب لهذا الخط الفكري. وهكذا فالمعتزلة والاتجاه العقلاني في خانات التفكير تمت هرطقتهم وتحطيمهم وإفناء كل تراثهم العقلي من نوعية العقل الجبار (النظّام) وبقي في الساحة عقلاً بدون مراجعة، ونقلاً بدون عقل، وسيارات تمشي بدون فرامل، وهذا هو الأساس للاستبداد السياسي، لأنها نسخة من الاستبداد الفكري، ولأنها الوجه الثاني لعملة عدم التفكير. وتوقف المراجعة وممارسة النقد الذاتي وكسر قيود التقليد والانعتاق من أفكار الآباء، ومحاولة التحرر إلى فضاء التفكير الرحب والإبداع بدون خوف ومساءلة. إن

الغرب بنى سيارات تمشي بتوازن بين طاقة البنزين وعزم الكوابح، وقبل ذلك أنتج عقلاً يطرح الأسئلة بدون خوف، مغرماً بالمعرفة وارتياد المجهول وكسر المسلمات، وأقام مؤسسات سياسية لا عوج فيها ولا أمتا، في توازن بين محافظين وعمال، بعد أن حطم سلطان الجبت والطاغوت الممثلة في الكنيسة والإقطاع، وبذلك ولد مجتمع أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف محرَّر إلى حد كبير من علاقات الاستضعاف والاستكبار. أما نحن في العالم العربي فقد كتب علينا أن نعيش في قرية يلبس أهلها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. الإنسان العربي خائف من المستقبل. يرجف من المخابرات، لا يأمن السلطة. وإذا أوقفه الشرطي يسأله عن رخصة السير خفق قلبه وعلت وجهه صفرة. كل هذا بسبب خلل رافعة القوة في المجتمع وتحوّله إلى مستكبرين ومستضعفين. وكل هذا الاستبداد السياسي خلفه الاستبداد العقلي، ولا حرية سياسية بدون حرية عقلية وبدون حدود. أما نحن فنريد عقلاً محدداً بالمسطرة من عيار النانوغرام، يمشي بأجزاء من المللمتر في مقاسات مجهرية، محدد الأبعاد الفراغية، فهناك سقف للتفكير، وأمام القفز حواجز لا نهاية لها تمنع أي حصان رشيق من تخطيها. فهذه هي أم المصائب! ويبقى السؤال هل إلى خروج من سبيل؟ كيف نكسر أغلال العقل ونحرره من أصفاده؟ تروي القصة أن رجلاً طلب من النجار أن يصنع له باباً ثم جاءه في يوم وكان النجار غائباً فحمل الباب وانطلق به. ولما عاد النجار فلم يجد الباب ركض خلف الرجل فوجده يمشي به خارج البلدة. فما كان منه إلا أن بدأ يقرع الباب قائلاً: افتح الباب، أقول لك افتح.. والسارق يُحكم إغلاق الباب وكل الفلاة مفتوحة بينهما. فهل يمكن مقارنة هذه المشاكل مع مواجهة عقولنا للمشاكل؟

عبادة الذات الفانية

في ٢٥ شباط/فبراير ١٩٥٦م في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي استهل خروتشوف خطابه بهذه الفقرة: «إنه من غير الجائز ومن الغريب عن روح الماركسية اللينينية أن ترفع شخصاً واحداً وتحوله إلى سوبرمان يملك صفات غير طبيعية مماثلة لصفات إله يعرف كل شيء، ويرى كل شيء، ويستطيع أن يصنع كل شيء، ويفكر عن الجميع، ويكون معصوماً في سلوكه». وكان يعني ستالين الذي وُصف أنه كان يجمع في شخصه: «أنه أعظم فليولوجي، أعظم اقتصادي وأعظم مؤرخ، وهو قائد الإنسانية العبقري، وأعظم قائد عسكري في جميع الأزمنة والأمم، وهو قائد الطبقة العمالية في كل مكان، وقائد الإنسانية التقدمي، والزعيم المعصوم، وأكبر عبقرية عرفتها الإنسانية» في الوقت الذي كان يرسل إلى معسكرات الاعتقال سبعة ملايين إنسان ويقتل ما لا يقل عن نصف مليون. وفي عام ١٩٣٨م كان يعدم من نخبة المجتمع السوفياتي (الأدمغة)

في وجبة واحدة كل يوم ألف إنسان في موسكو، وتمت طباعة ما لا يقل عن ٦٠٠ كتاب عن قدسيته بين عامي ١٩٤٦م و ١٩٥٢م ووزع منها عشرون مليون نسخة. مما جعل المؤرخ الماركسي ميدفييف يقول إن ستالين «عمل على خلق دين اشتراكي. أما إله ذلك الدين الجديد الكلي القدرة الكلي المعرفة الكلي القداسة فكان ستالين نفسه». وينقل نديم البيطار في (كتابه من التجزئة إلى الوحدة) عن كتاب (دع التاريخ يحكم) لمؤلفه كوالاكوفسكي أنه: «ليس هناك بين طغاة الماضي ومستبدّيه من اضطهد ودمر عدداً كهذا من مواطنيه». أما ماوتسي تونغ في الصين فينقل (البيطار) أنه قد حلّت صوره محل صور الآلهة القديمة وأعلن مجلس السوفيات البلدي في بكين: «في السابق عبدنا كوان لينج الذي قيل فيه إنه كلي القدرة. أين قدرته الآن؟ من يجب أن نعبد؟ يجب أن نعبد الرئيس ماو؟». أما الشعراء فقد وصفوه أنه لو كان في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر من المداد لعجزت عن كتابة آيات حسنه وكماله: «من الممكن استنزاف جميع كلمات المدح في العالم، ولكن هذه الكلمات لا تستطيع التعبير عن حكمتك وعظمتك، يمكن استنزاف جميع أناشيد العالم ولكن هذه الأناشيد لا تستطيع التعبير عن صفاتك ومنجزاتك الكبيرة». وتقريباً في كل بلد عربي نحظى بعبادة الأشخاص في صور شاهقة بألوان فاقعة تنفق عليها حكومات ونخب تمد يدها إلى آخر قرش من جيب مواطن مفلس، تطل عليك من الميادين بثالوث جديد من مركب الأقانيم الذي تورّط فيه الفكر الكنسي بدون نص واحد من الإنجيل. وجاء الإسلام لسحب كل مظاهر الألوهية من البشر وإعادتهم إلى خانة البشر الذين يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق ويموتون فلا يحظى أحد بالأبدية، ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين﴾ [الأنبياء: ٨]. ومنه حرّم الإسلام

الصور والأصنام وما أهلّ لغير الله به من التعظيم والشعارات والهتافات. ولكن كما يقول الفيلسوف محمد إقبال «تبدل في كل حال مناة... شاب بنو الدهر وهي فتاة». وهكذا نفخت الحياة في مفاصل اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، مما يجعل أبا لهب مستريح العظام في قبره، ودخلنا عصر الوثنية السياسية بكل قوة، وطلّقنا التوحيد ثلاثاً لا رجعة فيها. يذكر الكاتب والصحفي الألماني بيتر شول لاتور أنه زار بلداً عربياً في وقت اشتدت فيه الاضطرابات فطالعته في الساحة العامة صورة الرئيس بحجم هائل تطل من علياء.. قال: أدركت يومها لماذا حرّم الإسلام الصور. أما نحن فلا نصل إلى هذا الفهم ولو جاءتنا كل آية. نحن نحرّم صور الهوية وذكريات الجامعة ومناسبات الخطبة في فهم سقيم لآلية عمل النصوص. نحن حرّمنا الموسيقى والغناء مطلقاً بدون نص واحد من القرآن والسنة ولم نستوعب أنه تعبير عن وضع الحضارة تألقاً أو تفسخاً. نحن نشترط (المحرَم) ولو كان فيه كل العنت والإرهاق ولا نفهمه ضمن آلية (الأمن) وأننا يجب أن نخاف في وسط مغلق متشدد على الصبي قبل المرأة ولو في خطوات إلى المدرسة مقابل الأمن للمرأة بسفر عشرة آلاف كيلومتر إلى كندا، وأن الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدماً حيث دارت. وكتب ابن رشد بحثاً جميلاً للاقتراب من فهم هذا (الميكانيزم) في «فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال»، واعتبر ابن قيم الجوزية أن الحرام ما كان كله أو معظمه ضاراً، والله يحلّ الطيبات ويحرّم الخبائث، ولكن عقولنا القاصرة قد ترى في بلد ما أن تعليق صورة مسؤول حرام ولكن لا حرج من امتلاء جدار بارتفاع عشرة أمتار بكل عبارات التمجيد له، أما العبارات المأثورة من كلامه السقيم فهي أهم من وضع لوحات تعيين المسافات والاتجاهات على الطرق العامة. إن هذه العلة القاتلة في الثقافة قضت في ضربة ماحقة على كل التطور

الفني في التاريخ الإسلامي من أدب ومسرح وسينما وموسيقى ونحت وتصوير ورسم.

مع هذا فإن التوصيف قد يفرغ شحنة محبوسة في الصدر ولكنه لا يخبر إلا عن مدى ارتفاع درجة حرارة المريض وأنه يهذي. نعم إن الجماهير العربية تهذي مثل المحموم. لنتصوّر أن مظاهرة خرجت في مدينة فرانكفورت في ألمانيا تضم السيد (ستيفان شبين) من وكالة بيع سيارات المرسيدس والسيدة (فراو كوب) مديرة فرع فويتشي بنك و(الهر هانس) من مصنع (تيسين) للصلب والفولاذ والسيد (ستيفان كروزه) من مصلحة البريد، لنتصوّر أن تعليمات جاءتهم لترك أعمالهم هم وعشرات من أمثالهم لينزلوا إلى الشارع ليهتفوا للرئيس الألماني (شرودر): بالروح بالدم نفديك يا شرودر!! ولنفترض المستحيل فافتراض الكفر لا يعني الكفر. ما الذي سيقوله الناس عن هذا النفر من الهتّافة؟ أتصور أنهم سيعتبرونهم رهطاً نجحوا في الهرب من مصح للأمراض العقلية قد ضلوا سبيلهم ويجب الاتصال بالبوليس لحجزهم فوراً وإيداعهم خلف القضبان حيث يجب أن يودعوا. نعم إن الوطن العربي اليوم مصح كبير للأمراض العقلية. أو كما في تعبير الصادق النيهوم في كتابه (محنة ثقافة مزورة): «غياب الديموقراطية لا يجعل الناس مجانين بل يجعلهم يفقدون عقلهم الجمالي، وهي محنة لا تختلف عملياً عن محنة الجنون نفسه إلا في نقطتين: الأولى أن أوجاع المصاب لا تكشفها أدوات التشخيص الطبي، والثانية أن علاجه يتطلب جراحة من دون تخدير. إن كل مواطن على حدة يبدو رجلاً عاقلاً في تمام وعيه وإدراكه ولكن الأمة ككل تبدو غائبة عن الوعي، ومصدر هذا التناقض بين وعي المواطن الفرد، وبين جهل الأمة مجتمعة أن العرب خسروا المناخ الحر ومعه خسروا العقل الجماعي وورطوا أنفسهم في ثقافة فردية لا

تعاني من غياب المواطنين الأذكياء بل من غياب وسيلة التفاهم بينهم في مجتمع شبه أخرس له صفات القطيع لا تجمعه أصلاً سوى إرادة الراعي وعصاه». إن ثقافة الفردية تعني أنه لا يوجد في القطر إلا شخص واحد وما عداه لا وجود له، وتشهد لهذا الصور المشرّعة بكل الأحجام والألوان؛ لأن الساحة لا تسمح بوجود إرادات متعددة بل هناك إرادة لشخص واحد لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب. إنه كائن شكله بشري من صلصال من فخار ولسانه من مارج من نار وقضاؤه لا يردّ وعطاؤه بغير حساب. ومن حوله كهنة يطلقون البخور ورجال أمن يسبّحون بحمده بالليل والنهار وهم لا يسأمون. وعندما يزور زعيم عربي بلداً مثل الصين فإن التلفزيون يسلّط الضوء عليه فقط، فلا وجود لمليار صيني، ولا يرينا إلا أنفه الكريم وسحنته البهية. وهذا المنظر يتكرر في كل قطر كأن الكون ليس فيه إلا زعيمهم المفدى مما يوحي بمرض عربي مشترك. صدق الصوفي القائل إن حصيرة تتسع لعشرة دراويش ولكن كل الأرض لا تتسع لملكين. ويطرح السؤال نفسه: لماذا تتورط الشعوب في الوثنية؟ وكيف يستطيع شخص فانٍ أن يزعم الأبدية فينتزع لنفسه صفة إلهية؟ وكيف تركع الشعوب وتستسلم لمثل هذا الوهم وتصدّق هذا السحر؟ ولماذا تحديداً امتاز الشعب العربي بهذا الكرب الأعظم على نحو واضح بين شعوب المعمورة؟ إنه تشخيص لمرض خطر يسكت عنه مثقف الجامعة والجامع ويتم زحزحة مسألة التوحيد إلى معارك دون كيشوت في مسائل لاهوتية لا علاقة لها بحياة الناس تحدثهم عن فردوس أخروي وهم غارقون في جحيم أرضي إلى قراريط الآذان. علينا أن نحلل هذه الظاهرة الخبيثة في عدة مستويات بدءاً بالبيولوجيا وانتهاء بالحضارة. في علم النفس تمرض الروح بالنرجسية وتصاب بعقدة (الكمال)، وكل انتفاخ بيولوجي علامة مرضية، فانتفاخ العينين الصباحي مؤشر على

قصور كلوي، وانتفاخ القدمين قد يعني قصوراً في القلب أو تشمّعاً كبدياً. والانتفاخ بالعنجهية القبلية مرض، ولو ادّعى الشاعر أن الرضيع عندهم إذا فطم تخرّ له الجبابرة ساجدين فهو يكذب مرتين. والشوفينية في القومية مرض قاتل، والذي حجز اليهود في مربع الغيتو هو اعتبار أنفسهم شعب الله المختار في انتفاخ أحمق. وشعار «ألمانيا فوق الجميع» كلّف الشعب الألماني ستة ملايين شاب قضوا نحبهم في ساحات القتال، وكلّف العالم خمسين مليوناً من البشر حلّوا ضيوفاً على الأبدية. وفي السياسة ينفخ الكهنة في ألوهية الحاكم فيوحي له مَن حوله زخرف القول غروراً أنه جمع بين حُسن يوسف وعقل أرسطو وحكمة لقمان وسلطان قورش وعظمة الإسكندر، وأنه سيحكم أبد الدهر! ولكن الطبيعة تعمل على طريقتها الخاصة فتمتد له يد الموت القاهرة وتأتيه رسل الموت يتوفونهم وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين. ويذهب المؤرخ البريطاني توينبي في كتابه «دراسة التاريخ/Study of History» إلى أن انهيار الحضارات يتم بآلية (الإخفاق في تقرير المصير): «وهذا الافتتان في خطيئة عبادة الأوثان التي تعرف بأنها تكريس العبادة للمخلوق عوضاً عن تكريسها للخالق، قد تأخذ شكل عبادة عابد الوثن ذاته، أو عبادة مجتمع في مرحلة فانية يجتازها صوب تحدٍّ جديد إبان تحركه الدائم القائم على التحدي والاستجابة، وهذه الحركة هي جوهر البقاء على قيد الحياة... وبالحري فإن العابد الذي يرتكب جريمة معاملة نفس ميتة، لا كمعبر ولكن كمنصة شرف، يبعد نفسه عن الحياة».

أما دين كايث سمنتون في كتابه حول «العبقرية والإبداع والقيادة» فيرى أن فترات العنف السياسي تخضع (لقانون الاستقطاب) أي أن

الأغلبية الساحقة من السكان: «لا تتسم في الأوقات العادية بالشر الواضح أو الفضيلة البيّنة ولا يهمها أمر المجتمع كثيراً ولا تعمل ضده بشكل متطرّف ولا تتميز بالتدين الملحوظ» والذي يحدث أن التفتت السياسي يقود إلى بروز قطبين متعارضين فتفرز المرحلة عدداً أكبر من الخطأة والقديسين وتميل الأغلبية المتوازنة إلى (الاضمحلال لصالح فرق شقاقية مستقطبة). وإذا أضفنا إلى هذا عدم بروز عبقريات في مثل هذه الأجواء من التشرذم فقد يصلح تعليلاً لنباتات طفيلية من الطغاة أن تعمر أوطاناً في مرحلة تفسخ حضارية.

أما الفيلسوف البريطاني برتراند راسل فقد حلّل في كتابه «السلطان» مشكلة (القادة والأتباع) واعتمد على كتاب عالم النفس آدلر «فهم الطبيعة البشرية» بأن التعليم الصارم هو الذي يفرز صنفين غير مرغوب بهما بين مطواع ومستبد من الناس. ويذهب راسل إلى أن التعليم الصارم: «يخلق الطراز الذليل المستعبَد من الناس بقدر ما يخلق الطراز المتغطرس المستبد، ذلك لأنه يؤدي إلى الشعور بأن العلاقة الوحيدة الممكنة بين مخلوقين من البشر يتعاونان هي تلك التي تكون في أن يصدر أحدهما الأوامر وأن يقوم الآخر بإطاعتها وتنفيذها». ولكن تلك الشخصيات التي تقفز إلى السلطة في فترات التفتت السياسي تفضي إلى كارثة: «والخطوة الأولى بعد الفوضى هي الطغيان، ذلك لأن هذا الطغيان يجد التسهيلات اللازمة متوافرة لديه عن طريق المؤثرات الآلية الغريزية للسيطرة والتبعية. والتعاون على قدم المساواة أكثر صعوبة من الطغيان وأقل اتساقاً مع الغريزة».

إن هناك علاقة بين الذات والوظيفة، وعندما تنقلب الأدوار يتحول الأمر إلى حديث مجانين، فعندما سئل مجنون لماذا بني الجسر، قال كي يمر النهر من تحته. وعندما سئل لماذا صنع الراديو؟ أجاب كي توضع البطاريات داخله. وفي السياسة ينجح الزعيم في تحدي مرحلة ثم يستسلم لعبادة الذات فيقعد في المرحلة التي وصلها وهو

لا يشعر فيكنسه التاريخ فيسقط ويكون له دوي عظيم. وفي الإنجيل «الكبرياء تسبق السقوط... وحرّم الله الجنة على المتكبرين».

يتعجّب إتيين دي لابواسييه في كتابه «العبودية المختارة» من سقوط البشر في أصفاد العبودية فيخضعون لبشر مثلهم يأكل مما يأكلون ويموت كما يموتون: «فلست أبتغي شيئاً إلا أن أفهم كيف أمكن لهذا العدد من الناس، من البلدان، من الأمم، أن يتحمّلوا طاغية واحداً لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه ولا من القدرة على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه... إنه لأمر جلل حقاً وأدعى إلى الألم منه إلى العجب أن ترى الملايين يخدمون في بؤس وقد غلت أعناقهم دون أن ترغمهم على ذلك قوة أكبر بل هم فيما يبدون قد سحرهم». نعم إنه السحر الجديد. إن الإسلام أراد تحرير الإنسان من فكرة المعجزة وتكسير الامتيازات جميعاً لأي شخص أو عائلة أو حزب أو طائفة أو طبقة أو جنس، وتحطيم سلطان الكهان والسحرة والعرافين بحيث لا يتميز أي إنسان بصفة فوق بشرية. ويبدع الفيلسوف محمد إقبال عند هذه النقطة في كتابه (تجديد التفكير الديني) إذ يعتبر أن كل هذه المعاني تتولد تلقائياً من فكرة (ختم النبوة). فالإسلام عندما ألغى النبوة للمستقبل باعتبار أن محمداً (ص) هو خاتم النبيين يحمل ولادة عصر العقل الاستدلالي: «إن النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها. وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يقاد منه. وإن الإنسان لكي يحصّل كمال معرفته بنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية وسائله هو. إن إبطال الإسلام للرهبنة ووراثة الملك ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية كل ذلك

صور مختلفة لفكرة انتهاء النبوة». وبقدر ما كرر القرآن معجزات الأنبياء السابقين بقدر ما أكد على عدم مجيء المعجزات على يدي محمد (ص) نرى هذا المعنى متناثراً في عشرات الآيات. إن محمداً لن يأتي بالمعجزات أي إلغاء العقل الأسطوري اللاسنني. ومن الغريب أن القرآن يمشي في اتجاه توليد ظاهرة العقل والعلم وبقدر ما استدبر العالم الإسلامي هذا التوجه فغطس في الخرافة وعشق اللاسننية واحتقار العالم. وخطورة هذا التوجه أنه وسط يفرخ فيه الاستبداد السياسي ويولد ثنائي متعانق من (الجبت والطاغوت) فبقدر الخرافة والجهالة بقدر عملقة الاستبداد السياسي، ولم يكن غريباً في كل الحضارات المريضة تعاون الكاهن والملك على تطويع الجماهير للعبودية بأن الملك هو من سلالة الإله أو فيه صفة إلهية كما واجه النمرود إبراهيم بقوله: أنا أحيي وأميت.

يروي (فنصة) في ذكرياته عن الحاكم العسكري السوري السابق حسني الزعيم، أن وفداً من أعيان دمشق وشيوخها طلبوا مقابلته لأمرٍ ساءهم فأرادوا مواجهته بالأمر. علم الطاغية بالأمر فرتّب خطة مع رئيس المكتب الثاني (الاستخبارات). عندما دخل عليه الوفد تظاهر أنه مشغول بحديث تلفوني هام وكانت قدماه فوق الطاولة في مواجهة الوفد. كان (الزعيم) يتكلم: «أنت رئيس المكتب الثاني وتسألني عن هذا الشخص؟ أنا آمرك أن تأخذه وتعدمه فوراً». ثم وضع السماعة والتفت إلى القوم الذين كانوا ينصتون بذعر لأوامر الإعدامات الفورية وقد ابيضّت وجوههم من الخوف مرحباً: أهلاً بكم لماذا جئتم لمقابلتي؟ أجابه الجميع فوراً بلسان واحد: جئنا فقط لتهنئتك والتشرف بمقابلتك. قال: حسناً، انصرفوا راشدين فقد بلّغتم الرسالة وأديتم الأمانة. وعندما انقشع جمهور الأعيان والشيوخ التفت إلى عديله (فنصة) وهو يضحك: أمة من هذه النوعية يناسبها حاكم مثلي.

٥

أقدم وأخطر مشكلة في تاريخ الجنس البشري (نظام الحكم)

لعل أقدم وأخطر مشكلة في تاريخ الجنس البشري هي (نظام الحكم). يقول الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»: «وتقرير شكل الحكومة هو أعظم وأقدم مشكلة في البشر وهو المعترك الأكبر لأفكار الباحثين»، ومن هنا تنوعت أشكال الحكومات وما زالت. وكما يرى الفيلسوف البريطاني برتراند راسل في كتابه «السلطان». فمنذ أرسطو وحتى فترة البرلمان الحالية تراوحت أشكال الحكم بدون القرار على شكل راسخ مما يوحي أن مشكلة نظام الحكم لم تحلّ جذرياً، وليست الديموقراطية الحالية التي يجري تطبيقها حالياً في الغرب هي الشكل المثالي ولكنها قد تكون أقلها سوءاً، وما زال الطريق أمامنا طويلاً من أجل إيجاد ذلك النظام السياسي الذي تتفتح فيه كل مواهب الإنسان في جو (اللاإكراه) وهذه الفكرة الأولى. وهذا الكلام لا ينطبق على العالم العربي الذي لم يشم بعد رائحة الديموقراطية وبينه وبينها سبعون خريفاً. يقول المثل إن الأعضاء تأتي

كل يوم صباحاً إلى الدماغ فتقول له اتّق الله فينا فإن أحسنت العمل أرحت وارتحت وإلا عانينا جميعاً. وأول درس يتعلمه طالب الطب في التشريح هو هذه الجملة: الدماغ هو الجملة العصبية المركزية الذي يعمل بمثابة الحكومة العالمة العاقلة المخلصة وبقية الجسم بمثابة الشعب المتفاني في الطاعة. وكانت الوظيفة الأولى للأنبياء اجتماعية في تحقيق العدل وكان أعداؤهم فوراً المترفين أصحاب المصالح والامتيازات المهددة أمام تحقيق العدل الاجتماعي.

يقول راسل عن مشكلة ترويض السلطان: «وظنّ الطاويون أنها مشكلة لا تحل فنصحوا بالفوضوية.. وجرب العالم الحكم العسكري المطلق والثيوقراطي والملكية الوراثية وحكم القلة والنظام الديموقراطي وحكم القديسين.. ويدل كل هذا على أن مشكلتنا لم تحل بعد».

تقوم الدولة على العنف واحتكاره، ولا شيء أوضح من عنف الدولة من الآلة العسكرية الجاهزة للضرب في أي لحظة فتجد الشرطي مسلحاً بمسدس محشو الطلقات، والقوات المسلحة مبرمجة، لقتل أي كان في أي لحظة، على الأوامر مثل أي آلة حديدية فاقدة الإرادة تعمل بضغط الأزرار، أو رجل الأمن وهو يلقي القبض على المواطن فيرفع رجليه (للفلق) كما يجري في أقبية الكثير من البلدان العربية لانتزاع الاعترافات. إن ميزة النظام العسكري الذي اخترعه الجنس البشري مع ظهور المدينة وولادة الحضارة أنه جهاز مستلب الإرادة فاقد التفكير مبرمج التوجه مثل ديناصور لاحم بدماغ ذبابة.

وهذا النوع هو (السلطان العاري) ويمكن للدولة أن تمارس ضغطها الساحق في صور شتى تماماً كما في علاقتنا بالحيوانات سواء بشد

المعزة بحبل، أو عندما يلحق الحمار الجزرة مقتنعاً أن مصلحته في أن يفعل ما نريد، أو الحيوانات التي تتقن (التمثيل) وسطاً بين هذين الصنفين كما في القرود وحيوانات السيرك، أو بصورة مغايرة كما في قطعان الأغنام عندما نريد حملها إلى البواخر فنجر الكبش بالقوة فلا تلبث حيوانات القطيع الأخرى أن تسير وراءه راضية مختارة.

وحسب (راسل) فإن حالة المعزة مع الحبل «تتمثل في سلطان الشرطة والقوات العسكرية. وتمثل حالة الحمار والجزرة سلطان الدعاية. وتظهر الحيوانات الممثلة قوة التعليم فتؤدي الجماهير التحية للقائد البطل. أما القطيع الذي يتبع قائده المقهور على إرادته فيتمثل في السياسات الحزبية عندما يكون زعيم الحزب أو قائده موثوقاً إلى زمرة من الناس».

ثلاث حقائق لا بد من تأسيسها: أنه لا يمكن لديكتاتور أن يركب على رقبة شعب واعٍ. وتشكيل الوعي هو بتكوين العقل النقدي. والعقل يحتاج إلى غذائه الخاص الصحي. فمن ملأ بيته بكتب السحر تحوّل إلى سحار، ولذا كان لا بد من وعي نوعي خاص. وهذا الوعي يجب أن يكون اجتماعياً بتعميق (الدراسات الإنسانية) فهي أهم من العلوم التطبيقية بما لا يقارن. وإن المرء ليأسف مرتين: أولاً: أن هذه العلوم لم تتطور بقدر العلوم الإنسانية، ويمكن اليوم لأرسطو وزينون لو بعثا أن يشتركا في مناقشة أعقد المسائل الفلسفية والسياسية في برلمانات الحكم وسيجدان أن الخميرة الفكرية التي وصلا إليها لم تتطور كثيراً عن أيام أثينا. أما العلوم التطبيقية مثل (الذرة) و(الكوسمولوجيا) و (البيولوجيا) فلسوف يجدون أنفسهم لا يفقهون فيها شيئاً. ستكون لهم أبحاث من نوع الكود الوراثي في الخلية أو معادلات الإلكترون والمادة السوداء أو مضاد المادة في

الفيزياء النووية، كما ستكون المفاجأة كبيرة لكل من أرسطو وهرقليطس أو ابن رشد عن الانفجار العظيم حيث إن الكون له بداية وليس خالداً أو قديماً كما كانوا يظنون! فهي فضاءات معرفية شق العلماء الطريق إليها خلافاً للدراسات الإنسانية التي لم تتطور كثيراً كما انتبه إلى ذلك (سكينر) مدرّس تحليل النفس السلوكي وأشار إليها في كتابه «ما وراء الحرية والكرامة Beyond Freedom and Dignity».

وثانياً: من المؤسف أيضاً أن تذهب خيرة الأدمغة من أبنائنا إلى فروع الطب والهندسة وما شابه. وأنا شخصياً كنت ضحية هذا التوجه عندما توجهت إلى الطب لإتقان فنه والتمكن من ناصيته على حساب استهلاك طاقتي وتجميدها لعشرات السنين. وهذا هو قدرنا نحن الذين نبت في العالم العربي فلا نحظى بمن يوجهنا لما يعود بالخير على المجتمع بما تحتاج له الأمة وما يتناسب مع مواهب وكفاءات الطالب. وهذا له بحثه الخاص. وعندما كانت ابنتي تدرس الصحافة في جامعة أوتاوا في كندا اقتربت منها فتاة كندية وتعجبت من الفتاة العربية لماذا لم تكن في فرع تطبيقي. فهناك في الغرب استشاريون للطلبة منذ أن يكونوا صغاراً. ونحن متروكة أمورنا للصدفة وعمل الطبيعة، يربّينا الشارع وتتخاطفنا التيارات. فلم يكن هناك من يقول لنا إن تنمية معارف الفلسفة أهم من العلوم التطبيقية، والجرّاح قد ينقذ إنساناً ولكن المفكّر يخلّص أمة وأن إبراهيم كان له أمة. وهذا ليس انتقاصاً من قيمة الجرّاح بل إبراز لأهمية العمل العقلي ويبقى الطب والجراحة مفيدين ومهمين في حدود الحاجة إليهما.

فهذه مسائل مهمة تحدث أيضاً عنها قبل قرن من الآن عبد الرحمن

الكواكبي قبل أن يقضي نحبه مسموماً في عمر ٥٤ عاماً. أليس من المحزن أن المسائل الضخمة التي تعرض لها الكواكبي ما زالت هي هي كما كتبها قبل قرن حينما اعتبر أن ترياق التخلص من الطغيان هو العلم، وعنى به تحديداً العلوم السياسية وتحديث الفكر والارتباط بالعصر، وكان هذا منه تشخيصاً مبكراً لمشكلة الفكر في العالم العربي. أليس من المحزن أن عملاقاً فكرياً من حجم ابن خلدون يكتشفه المؤرخ البريطاني (جون أرنولد توينبي) فيصفه بأنه أعظم عمل من نوعه أنتجه أي عقل في أي زمان أو مكان (It is the best work of its kind that is created by any mind in any time or place) أو كما يذكر الفيلسوف محمد إقبال في كتابه «تجديد التفكير الديني» أنه لم يقترب منه أوغسطينوس أو أوجست كومت في هذا التحليق العبقري عبر القرون ويتميز الكثير من أفكاره بالصمود حتى اليوم فهو الذي تحدث عن (آلية السوق) وهو الذي بحث (آلية الحكم) وأثر (العدل) في ديمومته، وقد بحث كل ذلك كقوانين اجتماعية. وهو الذي حدد عمر الدولة بثلاثة أجيال في ١٢٠ سنة وهو الذي تحدث عن (نظرية التطور) بدون أن يسميها. إن ما يغير الأمة هو (نظام الفكر) وهو الذي يخلّص الأمة من الاستبداد ويجب أن يكون من النوع الذي يولد (الوعي الاجتماعي). أليس من المؤسف ألا ينتشر فكر فيلسوف عملاق معاصر من حجم عبد الرحمن بدوي فيقضي الآن خريف عمره مهاجراً في غرفة في باريس بعيداً عن الوطن فريداً وحيداً بعد إنتاج ١٢٠ كتاباً فلسفياً يختصر فيها الرحلة العقلية للإنسان العربي.

يقول الكواكبي عن التعليم: «المستبد لا يخشى من علوم اللغة المقومة للسان.. وكذلك لا يخاف من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد

لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة، ولكن ترتعد فرائصه من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وسياسة المدينة والتاريخ المفصّل وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم... ويقال بالإجمال إن المستبد يخاف من العلوم التي توسع العقول وتعرّف الإنسان ما هو الإنسان وما هي حقوقه وهل هو مغبون وكيف الطلب وكيف النوال وكيف الحفظ؟... المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته لأن للعلم سلطاناً أرقى من كل سلطان ولذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم ذكي فإذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار المتملق، وعلى هذه القاعدة بنى (ابن خلدون) قوله (فاز المتملقون) وينتج من هذا أن بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة.. يسعى العلماء في نشر العلم ويجتهد المستبدون في إطفائه والطرفان يتجاذبان العوام. ومن هم العوام؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا وإذا خافوا استسلموا وهم الذين إذا علموا قالوا ومتى قالوا فعلوا. العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشيء عن الجهل فإذا ارتفع الجهل زال الخوف وانقلب الوضع». والطغاة يمسكون الشعوب بخيطان رفيعة من الخوف. وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون.

يشير الفيلسوف محمد إقبال إلى أن الكثير من تراثنا كتب في ظروف مشبوهة ويبقى القرآن هو الكتاب الوحيد الذي حفظ بدون عبث من تغيير رسمه، ولكنه مع هذا لم يسلم من ثلاث: توظيفه للسطان، وكتم حقائقه، وتفسيره الرديء. أو أن يشترى به ثمناً قليلاً. وهذا يفتح الطريق إلى الاستنفار لمحاولة إضاءته على نحو عصري بتطويع العلوم الحديثة لفهم حقائقه، كذلك نفهم لماذا استنفر علماؤنا أنفسهم سابقاً لغربلة الحديث فينتقي البخاري من نصف مليون حديث ألفين ويزيد، ويعلّم ابن حنبل ابنه خمسة

آلاف حديث شائع ليفاجئه لاحقاً أنها مكذوبة فيتعجب ويسأل فيقول له كي تعرفها فوراً إنها موضوعة فتحترز منها. وأما بقية التراث فكتب كله في ظل السلاطين وفي أجواء سياسية تقوم على الغدر وقنص السلطة الدموي المحموم. كان النص يلعن فرعون ولكن فرعون وجنوده كانوا في القصر يحرسهم جيش من المرتزقة في دولة ودّعت الخلافة وتحولت إلى نموذج بيزنطي. أمامنا اليوم كما نرى عمليتان في الجراحة الفكرية، الأولى: في غربلة التراث بالحفر الأركيولوجي المعرفي لاكتشاف ذاتنا الحقيقية بدون مكياج وقناع. والثانية: الاتصال بالعصر لنعرف إضافات المعرفة وكما يقول مالك بن نبي، كل من يدخل العصر ولا يدرك إضافات المعرفة الإنسانية لن ينجو من سخرية التاريخ.

٦

باسم الشعب

كل المظالم وقعت على الشعب باسم الشعب. وباسم الحرية ألغيت كل حرية تحت شعار كل الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب. وباسم الأمن أنشئت أجهزة الرعب. وباسم الثورة على الفساد قطع كل لسان ينتقد الفساد. إن هذا يروي غرامنا السقيم بالكلمات وأنها لا تزيد عن توابيت جوفاء تشحن أو تفرغ بالمعنى حسبما نهوى. وأنه تحت الشعارات تُغتال الحقائق (فيكسب القاموس كلمة ويخسر الواقع حقيقة) كما قال النيهوم. وإن الجمهور كما يقول الفيلسوف (كريكجورد) مارد هائل بقدمين من صلصال كالفخار. ويؤكد التاريخ هذه الحقيقة: فباسم الشعب اليهودي حكم (السنهدرين) على عيسى بن مريم بالصلب فرفعه الله إليه. وباسم الشعب الأثيني نفي أرسطو، أعظم دماغ في عصره إلى آسيا الوسطى. وباسم الشعب في بغداد حكم على الحلاج بضربه بألف سوط ثم قطع لسانه وأطرافه قطعة قطعة. وباسم القرآن حبكت

أعظم خديعة في تاريخ السياسة فرفع على رؤوس الرماح في حق يراد به باطل لينشيء معاوية ملكاً عضوداً. وباسم الشعب الفرنسي قطع على المقصلة رأس أفضل الناس (لافوازييه) أبي الكيمياء الحديثة و(كوندرسييه) الفيلسوف والرياضي المشهور ليقول لهم مجلس قيادة الثورة: «الثورة لا حاجة لها بالعلماء». وباسم المجمع اليهودي لعن فيلسوف التنوير (سبينوزا) بأن لا يقترب منه أحد مسافة أربعة أذرع. وباسم الشعب أرسل ستالين إلى العالم الأخروي ستة ملايين فلاح بالمسغبة و٣٥ ألفاً من ضباط الجيش الأحمر وقضى على رفاق الثورة فرداً فرداً انتهاءً بتروتسكي الذي لحقه إلى المكسيك باستئجار شقي ضربه ببلطة على رأسه فانفلق، بحيث حقق للبلد استقراراً رائعاً أشبه بعالم القبور. وفي العالم العربي وباسم الشعب تم ابتلاع الجيران وولادة ديناصورات الأجهزة الأمنية ورسوخ الاستبداد ونزيف الأدمغة مما جعل فيلسوفاً كبيراً مثل (عبد الرحمن بدوي) يسجل في سيرته الذاتية تحت عنوان «اليأس التام» ملاحظاته على الأوضاع (نذكرها بشيء من الاختصار والتصرّف): «يئست من كل شيء: حاكم طاغية وشعب مسلوب العقل والإرادة وطبقة متعلمة تتنافس في تملق الحكام. نعم قد يزول حاكم بعد وقت ربما يكون قصيراً لكن لن يتغير شيء كثير لأن داء الاستبداد قد تمكن من نظام الحكم فصار من العسير اقتلاعه. فحتى لو جاء حاكم جديد مستنير عادل فسرعان ما تلتف حوله حاشية من الانتهازيين كأعشاب العليق يضعون بينه وبين الحق والعدل الحواجز بعد الحواجز ويملأونه غروراً حتى يصدّق ما تقوله ألسنتهم الكذب. ومهما أوتي من صلابة الخلق فإنه عما قليل سيجرفه تيار الكذب بحيث يكون هو نفسه أول المصدقين. وتبقى الصحافة ووسائل الإعلام كفيلة بإفساد ما تبقّى وقلب المعاني رأساً على عقب فإذا خطب خطبة تافهة قالوا (خطاب تاريخي) وإذا هدر بأوامر لا معنى

لها صاحوا بصوت كهزيم الرعد (توجهات سامية) وإذا تعطّلت كل المرافق من مواصلات وتلفونات وكهرباء وماء وصرف صاحت الأبواق (رغم توجيهات) وكأن كل كلمة يقولها هي كن فلا بدّ للشيء أن يكون. أليس الحاكم بمثابة الإله الخالق؟»، لينتهي إلى قرار اتخذه الآلاف بعد أن تحوّل الوطن إلى معتقل كبير فقال إني مهاجر إلى ربي سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه. وهكذا ففي الوقت الذي تتدفق على إسرائيل العقول، نعاني نحن من نزيف الأدمغة، وحين تفيض عليها الأموال، تطير رؤوس الأموال من عندنا، في تقاطع متعاكس ونتيجة واحدة وكأنه عمل مبرمج وأمر دبر بليل. وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون. يرى (إتيين دي لا بواسييه) في كتابه «العبودية المختارة» الذي صدر قبل أربعة قرون ونصف (١٥٦٢م) أن الشعوب تسقط في قبضة الديكتاتورية بثلاث آليات: إما بالاجتياح الخارجي وهو بدوره تالٍ للتفسخ الداخلي، وإما بالولادة في ظلام العبودية فيستولي الإحساس على الناس أن طبيعة الحياة هكذا، وإما بالتحول التدريجي من الحرية إلى الرقّ كما يحصل في تدجين الحيوانات. فالخيل التي كانت تجمح براكبها تتحوّل مع الترويض إلى حصان يتباهى بسرجه واللجام. حيث إن العادة تجري مجرى قانون الطبيعة. ويضاف إلى ما ذكرنا عنصر مهم يلعب دوره في تخدير الوعي هو إيقاظ الغرائز والشهوات. وبتعبير الكواكبي: «وأما ملذاتهم فهي مقصورة على جعل بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسّرت وإلا فمزابل للنباتات ومنحصرة في استفراغهم الشهوة كأن أجسامهم خلقت دملاً على أديم الأرض وظيفتها توليد الصديد ودفعه». ويورد (لا بواسييه) قصة مثيرة عن كسرى مع (الليديين) حينما ثارت العاصمة (سارد) ضده فتفتق ذهنه عن حيلة رائعة بفتح (دور الدعارة والخمر والألعاب الجماهيرية) فكانت له من هذه الحيلة حامية أغنته إلى الأبد».

ويذكر المؤرخ الأميركي ديورانت في كتابه «قصة الحضارة» عن مظاهر سقوط روما أن الزعيم الوندالي (جيسريك) ذهل عندما افتتح قرطاجة المسيحية: «أنه لا يكاد يخلو ركن فيها من بيت للدعارة». وحينما نقرأ تاريخ روما نعلم أنها كانت مخدّرة على مدار السنة في ١٧٥ عيداً منها عشرة للمجادلين و٦٤ للوحوش وما بقي في الرقص والطرب في دور التمثيل، كما في المحطات الفضائية عندنا التي يشرف المطربون فيها على صناعة الثقافة حتى مطلع الفجر. وانتهز البرابرة فرصة انشغال الناس بهذه الألعاب فانقضّوا على قرطاجة وأنطاكية وترير (حين كان الأهلون منهمكين في مشاهدتها في المدرجات أو حلبات اقتتال الوحوش). بهذه الأدوات من (المسارح والمساخر والمشاهد والمصارعين والوحوش الغريبة والميداليات واللوحات) أو ما تفتق ذهن الطغاة الرومان عن (موائد العشرات) للرعاع الذين انحصر همهم في لذة الفم يتم (تخدير الشعوب) و(تخنيث الأمم)، حسب (لا بواسييه). وهكذا بمجموعة من (الأدوات) يتم استعباد الأمم بين (السوط والحلاوة) كما عبّر عن ذلك ضابط نازي قام بتدريب الاستخبارات في بلد عربي على ما ذكرته مجلة «شتيرن» الألمانية. فمن جهة يتم تركيع الأمة بالخوف بجرعة رعب عالية، بالإضافة إلى تصفية البلد وتفريغه من كل رجل ذي قيمة كما ذكرت ملكة سبأ ﴿وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة وكذلك يفعلون﴾ [النمل: ٣٤] وتسليط سفلة الناس والأوغاد على رقبة الأمة كما وصف الكواكبي «أن يكون أسفلهم طباعاً أعلاهم وظيفة وقرباً». ويتم ربط الأمة كلها إلى مقود العبودية بالنظام (السياسي) حيث يضم (معينّ خماسي) من الحاشية يحيط بالطاغية يوحون إليه زخرف القول غروراً، وقد يكونون تسعة كما في تعبير القرآن ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ [النمل: ٤٨]. وكل واحد من الحاشية له ذيل من مائة من الأتباع.

وكل واحد من الحلقة الجديدة له ذيل جديد من الأتباع يأتمرون بأمره وهكذا تتطاول السلسلة إلى ما لا نهاية. تقوم هذه الشبكة الجهنمية بتصفية البلد وتفريغه تدريجياً من الروح بكل وسيلة بما فيها القتل ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنّا لصادقون﴾ [النمل: ٤٩] وهذه هي الأدوات (الصلبة) الحادة لتقطيع الأمة. أما المواد (المذيبة) فهي إشغال الغوغاء بظاهرٍ من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون. وتبقى أقلية من المفكرين المشاغبين من (مقلقي النوم العام) يجب معالجة أمرها كما جاء في كتاب «الفاشوش في أحكام قراقوش» حيث خلّده الضمير الشعبي كنموذج للغرابة، ولكن (لابواسييه) يفاجئنا أن بلده مفرّغ من العلماء. وبهذه (الوصفة الثلاثية) يكتمل استقرار البلد مثل سكون المقابر. بين طبقة مثقفة مدجنة أو مهجّرة، وغوغاء ترضع الشهوات، ونخبة حاكمة تفعل ما تشاء، في ظلام حالك إذا أخرج يده لم يكد يراها. وإذا أطبق الظلام وأحكمت الديكتاتورية قبضتها فهل إلى خروج من سبيل؟ يروي المؤرخ البريطاني توينبي تحت قانون (الأقلية والأكثرية) أن الحضارات تبدأ بآلية التقليد من أكثرية تتهادى خلف أقلية مبدعة تقودها على أنغام مزمار الراعي. وتنهار الحضارات حينما تتحوّل الأقلية إلى عصابة مسيطرة تسوق الناس بسوط الإكراه. ويصف (لابواسييه) هذه القلة من الناس: «آجلاً أو عاجلاً يظهر أفراد ولدوا على استعداد أفضل يشعرون بوطأة الغل فيهزونه هزاً ولا يروضون أنفسهم على الخضوع ولم يكتفوا بما يفعل العامة بالنظر إلى موطىء أقدامهم. أولئك هم الذين استقامت أذهانهم بطبيعتها فزادوها بالدراسة والمعرفة تهذيباً. أولئك لو أن الحرية امّحت من وجه الأرض لتخيلوها وتذوقوها ولم يجدوا طعماً للعبودية مهما تبرقعت». إن الديكتاتورية شجرة خبيثة ترسم مصيرها منذ زرع بذرتها الأولى: أنها ليست للبقاء لأنها ضد

الحياة وهي تسقط في النهاية تحت ثقلها الخاص، اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار. إن التاريخ يخبرنا أن هناك دورة ليس عنها محيص، فكلما اشتد الظلام اقترب الفجر، وكلما ظهر الكمال على الطغيان كان إيذاناً بانبلاج الصبح، وعندما يكتمل القمر فإن معناه أنه سيصبح مثل العرجون القديم.

٧

المعرفة والسلطة

لا يمكن لأمة أن تُستعبد لولا استعدادها
على نحو خفي للعبودية

يطرح إتيين دي لابواسييه (١٥٣٠م ـ ١٥٦٢م) في مقالته عن (العبودية المختارة) هذا السؤال المحيّر: «شيء واحد لا أدري كيف تركت الطبيعة الناس بلا قوة على الرغبة فيه وهو (الحرية) التي هي الخير الأعظم وضياعها تتبعه النكبات وتترى، وما يبقى بعده تفسده العبودية وتفقده رونقه؟». لماذا تسقط الأمم في قبضة الديكتاتورية؟ وكيف تصاب مجتمعات شتى بهذا المرض الخبيث في التاريخ بحيث يشترك في توصيفه كل من الكواكبي ولابواسييه بأقبح النعوت، أما الأول فيصف الاستبداد في كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» أنه لو كان رجلاً وأراد التعريف بنفسه لقال: «أنا الشر وأبي الظلم وأمي الإساءة وأخي الغدر وأختي المسكنة

وعمي الضرر وخالي الذل وابني الفقر وابنتي البطالة ووطني الخراب وعشيرتي الجهالة». أما لابواسييه فيصف الديكتاتورية: «ما هذا يا ربي؟ كيف نسمي ذلك؟ أي رذيلة تعيسة أن نرى عدداً لا حصر لهم من الناس يحتملون السلب والنهب وضروب القسوة لا من عسكر أجنبي بل من واحد لا هو بهرقل ولا شمشمون. إن لكل رذيلة حداً تأبى طبيعتها تجاوزه. فأي مسخ من مسوخ الرذيلة هذه لا يستحق حتى اسم الجبن ولا يجد كلمة تكفي قبحه، والذي تنكر الطبيعة صنعه، وتأبى اللغة تسميته؟». نحن نعرف من علم البيولوجيا أن الكائنات تمرض كما تنهار الدول وتنقرض الحضارات فلا تسمع لهم ركزاً. ولكن ما هو المرض تحديداً وكيف يحدث؟ هل هو بسبب هجوم عنصر خارجي أم هو تعبير عن انهيار داخلي؟ هل هو أمر طبيعي أن تخسر الشعوب حريتها؟ يقول السياسيون إن الطغيان يحصل بـ (تسلط الفرد) على الأمة بسلاح الخوف، ولا يفسرون لنا كيف يمكن لبشر فرد أن ينجح في بناء آلة رعب بحجم ديناصور لاحم. ويرى المثقفون أن (القوة) هي التي تقرر مصير الأمة فلا يمكن (لعين أن تقاوم مخرز) ولا لعصفور أن يواجه مسدساً كما جاء في شعر القباني رحمه الله، ولكن القرآن الكريم يعكس هذا المفهوم فيلوم الضحية وليس الجلاد وينفرد بمصطلح (ظلم النفس)، فما يقع للناس هو بما (كسبت أيديهم) وما ربك بظلام للعبيد، ويلوم (المثقف) الذي يجب أن (يبينّ) الأفكار للناس ولا يقعد في جيب الحاكم، ويعتبر أن (الأفكار) هي التي تغيّر المجتمع وليس تغيير الحكام، لأن الطغيان سوف يستبدل بطغيان أشد، وعندما خسرنا الحياة الراشدة وحكمنا السيف تغيّرت سيوف كثيرة على رقابنا ولكن الحياة الراشدة لم تعد قط. ولا يفرخ مجتمع طاغية إلا بالاستعداد الخفي، ولا تخرج الدمامل إلا في جسم منهك بمرض السكر أو الإيدز. وبالمقابل فإن تغيير الواقع يتم بتغيير رصيد ما

بالنفوس وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، والأمراض الاجتماعية في النهاية تحملها (وحدات) من الأفكار كما حملت الأمراض (الوحدات) الإمراضية من جرثوم وفيروس. ولا يمكن لطفل أن يقود جملاً لولا أن الغلام يحمل من الوعي ما يفقده الجمل، ولا يمكن لأمة أن تُستعبد لولا استعدادها على نحو خفي للعبودية، ولا يمكن لديكتاتور أن يقعد على رقبة شعب واعٍ. ولا تحط النسور إلا على الجثث. فهذا مفتاح جوهري في فهم المشاكل. ويترتب عليه أمر هام وهو تحديد منطقة الحفر في طبقات آركيولوجيا المعرفة على حد تعبير (فوكو) الفيلسوف الفرنسي. الغصن يتهاوى إلى الأرض في فصل الخريف بتفسخ الارتباط مع الشجرة الأم، وينفجر المرض بانهيار الجهاز المناعي، وتمرض النفس بعبادة الذات الفانية، وتتداعى الدول بالتفكك الداخلي، ولم يظهر الخراج الصهيوني لولا المرض العربي، وتتلاشى الحضارات من صفحة التاريخ بالانتحار الداخلي كما ذهب إلى ذلك حجة التاريخ (توينبي) في كتابه «دراسة التاريخ/Study of History». وتعرّض (لابواسييه) في رسالته القيّمة عن كيفية السقوط في وهدة العبودية فأشار إلى أربعة أفكار رئيسية: «سلطان العادة» وكيف أنها تتحكم في السلوك على ثلاث مراحل، وكيفية (تغيّر محتويات النفس) مع الوقت وانقلاب الأوضاع لتصل إلى درجة من البؤس لا يصدّقها أكثر المتشائمين، فالفرس البري يجمح براكبه والمروّض يتباهى بسرجه ويفلسف بؤس العبودية. وأن (أصناف الطغاة) ثلاثة. وأخيراً إن المجتمعات تنساق إلى العبودية بثلاث طرق. فأما الطغاة فهم على أنواع: فمنهم من يمتلك الشعب عن طريق الانتخاب المزوّر، والبعض الآخر بقوة السلاح، والبعض الثالث بالوراثة المحصورة في سلالتهم. وعندما يريد المقارنة بينهم يرى بعض (الاختلاف) ولكنه لا يرى (اختياراً)

بينهم بسبب طرق الوصول إلى الحكم وأسلوبه: «فمن انتخبهم الشعب يعاملونه كأنه ثور يجب تذليله، والغزاة كأنه فريستهم، والوارثون كأنه قطيع من العبيد امتلكوه امتلاكاً طبيعياً»، أما الوقوع في قبضة العبودية فهي بدورها ذات ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب «فهو يقيناً لا ينساق إلى العبودية إلا عن أحد سبيلين: إما مكروهاً أو مخدوعاً» (مكرهاً) بسلاح أجنبي أو (طائفة) من مجتمعه. وأما (الخديعة) فكما حصل مع أهل صقلية عندما استبدلوا الرمضاء بالنار فرفعوا ديونيسيوس إلى سدة الحكم لإنقاذ البلد فتسمى: «باسم القائد ثم الملك ثم الملك المطلق» ثم ليأخذ اسم الطاغية في التاريخ (Tyran). وأما (تغيّر السلوك التدريجي) فمن نشأ في الاستعباد يشبه من اعتاد شرب السموم فلا يؤثّر فيه لدغ الثعابين، أو يشبه أهل المناطق الإسكندنافية العليا، فمن ولد في الظلام لأشهر طويلة يفاجأ بسطوع ضوء الشمس ويظن كما يحصل لحيوان (الخلد) أن الظلام هو أصل الأشياء، أو كما اعتادت الشعوب العربية على (الأحكام العرفية) فهي لا تعرف ما هي (الحالة الدستورية) وكل هامش خلاص ينفحه الحاكم بما فيها نفحة (الديموقراطية) تأخذها الشعوب أنها هبة تتصدّق بها يد عليا. وكما يقول مكيافيللي في كتابه (الأمير) أن على الحاكم أن يعطيهم (الرحمة) بالقطارة أما (العذاب) فيجب أن يصبّ من فوق رؤوسهم كالحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد، بمعنى أن الناس متى سقطت في فخ العبودية صعب عليها جداً الخلاص من شركه. قد يعرف الجيل الأول مرارته، أما من ولد فيه فالأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون، اعتادوا عليه يعتبرون أن نظم الحياة تمشي هكذا، كما في بطء ضربات القلب عند السلاحف أو برودة الماء عند السمك. كذلك ترى المجتمعات أن (الطغيان) هو

من طبيعة الأشياء. يقول لابواسييه: «لنقل إذن إن ما درج الإنسان عليه وتعوّده يجري عنده بمثابة الشيء الطبيعي ومنه كانت (العادة) أول أسباب العبودية كشأن الجياد الشوامس تعض الرسن بالنواجذ في البدء ثم تلهو به أخيراً وبعد أن كانت لا تكاد تستقر تحت السرج إذا هي الآن تتحلى برحالها وتركبها الخيلاء وهي تتبختر في دروزها تقول إنها كانت منذ البدء ملكاً لمالكها، وأن آباءها عاشت كذلك، وتظن أنها ملزمة باحتمال الجور، وتضرب الأمثلة لتقتنع بهذا الالتزام، وبمرور الزمن تدعم هي نفسها امتلاك طغاتها إياها». وهنا نفهم معنى الهجرة في الإسلام، ونفهم المغزى العميق من قصة أصحاب الكهف الذين هربوا إلى كهف بارد وضنّوا بكلبهم أن يبقى في مجتمع تبخرت منه الضمانات. والمجتمعات الوثنية لا تحمل أي ضمانة لأي إنسان أو حيوان أو شيء في أي زمان أو مكان. أو قصة موسى وهو يعبر ببني إسرائيل البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. إنها نفض اليد من وسط محنط ميت وإعلان ولادة مجتمع جديد. إن إبراهيم كان مشروع أمة، كذلك الحال في فتية الكهف، أو عبور بني إسرائيل إلى سيناء كي تكون مدفناً جماعياً لهم لجيل كامل خلال أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ فيخرج من أصلابهم جيل جديد لا يعرف إلا الصحراء والحرية. إن بني إسرائيل الذين خرجوا من أرض فرعون لا يصلحون لحمل رسالة موسى، بل لا بدّ من جيل جديد لا يعرف الطغيان، ولا يستطيع العيش في ظروف الديكتاتورية. يمكن اعتبار أن المجتمع العربي الإسلامي مصاب بعشرة أمراض: في رأس القائمة (تقديس الآباء) أو ما كرّره القرآن بتعبير: ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون﴾ [الزخرف: ٢٣]. بالإضافة إلى: (٢) تأليه القوة و(٣) احتقار العلم و(٤) تبرئة الذات واتهام الآخرين و(٥) إجازة الغدر

و(٦) ظن أن النص يغني عن الواقع أو مرض انفكاك النظرية عن الممارسة والتاريخ و(٧) الاهتمام بفضائل الجهاد بدون معرفة بشروطه وهو الخرّاج الذي فجّر كل مشاكل العنف في المجتمع العربي و(٨) رفض المسلمين للديموقراطية مع أنها أقرب إلى الرشد من كل ما عليه واقع المسلمين السياسي اليوم و(٩) تمكن العقل الخوارقي الأسطوري في حياتنا وانحسار العقل العلمي و(١٠) ظن أن الأحكام لا تتغير بتغيّر الأزمان أي كأن العدل لا يمكن أن ينمو أكثر فأكثر. ويتعلق المرض الأول أي (سلطان العادة) بهذه الحزمة من الأمراض كسبب أساسي في رسوخ شجرة الطغيان.

ويختصر لابواسييه الخلاص من الطغيان بوصفة بسيطة واضحة ليس قتله بل عدم طاعته: «اعقدوا العزم ألا تخدموا تصبحوا أحراراً فما أسألكم مصادمته بل محض الامتناع عن مساندته، فترونه كتمثال هائل سحبت قاعدته فهوى على الأرض بقوة وزنه وحدها وانكسر». ويتكلم القرآن بنفس المنطق عن جدلية الطغيان بتعبير الكلمة الطيبة والخبيثة؛ فيشبه الاثنتين بشجرتين، وعلى ما يبدو فإن هذا يصلح تفسيراً لماذا تكبر الشجرة الديكتاتورية فيصل سعفها إلى أعلى من شجرة نخلة باسقة طلعها كأنه رؤوس الشياطين، ولكنه نمو يحمل إمكانية سقوطها تحت ثقلها الخاص، فهي في النهاية تجتث من فوق الأرض ما لها من قرار، وبكل أسف فإن هذه الوصفة النبوية لم يستفد منها أحد لا الإسلاميون ولا غيرهم بل تبنّى الجميع مذهب الخوارج في قتل الحاكم بالسيف، أو مذهب الثورة الفرنسية في فصل رأس المستبد على مقصلة. تقول الرواية إن الطبع يغلب التطبع، ولكن مشرّع إسبرطة (ليكورج) أثبت عكس هذا بالتجربة حيث عمد إلى تربية كلبين خرجا من بطن واحدة جعل الأول يسمن في المطابخ والثاني يجري في الحقول، حتى إذا كبرا بما فيه الكفاية جاء بهما

إلى السوق ثم وضع أمامهما وعاء من الحساء بجانب أرنب وأطلق الكلبين فإذا أحدهما يلعق الوعاء كسولاً رخواً وأما الثاني فيضرب في البراري يلاحق الأرنب المذعور. قال (ليكورج) يعلق على المنظر المثير: ومع هذا فهما أخوان.

إن التربية قد تهبط بالإنسان إلى أسفل سافلين فتمسخ الإنسان إلى شكل القردة والخنازير، أو قد ترتفع به إلى أعلى عليين فتسجد له الملائكة أجمعون. وإن رصيد السلطة هو من الجهل أو المعرفة ولم يكن للشيطان سلطان على الناس إلا من اتّبعه من الغاوين.

٨

جدلية تطور المجتمع

في عام ٣٩٩ ق. م تجرّع سقراط سم الشوكران بزعم أنه يسمم أفكار الشباب فمات مسموماً من أجل أفكاره. أما المسيح فقد تآمر عليه الكتبة والفريسيون وكادوا أن يصلبوه لولا أن شُبّه لهم فرفعه إليه مطهراً من الذين كفروا. وأنهى سبارتاكوس حياته عام ٧٣ق.م. مصلوباً على خشبة على يد كراسوس القائد الروماني. وذبح الحجاج المفكر سعيد بن جبير من الوريد إلى الوريد وخاطبه وهو يشخب في دمه: «لأبدلنّك ناراً تتلظى... إن اسمك ليس سعيد بن جبير بل شقي بن كسير». وأنهى ابن تيمية حياته خلف قضبان سجن القلعة في دمشق. وفي عام ١٩٤٩م اغتيل حسن البنا مؤسس جماعة الأخوان المسلمين بالرصاص في شارع عام. أما أنطون سعادة مؤسس الحزب القومي السوري فقد انتهت حياته على حبل المشنقة إعداماً. أما رجال من نموذج أكرم الحوراني وميشيل عفلق ومؤسسي (الحزب الاشتراكي) و (حزب البعث) فقد أقفلوا ملف حياتهم في

المهجر مطاردين محكوماً عليهم بالإعدام. وبقي تقي الدين النبهاني مؤسس حزب التحرير الإسلامي متخفياً مطارداً مثل الشبح لآخر لحظة من حياته ولم نر له صورة شخصية. وختمت حياة الفيلسوف باقر الصدر صاحب مؤلفات «فلسفتنا» و«اقتصادنا» هو وأخته أم الهدى بعد تعذيب عدة أيام في أقبية المخابرات.. فهذه نماذج من مصائر أصحاب الأفكار الانقلابية.

قال حاكم من خط (طنجة ـ جاكرتا) لعائلته السيكولوجية من الأعوان في جلسة حميمة: يجب أن نعالج (مرض المعارضة) بوصفة ثلاثية مضمونة، فإما اشتريناهم بالمال ووضعنا تحت أقدامهم السيارات الفارهة والقصور المنيفة، وإما ورّطناهم بالسياسة فمنحناهم مقاعد وثيرة في ديكور سياسي فيه كل شيء إلا السياسة. وأما الذين يركبون رؤوسهم ويعاندون فلا يلينون فلهم السجن مكاناً ضيقاً مقرنين حتى تتعفن عظامهم فيه ساءت مستقراً ومقاماً. وبذلك ينضبط المجتمع ويعمّه السكون... نعم إنه سكون لا يفترق في شيء عن سكون المقابر والموتى يبعثهم الله.

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا يرفض المجتمع أمثال هؤلاء مع تميزهم وحاجة المجتمع لهم؟ والجواب على هذا السؤال يحتاج إلى تفكيك خاص. ولنبدأ بالبيولوجيا: في ٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٧م. نجح الجراح كريستيان برنارد من جنوب أفريقيا في زرع أول قلب للتاجر (لويس واش كانسكي) عاش بعد العملية ١٨ يوماً فقط وكان السبب ظاهرة الرفض. ولكن لماذا يرفض البدن عضواً نبيلاً في الوقت الذي لا يعيش بدونه مفضلاً الموت على الترحيب به؟ في الواقع إن الجسم يعمل بحكمة بالغة وفق قوانين مسيطرة، فإذا سمح بزرع كلية مكونة من مليون (نفرون) وجب عليه أن

يفتح مسامه لتقبّل أي خلية جديدة أو جرثوم مهلك، وهذا يعني القضاء على البدن وتدميره في ساعات؛ والموت بفيروسات الـ (إيبولا) لا يحتاج لأكثر من ساعات. فهو بهذا القانون الصارم من التعامل مع الوجود الخارجي عادل فيرفض جملةً وتفصيلاً كل غريب يدخل وسطه؛ فهو يقاوم الفيروسات الممرضة فيمزقها شرّ ممزق، ويضع حاجزاً أمام دخول أي جرثوم ممرض فيلتهب الجلد وتنتفخ العقد اللمفاوية قلاع المناعة، ويمتلىء الدم بفرق عاتية من كريات تستعمل السلاح الأبيض في المواجهة. كما يمتنع عن قبول أي عضو من قلب أو كلية ولو كانت حياته معلّقة بخفقة قلب غريب، أو نظافة دمه بكلية جديدة. والمجتمع يعمل بالآلية نفسها فيقول ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون﴾ [الزخرف: ٢٣].

ويصدق القانون نفسه على عالم الحيوان، فهي تنظر بعين الريبة إلى كل تغيير، وما زلت أتذكر أرنباً أبيض لطيف المعشر في العش حيث ربيتهم، عندما جرح فعمدت البقية إلى عزله بشراسة وضربه حتى، مات مذموماً مدحوراً. ويحدث الشيء نفسه في عالم الدجاج حتى، فإذا جرحت إحداها نقرها البقية في مكان الجرح حتى تموت. وتسارعت الأيدي بضرب ابن تيمية بالنعال على رأسه وهو في المنبر يخطب حتى طارت عمامته وأخذ للتعزير. وضرب الرسول (ص) بالحجارة من السفهاء في الطائف حتى أدموا عقبيه الشريفتين.

ويتعرّض علي الوردي في دراسته (للطبيعة البشرية) فيعتبر أن هذا التصرف عفوي وجوهري لأن المجتمع إن فتح الباب لكل من هبّ ودبّ وبدأ يغيّر طبيعته حسب آراء الأفراد المتقلبة فَقَد تماسكه واستمراره وإعادة إنتاج نفسه. وأصبح مثله مثل قصة فرن جحا

عندما اقترح عليه الناس كل مرة تغيير فتحة بابه حتى اضطر في النهاية إلى حمله على ظهر ثور. ويتصرف المجتمع ليس على طريقة جحا بل بقوانين عميقة أثقل من الجبال. ولا يغير الجبل طبيعته إلا تدريجياً بعوامل التّحات من الطبيعة أو في ثوران البراكين ودمدمة الزلازل. وكذلك يتغير المجتمع ببطء تدريجياً فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من الخليقة على حد تعبير ابن خلدون، أو بثورات مزلزلة تطفو على السطح عبر القرون، والثورات لا تحدث كل يوم لما تكلف، كما أنها تعمل ضد طبائع البشر فتسفك الدماء ولا توفر الحياة. ولكن يبدو أن العفن في المجتمع يصل إلى درجة مذهلة بحيث تصبح الحياة موتاً لا قيمة له فتندلع الثورات، وليس هناك ما يخسره الفقراء سوى قيودهم وأسمالهم كما صرّح بذلك كارل ماركس في بيانه الشيوعي. ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إنّ أخذه أليم شديد﴾ [هود: ١٠٢]. وعند هذا المفرق تكمن (جدلية تغيير المجتمع)، فهو من جهة يحافظ على إنتاج نفسه ولكنه بدون الأفكار الجديدة لا يقفز إلى عتبة تطور جديدة. والتصورات الجديدة يتعجب منها الناس أشد العجب فيفتحون أفواههم قائلين: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾ [ص: ٥]. والبدن الإنساني يمكن فهمه من خلال ثلاث معادلات: الأولى (تشريحية) وهذا يُرى تحت المشرط عندما يكون الإنسان جثة لا حراك فيها وهو هنا لا يبوح بأي سر يفرّقه عن ضفدع أو طير. وفي قسمه الثاني (الفسيولوجي) يشترك مع الخنازير والعجول فيفترق (إنسولين) العجول عن إنسولين البشر بحمض أميني واحد، ولكن الإنسان الذي دشّن الثورات الزراعية والصناعية والمعلوماتية غيّر سطح الأرض؛ فانتقل بأسرع من الصوت وتكلم بسرعة الضوء وفجّر الذرّة وعرف منشأ الكون بنظرية الانفجار العظيم وحدد عمر الأرض بـ ٤,٦ مليارات سنة، فهذا يفترق به عن عالم العقارب

والحشرات التي تدبّ على الأرض منذ ٤٠٠ مليون سنة بدون تغيّر، وكل هذا دشّنه في فترة الحضارة التي لا تتجاوز ستة آلاف من السنين. يجب إذاً أن يمحص المجتمع ويعزل كل فكرة جديدة ويرفضها كما يرفض الجسم أي خلية غريبة. وإذا كان نظام البيولوجيا يرفض الكائنات الغريبة المخالفة لتركيبة أخلاطه فإن نظام الفكر يرفض كل فكرة جديدة لا تنسجم مع بنائه الفكري، ونظراً لأن البيولوجيا عمياء فهي لا تغير طبيعتها ولكن نظام الفكر ثقافي قابل للتغيير، وكل مجتمع انفك عن رتابة قوانين الطبيعة العمياء دخل التاريخ واستقبل الأفكار الجديدة بتمحيص وبدون سرية واضطهاد فإذا تبينّ فائدتها تبناها واستفاد منها وتقدّم. أما التجمعات المغلقة التي لم يدخل وعي التاريخ إلى نظامها الفكري فهي ترفض كل جديد مثل عمى البيولوجيا لكونه جديداً فقط، فتبقى أسيرة في قبضة الطبيعة ولا تعمل فيها قوانين التاريخ ولا تتطور. إنها سنّة الله في خلقه. وكما ينقل المؤرخ (إدوارد كار) في كتابه «ما هو التاريخ» عن (بوركهاردت Burckhardt) بأن التاريخ «هو انقطاع مع الطبيعة يحدثه استيقاظ الوعي». والمجتمعات العربية اليوم هي أقرب إلى هذه المجتمعات المحنطة في متحف التاريخ. ولقد كان زلزال الخليج الأخير دليلاً يفقأ العين على هذه النظرية فلم يتغير شيء مع أنه زلزل العالم. وتمت المحافظة على الأوضاع كما تتم المحافظة على الحيوانات المنقرضة مما يدل على أنه لم يدخل إلى ضميرنا بعد وعي التاريخ، فنحن شعوب فقدت الفعل ويفعل بها الآخرون ما يشاؤون. وعندما عبر (كزركسيس) مضيق الدردنيل في القرن الخامس قبل الميلاد لاجتياح بلاد اليونان وخسر معركة «سلاميس» البحرية ارتدّ مذؤوماً مدحوراً لمن تبعه منهم، عاقب البحر الذي أغرق سفنه فقام بجلده لشعوره أن سلطته تمتد إلى لجج البحر كما امتدت على رقاب البشر. ولكن انتصار اليونان

كان في الحقيقة ليس انتصار أثينا على فارس بل الحرية على الطغيان. ونحن نعلم أن عبقرية (هيلاس) فاضت بعد ذلك في أسماء لا تنتهي من سقراط وأرسطو وبارامينيدس وديموقريطس وزينون وهرقليطس وأناكسيمندر وفيثاغورس. إن النتيجة التي نخرج بها ثلاثية: ـ كما يقول (إتيين دي لابواسييه) في كتابه «العبودية المختارة» ـ: «إن ما درج عليه الإنسان من العادة وتعوّده يجري عنده في النهاية بمثابة الشيء الطبيعي». وإن سلطان العادة ـ كما يقرر علم النفس ـ يمكن كسره بعادات جديدة، وهذه لا تولد إلا بالأفكار الجديدة التي يتشرّبها الوعي وترسخ لاحقاً في (اللاوعي) فتفرز (السلوك) كما تفرز الخلية الأنزيمات. وإن المجتمع حتى يتحرك أمامه ثلاث طرق: فإما تغير من الداخل بولادة جديدة وبمعاناة ممزوجة بالألم. وإما بالهجوم عليه من الخارج من مجتمع متفوق بعدما فقد قدرة تقرير المصير بطول عمر الطغيان الذي يستلب آخر نبضة حياة من آخر خلية حية، وعند ذاك يتحوّل المجتمع إلى مواد خام لبناء مجتمع متفوق ديناميكي متطوّر ـ كما أشار إلى ذلك مالك بن نبي في كتابه «ميلاد مجتمع» ـ في توسع روما والتهامها المجتمع القرطاجي والغالي والفرعوني في وليمة عامرة. وإما بالهجرة منه كما تفعل خلايا النحل: ويرى الفيلسوف (إيمانويل كانت) في كتابه «نحو السلام الشامل» (Zum Ewigin Friden) أن انتشار الإنسان في الأرض كان بموجب هذا القانون، فمع كل اضطهاد تنشقّ مجموعة منه لتعمر بقية الأرض، وهكذا عمرت الأرض بالإنسان بآلية الألم. ولم يحضّ القرآن على الهجرة من فراغ فالوطن لا يبقى وطناً مع الطغيان. ويرى المؤرخ (توينبي) في دراسته للحضارات أن المجتمع مع التحدي يتحدد مصيره على ثلاثة أشكال حسب (استجابته): فإما كان حضارة (متطورة) فكتب التاريخ أو حضارة (معاقة)

محنطة كما في جماعات اليهود والأسكيمو، أو حضارة (مندثرة) كما في حضارة (البولينيز) التي اندثرت في جزر المحيط الهادي وتركت خلفها قوماً بلداء قصّروا في متابعة الاستجابة لتحدي المسافات المترامية في الأوقيانوس المخيف.

٩

أثر التعليم في التحرر

(النموذج الأفغاني والنموذج الياباني)

(اليابان هو البلد الوحيد الذي قصف بالسلاح النووي واستسلم بدون قيد أو شرط ولكنه لم يحرر بلده بحرب تحرير فيتنامية أو جهاد أفغانية بل بطريقة امتاز بها هذا الشعب الأنيق).

يذكر الفيلسوف البريطاني برتراند راسل في كتابه «السلطان» (The Power) عن مفعول الإيديولوجيات المخيف: «إني لأذكر بلشفياً قابلته في بكين عام ١٩٢٠م وكان يذرع غرفته جيئة وذهاباً وهو يردد العبارة التالية وقد أودعها كل ما لديه من يقين: «إننا إذا لم نقتلهم قتلونا.. ووجود هذه النفسية عند أحد الجانبين يستدعي تولدها عند الجانب الآخر وتكون النتيجة قتالاً حتى النهاية» ليصل إلى تقرير (قانون اجتماعي) مهم وهو أن هذا الجو يقود إلى تأسيس الاستبداد: «وتحصل الحكومة أثناء القتال على سلطان استبدادي لأسباب عسكرية وإذا ما انتصرت في النهاية فإنها

تستخدم هذا السلطان في سحق من يتبقى من العدو ومن ثم ضمان استمرار ديكتاتوريتها على مؤيديها»، وليس هناك أشنع من جو الخوف الهستيري عند الجماعات، وتبقى «الحرب هي السبيل الرئيسي المروّج للاستبداد». فتحت دعوى الحفاظ على الأمن تتغول الدولة وتتعملق الأجهزة الأمنية وتترسخ شجرة الإرهاب ويتم قمع الناس وتصادر الحريات فيعتقل المواطن على الشبهة بتقرير كيديّ وتسود حالة الأحكام العرفية في إجازة مفتوحة حتى إشعار آخر. فهذا قانون اجتماعي هام كي نفهم سبل التخلص من الاستبداد وأن العمل السلمي شرط جوهري لتخفيف قبضة الإرهاب وإمكان التعامل معه على نحو فعّال أفضل.

لا غرابة إن اعتبر الحديث النبوي أن من يحل مشاكله بالقتل والقتل المضاد فمصير الإثنين هو النار (قاتلاً ومقتولاً) لانطلاقهما من القاعدة النفسية نفسها «فالقاتل والمقتول في النار. قالوا يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». فهذا اللون من الوعي الاجتماعي هو الملْح الفكري الذي به يحفظ المجتمع من الفساد.

وفي الوقت الذي تنطلق الجماعات للتخلص من الاستبداد مستخدمة أسلوب (القوة) تسقط أسيرة الاستبداد من حيث أرادت التخلص منه، لأنها تعتمد الأسلوب نفسه مع الرفاق كما استخدمته من قبل ضد الأعداء ولكن: أكثر الناس لا يعلمون.

ومن هنا نفهم أيضاً المغزى الفلسفي العميق للمسيح عليه السلام وهو يوجه قوله إلى الحواري (بطرس) عندما استلّ سيفه ليدافع عنه ويضرب أحد عناصر المخابرات الذين جاءوا لاعتقاله فيقطع أذنه

بشفرة السيف: «اغمد سيفك يا بطرس فإنه مكتوب: من أخذ السيف بالسيف يهلك». إنه قانون اجتماعي نفسي. وطوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. وطوبى لصانعي السلام لأنهم عباد الله يدعون. وطوبى لأنقياء القلب لأنهم الله يعاينون. وطوبى للرحماء لأنهم يرحمون. وطوبى للحزانى لأنهم يتعزون. وطوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات. إن من يتحرر من القوة يصبح ملح الأرض ولكن إذا فسد الملح فبماذا يملح؟

إن جماعة الانقلابات تابعوا قلب بعضهم لبعض لأنهم اعتمدوا لغة السيف فهي أسرع حكماً وأشد فصلاً، وفي أكثر من مكان في العالم العربي قام الرفاق بتصفية بعضهم بعضاً بما لم يفعله أشد الأعداء؛ فهي حوادث شهدناها ووعيناها، ومنذ أربعين سنة وحتى الآن لا تزداد الأمور إلا سوءاً وتعاسة في مخطط انحدار موجع نحو القاع وهي وقائع يستفيد منها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وقصة أفغانستان تروي هذا (القانون الاجتماعي). وعندما سئل أحد المجاهدين ماذا يَحسن صنعاً؟ كان جوابه ببساطة: «أستطيع أن أقتل إنساناً. أستطيع أن أنسف جسراً»، فهذه هي دروس الحرب. وأما البناء فهو آخر ما يفكر به أو يقدر عليه. ونكتشف بمرارة مع (راسل) أن النتيجة: «تكون مغايرة كل المغايرة لما قاتل المتحمسون من أجله». وما زلت أذكر وأنا أشرح لأحد الشباب المتحمسين السيناريو المحتمل لأوضاع أفغانستان وما زال السوفيات فيها، ولكنني مع كل التشاؤم الذي مضيت فيه لم أصل إلى فداحة ما حصل، كما أن تصوري عجز عن تخيل اعتلال وإزمان المرض الأفغاني كما نراه اليوم بعد انسحاب الروس منها وفرار الملائكة من ساحة القتال بعد أن هدمت كابول على يد (المجاهدين) بما لم يفعله

السوفيات عشرات المرات فلم يبق حجر على حجر. هل يقودنا التشاؤم إلى تصوّر أن العالم العربي سيكون مصيره مثل أفغانستان والصومال فلا يبقى حجر على حجر وما بني خطأ من الأساس يجب أن يعاد بناؤه من الأساس؟ ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾ [الإسراء: ٥٨] ولقد كان في قصص المجاهدين الأفغان عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى.

نحن لا نستوعب حتى الآن أن أعظم مصيبة هي ملامح انهيار المناعة الداخلي عندنا بما يذكر بمرض نقص المناعة الكسبي (الإيدز Aids) وأن أعظم تحدٍ أمامنا هو الانهيار الداخلي. شهد لهذا معارك صفين الحديثة على رمال الخليج عندما نسينا إسرائيل وانشغلنا ببعض، وما زال أمامنا المزيد من معارك صفين أخرى حتى يرسو مصيرنا في أحد اتجاهين: إما ولادة جديدة بترميم جهاز المناعة واكتساب العافية، وإما الذوبان في بطن حيتان حضارية نشيطة كما حصل لأمم سبقت في التاريخ ولن تكون بدعة عنهم: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. وعلى ما يبدو فنحن لم نعد صالحين: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [محمد: ٣٨].

إن الجماعات الإسلامية خارج أفغانستان ليس عندها قدرة استيعاب أن يحصل لها ما حصل لأفغانستان وأن يصيبهم ما أصابهم عندما تقع تفاحة السلطة الناضجة في أيديهم وقد خلت من قبلهم المثلات، وإن هضم فكرة من هذا النوع لهو أصعب من قص الأنف بالمنشار بدون تخدير كما يقول الجاحظ.

إن النموذج الياباني يختلف عن الجهاد الأفغاني، فمع أن هذا البلد هو الوحيد الذي قصف بالسلاح النووي، واستسلم بدون قيد أو شرط، وسرّح جيشه البالغ خمسة ملايين جندي، ونفض يده من كل الآلة العسكرية المخيفة التي بناها بيديه وعرق جبينه، إلا أنه لم يحرر بلده بحرب تحرير فيتنامية أو جهاد أفغانية بل بطريقة امتاز بها هذا الشعب الراقي. ولكن ما سره؟ إن جواب هذا لا يعود إلى أيلول/ سبتمبر عام ١٩٤٥م عندما وقّع على وثيقة الاستسلام على ظهر البارجة الأميركية (ميسوري) بل يعود إلى زمن أبعد: عام ١٨٦٨م عندما أصدر «العهد الميجي» في عهد الإمبراطور (موتسو ـ هيتو) الذي بدأ حكمه في ١٨٥٢/١١/٣م وكان شاباً ذكياً متفتحاً وسمّي عهده (الميجي) أي الحكم المستنير. وبواسطة هذا العهد تم إرساء قواعد نهضة اليابان الحديثة. وأهم فقرة في هذا العهد هي الخامسة التي تنص على التعليم: «سوف يجري العمل على جمع المعارف من شتى أنحاء العالم وعلى هذا النحو سوف تترسخ الإمبراطورية على أسس متينة» ولكن جمع المعارف يحتاج إلى شروط أخرى.. لنتأمل بقية فقرات العهد:

١ ـ أن يجري دعوة جمعية عامة كبيرة العدد للاجتماع وأن تتخذ كافة الأمور عن طريق المناقشة الجماهيرية العامة (اعتماد أسلوب الحوار العلني).

٢ ـ أن يكون لهؤلاء الذين هم في مستوى أعلى وأولئك الذين هم في مستوى أدنى الحق نفسه في إبداء الرأي وأن تدار الحكومة في قوة وحسم (المساواة).

٣ ـ إن عامة الشعب لا يقلّون عن المسؤولين المدنيين أو العسكريين ومن ثم يسمح لكل منهم بأن يحقق أمانيه حتى لا يكون هناك شعور بعدم القناعة (الديموقراطية).

٤ ـ يجب التخلي عن كافة التقاليد والعادات الغربية التي كانت سائدة وأن تتم وفقاً لمبادىء العدالة والمساواة بحسب الفطرة (التخلص من مرض الآبائية).

إن هذا العهد الميجي يجب أن يضعه كل قارىء في ورقة مستقلة أمام عينيه يتأمله ويدخله إلى اللاوعي أمام الأزمة الحضارية في العالم العربي.

إن القرآن ربط بين (القراءة والكرامة): ﴿إقرأ وربك الأكرم﴾ وأكثر الأمم قراءة هي أكثرها كرامة. صدق هذا على الشعب اليوناني قديماً، والآن على اليابان وأميركا وأوروبا، في الوقت الذي نزل العرب إلى أسفل سافلين مع نسبة أمية تزيد على ٧٠٪ في رقم يصعق. وهذا يعني في رسالة واضحة أن الحل ليس عند السياسيين، وحتى لو خرج عمر بن الخطاب من قبره فحكم الناس فسوف يأتي إليه من يغتاله كما فعل الخوارج عندما اغتالوا أعدل الناس عليّ كرّم الله وجهه، لأن الأمة كانت قد فقدت الرشد بعد نجاح الانقلاب الأموي ومصادرة الحياة الراشدية وتصفية القيادة الفكرية وبناء جيش بيزنطي يفتح البلاد ويقهر العباد ويدوّخ الممالك على مبدأ كرة الثلج. وكل من فكر من الفقهاء بعد ذلك لم يتصور أن الوضع (اللاشرعي) يمكن أن يزال بطريقة (شرعية) كما فعل محمد بن عبد الله (ص) وختم الفقهاء على الوضع بأنه لا يوجد أفضل مما هو موجود وأن حكم (السيف) يزال (بالسيف). وهكذا حكمنا بالسيف وما زلنا بمن فيهم القيادات الإسلامية الحالية. فالكل يرى أن الانقلاب إذا كان أبيض فلا حرج منه، ونموذج السودان وباكستان يرينا هذا الاستعصاء التاريخي.

كما ربط القرآن بين (العلم والكتابة) التي هي الذاكرة الجمعية

لتراكم خبرات البشر عبر العصور ﴿الذي علّم بالقلم﴾ وربط بين ارتقاء الإنسان كيف يتشكّل خَلقاً من بعد خلق بهذا الشيء الجديد في تاريخ الإنسانية والذي لم يمضِ عليه أكثر من خمسة آلاف سنة وهي فترة اختراع الكتابة ﴿علّم الإنسان ما لم يعلم﴾. وإذا كان تاريخ الإنسان يمتد إلى سبعة ملايين من السنين فإن هذا لا يعني شيئاً ولم يكن خلال الفترة ما قبل التاريخية شيئاً مذكوراً حتى صار له ذكر مع دخول الحضارة قبل ستة آلاف سنة، وبشكل أدق مع دخول عصر الكتابة قبل خمسة آلاف سنة، أما الطباعة فهي حديثة العهد إذ لا يزيد عمرها على خمسمائة سنة. وبواسطة الكتابة والقراءة تم تنوير عقل الإنسان بالورق كما يقول المؤرخ البريطاني (ويلز) في كتابه «معالم من تاريخ الإنسانية».

إن هذا الشيء الهائل حوّل الإنسان بواسطة نظام اللغة المفتوح إلى كائن اتصالات يمكن أن يختزل التاريخ الإنساني بكل خبراته في مدى سنوات قليلة وهو طفل، ولكنها طفولة طويلة مقارنة مع الحيوان الذي يختصرها؛ فالعجل ينزل من بطن أمه فيمشي فوراً ولكن الإنسان يحتاج إلى عام ويزيد، والقط لا يحتاج لأكثر من صيد الفئران، أما الإنسان فيحتاج أن يصيد الخبرات كلها. وهذا يصلح تعليلاً لطول مرحلة الطفولة عند الإنسان كي يستعد للقفزة الكبرى بعدها.

تروي أم عربية عن ولدها الذي التحق بالمجاهدين الأفغان أنه سقط أسيراً في يد إحدى الجماعات الإسلامية المجاهدة المتنافسة، وفي الوقت الذي كان يجتمع زعماء الفصائل يتسامرون في الليل كان الشاب يرزح في الأسر، وقامت الوالدة بالاتصال بالمجاهدين تراسل قياداتهم بدون ملل حتى دفع أحد الأطراف فديته فرجع ينفض عنه

غبار الموت وظلام الحبس وكل ما يتعلق بالجهاد المزعوم ﴿فرددناه إلى أمه كي تقرّ عينها ولا تحزن﴾ [القصص: ١١٣].

أهمية الفكر السلامي لبناء مجتمع ديموقراطي

كلما كتبت عن أهمية اللاعنف والفكر السلامي تفاجئني الأحداث بأنني مثل الذي ﴿ينعق بما لا يسمع إلا نداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ [البقرة: ١٧١]. وأشعر أن هذه الأفكار لا تجد القلوب التي تستقبلها مثل الأجهزة الإلكترونية المعطّلة. كما أن المسؤولين لا يدركون آثارها الخطيرة إلا عندما يصطدمون ببعض الأحداث بين الحين والآخر، فيقولون: يا ليتنا نرد فنسمع وننتبه إلى هذه الأفكار كلقاحات فعّالة ضد أوبئة العنف في المنطقة. إن الطبيب يعرف معنى التهاب الكبد الوبائي بدون لقاح وأي مصير ينتهي إليه المريض. وإذا كانت المؤسسات الطبية قد طوّرت نظام اللقاحات منذ أكثر من قرن فإن المؤسسات السياسية تعالج العنف بالعنف كمن يريد شفاء المريض بقتله، ولا يفعل هذا طبيب ولو ارتدى معطفاً أبيض وحمل سماعة تتدلّى من عنقه على الجانبين. وفي كلامي هذا لا أريد أن أدين طرفاً على حساب تزكية الطرف المقابل، كما لا

أريد توظيف قلمي لأي طرف. وفي بلد عربي تم استدعاء مواطن لسؤال أمني لا يستحق السؤال، وجاء في معرض الحديث عن فظاعات يرتكبها الجهاز الأمني التركي عندما يهاجمون سجناً يقبع فيه سجناء سياسيون تابعون لحزب العمال الكردستاني فيقومون بتصفيتهم جسدياً. التفت المحقق إلى الرجل وقد علت وجهه علامة تعجب واستغراب كاملين: كيف يفعلون هذا والمعتقلون في أيديهم وبإمكانهم تصفيتهم جسدياً بدون تدخّل عناصر أمن من جهة أخرى؟ إن هذا لم يفعله هتلر يقيناً! التفت الرجل إلى المحقق قائلاً بهدوء: وأنتم ألم تفعلوا ذلك مع خصومكم السياسيين؟ هزّ المحقق رأسه بالإيجاب معترفاً: وكان الحجم أكبر. تابع الرجل قوله للمحقق: ولكن اطمئن فإن خصومكم السياسيين سبقوكم إلى هذه السنّة السيئة فهم الذين فتحوا باب القتل الجماعي. فالكل إذاً يستحم في مستنقع العنف نفسه. ختم الرجل كلامه للمحقق: دعنا نتفاءل في أن يرتاح أولادنا فيتطهروا من هذه العين الآسنة من أمراض العنف والطائفية والمذهبية والحزبية والعائلية والعشائرية، فلا يُدعون لسؤال لا يستحق كل هذا التحقيق وتضييع الوقت، والمنع من السفر، ويعبروا بنجاح إلى عالم الإنسانية على جسر من سلام. إنني أعرف أن هذا الكلام مزعج للبعض، وأنه لا يرضي بعض الأطراف، ولكن العنف لا يتقدم في طريق الحل إلا بإلغاء كل حل. فالعنف حلقة متصاعدة تزداد ضراوة واتساعاً مع كل دورة على نحو أشد هولاً وأعظم نكراً، كما في اشتعال الغابات الجافة في صيف اشتدت حرارة قيظه، ومعظم النار من مستصغر الشرر. والحقيقة الأولى هي أن الشباب الذين يريدون تغيير الأوضاع بحماسة أكثر منه بعقلانية لا ينطلقون من فراغ بل هناك بنى نظرية وجذور عقائدية لما يتصرفون، والشباب أكثر جرأة على اقتحام المخاطر لعدم تقديرهم لعواقبها بما فيها القتل والقتل المضاد، ولا يلقي

أحدهم بنفسه في التهلكة لولا وقوعه تحت سبل من أفكار عقيدة تحكم بقبضتها على وجدان وعقل صاحبها فتوحي له أنه يجاهد في سبيل الله فتطوّع له نفسه قتل أخيه فيقتله. ولكن هل يحل العنف مشكلة المجتمع أم يزيد المشاكل تعقيداً؟ لقد جرّب الخوارج حظهم فيما سبق ونزفت الدولة الأموية حتى النزع الأخير، ولكن النتيجة التي انتهوا إليها أن الدولة الجديدة كانت أشد بطشاً وأكثر قمعاً ولم ترجع دولة الراشدين قط (ذكرى لأولي الألباب). ومع كل اندفاع باتجاه مزيد من حكم السيف وتغيير الأوضاع بالقوة المسلحة انفرجت الزاوية أكثر وانحرف الخط عن المسار وزاد البعد عن حياة العدالة والعقل، وفي النهاية دخلنا الضلال السياسي بالكامل وطلّقنا الرشد ثلاثاً في بينونة كبرى؛ فنحن اليوم نعبد القوة ونؤلّه ساداتنا وكبراءنا. وجرّب القوميون إعادة الوحدة بالانقلابات العسكرية في العصر الحديث ورفعوا شعارات الوحدة والمساواة والحرية والعدل الاجتماعي؛ فزادت الفرقة والشرذمة وفُرّغت الشعارات من مضامينها، وتضخّمت ثقافة الفردية، ودفنت الوحدة في عاصفة على ساحل الخليج، وتم اغتيال كل حرية، وتجرّع الناس كؤوس الظلم الاجتماعي حتى الثمالة، وتكسّرت الطبقات الاجتماعية أكثر من الصدوع الجيولوجية، وزحفت جماهير غفيرة إلى حافة الفقر والإملاق تحت شعارات لا ينقصها الجمال. وجرّب (الخوارج الجدد) حظهم في الجزائر وسوريا ومصر فزادت الأمور سوءاً وانقذفنا إلى الخلف نصف قرن بفعل الإنفاق الهائل لتطوير الأجهزة الأمنية والغرق في الديون الخارجية وشراء الأسلحة الميتة وتوقف التنمية الاجتماعية. وفي الوقت الذي كان دخل الفرد السنوي ٣٠٠ دولار عام ١٩٦٠م في كل من غانا وكوريا الجنوبية وقفز في كوريا الجنوبية عام ١٩٩٠م إلى ثلاثة عشر ضعفاً انهارت عملة الكثير من البلاد العربية أكثر من ثلاث عشرة مرة، كما ذكر ذلك المؤرخ

الأميركي (باول كينيدي) في كتابه «الاستعداد للقرن الواحد والعشرين» في رحلة موجعة نحو الإفلاس بما هو أسوأ من غانا وغينيا. وفي سوريا في عام ١٩٦٥م قبل ٣٥ سنة أخذ (جودت سعيد) يحدد مشكلة العنف في المجتمع وآثاره الضارة في كتاب تحت عنوان «مذهب ابن آدم الأول» فاعتبره الإسلاميون أنه عميل للسلطة في الوقت الذي كانت تطارده السلطة على أنه من مثيري الشغب فأودعته السجن مرات. كان جودت سعيد في وضع صعب بين مطرقة السلطة وسندان الإسلاميين. وكان طرحه غير قابل للفهم يومها، والسر أن هذا النوع الجديد من الفكر انقلابي في الفكر الإسلامي لم يسمعوه من آبائهم الأولين ولم يذكره الفقهاء التقليديون. ولو أصغى له الإسلاميون وانتبه له القوميون وبقية الشرائح الفكرية وأخذته السلطة بعين الاعتبار لكان ترياقاً لسموم العنف التي عصفت بالمنطقة وما زالت تهددها مثل الجمر تحت الرماد. ولكن يبدو أن الأمم لا تتعلم بالأفكار بل بالمعاناة، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم. ولقد ذاق الناس مرارة الكأس دهاقاً، وتجرّعوا غصص الفقر، ودفعوا قائمة حسابات هائلة مع كل فوائدها المركبة. ودفعها كل الأطراف بالأوجاع والاعتقالات والاغتيالات، وما زالت الحالة أشبه بالمريض الذي تعرّض لحادث سيارة فنقل إلى العناية المشددة وما زال في مرحلة النقاهة حتى الآن، وقد يغادرها إلى الجناح العادي فيخرج من مشفى التخلّف إلى فضاء العصر، ما لم تحدث حماقات جديدة فتتورّط الأطراف في دورة جديدة من حمى العنف والعنف المضاد، ولعل الأحداث الأخيرة التي جرت في أحد البلاد العربية تدعو إلى الطمأنينة، ليس بالرهان السياسي، فهذا نفق مظلم لا نعرف متى نخرج منه ولا أمل كبير فيه ﴿وإن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾ [الجن: ١٦]. ولكنه الرهان على الرؤية التاريخية فكل الأطراف متورع عن الدم خائف من الإقدام عليه بعد

جرعة الرعب السابقة، وهذا الفزع الأعظم الذي يلجم كل الأطراف أن لا يخوضوا في برك الدم يحمل ضمانة خفية إلى تطور سلمي تدريجي للمجتمع. والرهان هو حول هذه النقطة بالذات، لأن التطور السلمي يفتح باب الحوار وهذا يقود لإمكانية ولادة الديموقراطية ولو بعد حين. والرهان على الشعوب ليس لأيام أو سنوات بل يأخذ وقتاً طويلاً يطول ويقصر حسب تدخّل الوعي، فعندما تترك الأحداث تمشي لوحدها فإن ما يحدد مسارها وتطورها هو قوانين الطبيعة العمياء، ولكن تدخل الوعي الإنساني يسارع في تفعيلها، وهكذا فما فعلته الطبيعة على مدى ملايين السنين قد يدخل عليه الوعي الإنساني فيحوله في أشهر إلى خلق آخر. كما يفكر العلماء اليوم في جراحات المناخ فيذيبوا القطب المتجمد، أو يعالجوا ثقب الأوزون، أو يبنوا مدناً كاملة فوق ثبج البحر الأخضر قريباً من الساحل الياباني، ترتفع فوق سطح الماء إلى علو أربعة كيلومترات تعوم فوق مئات الأطنان من وسائد الحرير تهزأ من عواصف التيفون، ويعيش في المدينة الواحدة ٧٥٠ ألف نسمة. وأعود إلى تناول مشكلة العنف كي أبنيه على ثلاثة مفاصل أساسية، أولاً: لا يعتبر العنف الداخلي جهاداً في سبيل الله بل هو أقرب إلى خروج (الخوارج) فيجب أن نحدد معنى الجهاد ووظيفته وشروطه وبيد من يستخدم وضد من يسلط؟ ولو أردت وضع تعريف للجهاد لاختصرته في الجملة الآتية: إنه دعوة لإقامة حلف عالمي لدفع الظلم عن الإنسان أينما كان ومهما دان تقوم به دولة راشدة وصلت إلى الحكم برضى الناس.

وثانياً: يجب أن نربّي الفرد على نوعية جديدة من المقاومة هي قول الحق وليس إنشاء تنظيمات سرية مسلّحة تحت الأرض تنفجر بأعمال العنف من حين لآخر في صورة محاولة اغتيال رئيس دولة أو مهاجمة مؤسسة بالسلاح.

ثالثاً: إن الأسلوب النبوي في التغيير يختلف عن أسلوب الثورة الفرنسية التي ترى إنهاء حياة الحاكم على مقصلة أو مقاومة المستبد والاحتلال بالمقاومة المسلّحة أو ضرب المصالح الأجنبية وسفاراتها. وهذا لا يعني مباركة ما تفعله حكومات المنطقة من تحالفات مشبوهة، فهؤلاء الشباب ليسوا صحابة كما أن حكومات العالم العربي ليست خلافة راشدية على رأسها أبو بكر الصدّيق وعمر الفاروق، ولكن الأسلوب النبوي هو في إيجاد فرد محرر من القابلية للظلم فيخرج من مذهب المستضعفين والمستكبرين. أن يقول: لست مستعداً لقتل أحد ولكني مستعد أن أموت من أجل أفكاري. إن النظر لهذا التكتيك في المقاومة يمكن تأمله من ميزان الخسارة والربح، فهو (براغماتي) أيضاً تكاليفه قليلة ونتائجه مباركة. لنقارن نتائج المقاومة المسلحة في وجه أنظمة مسلحة حتى الأسنان بأحدث الأسلحة الحديثة أمام أسلوب الوقوف في شارع عام محتشد لرفع شعار ضد ممارسة معينة وممارسة العصيان المشروع وتحمل نتائجه من اعتقال وغيره. إن العنف مخيف لكل من يلجأ إليه، وفي إحدى المرات اجتمع سلَفي وصوفي في عملية عسكرية ضد نظام عربي، وبينما هما في انتظار البدء بالعملية حصلت مناقشة بين الاثنين عن قضية فقهية انتهت إلى شجار وهدد كل طرف الآخر بمحاكمته وسجنه وتصفيته إذا وصل إلى الحكم. وتنشر مجلة «درشبيغل» الألمانية اليوم واقعة مرعبة عن حزب العمال الكردستاني وهو يقوم بتصفية جسدية لفتاة وشاب أحبا بعضهما وأرادا أن يتزوجا ولكن الحزب كان ضد الرغبة الإنسانية وعاقب العصاة بقتلهما على طريقة مروّعة فخنق الفتاة في الوحل ودهس الشاب بالمرور المتكرر بسيارة على جسده.

قوانين تغيير الاستبداد

الشعور بالحاجة إلى التغيير والتغيير
سلمياً ولا بد من تصور البديل.
(هكذا صاغ الكواكبي وصفة الخلاص
مثل قوانين الرياضيات)

بثلاث جمل اختصر عبد الرحمن الكواكبي الوصفة مثل قوانين الرياضيات في كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» في فصل «مبحث السعي في رفع الاستبداد: الشعور بالحاجة إلى التغيير».
ويتفق بهذا مع الفيلسوف إيمانويل كانت: (١) «الأمة التي لا تشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية». و«يجب أن يتم التغيير سلمياً وبالتدريج» ويتفق بهذا مع قانون الأنبياء في التغيير الاجتماعي: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، وليس بقتل الحكام أو الانقلابات العسكرية في الظلام. (٢) «الاستبداد لا

يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج». (٣) لا بد من تصوّر البديل إذ «يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل بالاستبداد». ويتفق بهذا مع ديكارت الذي يرى في كتابه «المقال على المنهج» أنه يجب عدم هدم البيوت القديمة مهما كانت سيئة فلا يفعل هذا مهندس عاقل ويضع أصحابه تحت المطر والريح، بل لا بد من تهيئة البيت الجديد فإذا انتقل إليه لم يرجع إلى القديم قط. من اللافت أن القوانين الثلاثة التي وضعها الكواكبي قبل قرن من الآن (١٩٠٢م) للتخلص من الاستبداد تفتح الوعي على طريقة جديدة في التفكير بعد أن جرّب العالم العربي وصفة الانقلابات فلم يزدد المرض إلا نكساً ووخامة، وتدهورت الأحوال بدون توقف منذ نصف قرن وبتسارع في علاقة جدلية موجعة بين (المرض) و(الاختلاط)، ونحن نعلم أن المريض في العناية المشددة عندما يستمر في النزف لا يقف عند نقل الدم ولكنه يصل إلى القصور الكلوي. والأمة العربية التي تسكن اليوم العناية المشددة التاريخية تحت إشراف أسوأ الأطباء وأقلهم خبرة وأضعفهم اختصاصاً نزفت بما فيه الكفاية وهي الآن في حالة قصور اجتماعي وهذيان على صورة صراخ الجماهير الهستيري في تمجيد الأصنام. ولقد كانت الأمور سيئة بما فيه الكفاية من الانفكاك عن صيرورة التاريخ وأحداث القرن، ولكن التطور المهين خلال نصف قرن فائت يجلعنا نتساءل إلى أين ستمضي الرحلة؟ وهل هناك ثمة قاع ترسو عليه سفينتنا الغارقة في عمق المحيط؟ وهل انتهينا من قدر الهبوط أم ما زال أمامنا فصول أشد بؤساً؟ لا أحد يعلم. يؤرخ الفيلسوف عبد الرحمن بدوي في كتابه «سيرة حياتي» التطور المأساوي في بلد عربي في مسلسل أحداث القرن شاهداً على القرن، وهو الذي أنتج ١٢٠ كتاباً فلسفياً في حياة علمية حافلة بالإنتاج وإتقان اللغات والاطلاع على ما أنتجه الفكر الحديث وهو يصلح للتطبيق على أماكن ليست

بالقليلة في العالم العربي بسبب المرض الثقافي المشترك في (النوعية) مع الاختلاف في (الدرجة) كما في الحمى (التيفية) التي قد تصيب أحدهم بالترفع الحراري والإنهاك، ولكنها قد تضرب عند مريض آخر عضلة القلب فلا أحد يستطيع التكهن بمخطط رحلة المرض طالما تمكن من مفاصل المريض. وكذلك هي مصائر بلدان عربية منوّعة بين العجز أو الكارثة الاجتماعية لأمم تعيش خارج التاريخ كمريض مصاب بأفظع حمى: سنّة الله في خلقه ﴿وخسر هنالك المبطلون﴾ [غافر: ٨٧]. يصف البدوي هذا التطور المرضي على نحو مفزع نقتطف منها حزمة بشيء من الاختصار والتصرّف: «كانت الحرية نعمة.. وإذا بها حكراً جديداً على فرد تحيط به عصابة. كانت الكرامة من أعزّ ما يعتز به.. فصارت هدفاً لكل اضطهاد ومصدراً لكل حرمان وشقاء. كان الأمن على النفس والأموال موفوراً لكل شخص فصار الخوف على كليهما يقضّ مضجع كل فرد وأسرة. كان النفاق مقصوراً على فئة من الوصوليين وعديمي الضمائر فأضحى خصلة لشعب بأسره يتنافس الجميع في ممارستها ويتباهى بالتفوّق فيها. وكان التفريط في أي حق من الحقوق الوطنية خيانة تنهار بسببها الحكومات وإذا بالتخلي عن أكبر الحقوق إنجازاً يتباهى به الحكام. وكانت الهزيمة سنة ١٩٤٨ كارثة تزعزعت بسببها الثقة بالحكام وإذا بالهزيمة الساحقة الماحقة عام ١٩٦٧ تحتشد لها جماهير للهتاف بحياة من تسببوا في الهزيمة. وكان النقص في السلع أمراً نادر الوقوع فصار القاعدة. وكانت العلاقات مع البلاد العربية والإسلامية تتسم بالمودة وتبادل المنافع فصارت القطيعة والعداوة هي الصفات السائدة. وكانت حقوق الإنسان مكفولة بالدستور والقوانين فإذا بها تصبح تعطفاً متعالياً من الحاكم على المحكومين. وكان الاقتصاد يقوم على أسس راسخة وأرقام صادقة وإذا به يصبح أرقاماً بهلوانية يتلاعب بها وزراء لا

علم عندهم ولا ضمير يقدمون موازنات زائفة مما أدى بالاقتصاد إلى الإفلاس وتكاثر الديون وانهيار العملة انهياراً متواصلاً. وكان الإسكان ميسوراً في كل مكان وإذا بالملايين لا يجدون مساكن لهم. وكان لكل مواطن الحق في أن يغادر وطنه طلباً للرزق أو للعلم وإذا بالوطن يتحوّل إلى سجن كبير. وكانت أدوات الثقافة تتدفق في حرية تامة وإذا بها تمنع تدريجياً حتى فقدت الاتصال بمصادر الفكر العالمي». وقد يتساءل المرء: وهل كانت الأحوال قبل هذا التطور المريع مع منتصف القرن العشرين رائعة؟ والجواب أن الأمور نسبية وقد استدركها (البدوي) فقال: ولكن الأمر كما قال الشاعر:

رب يوم بكيت منه فلما
صرت إلى غيره بكيت عليه

وهذا المرض السياسي قديم على كل حال، نشأ مع الانقلاب الأموي ومصادرة الحكم الراشدي وتابع رحلته الإمراضية عبر القرون. وكل من حاول استعادة الرشد من بعد لجأ إلى الغيّ أي الأداة المروانية الجاهلية نفسها: السيف. هذا ما فعله العباسيون ومن بعدهم كثير فلم ترجع الحياة الراشدية واستمر السيف فوق القانون. فحيث شق السيف طريقه لحقه الكتاب ـ كما في تعبير (ابن تيمية) ـ فبارك وصدق وختم على ما فعله. هكذا كانت علاقة (القوة بالمشروعية) في تاريخنا. وما زال السيف أصدق إنباء من الكتب/ في حده الحد بين الجد واللعب، كما وصف شاعرنا قديماً الوضع بصدق وقناعة، واحتضن اللاوعي الشعبي هذه الجرثومة الثقافية: أن البطل من يأخذ حقه بيده في مصادرة كاملة لكل الإنجاز الإنساني في معنى الدولة والقانون.

ونرجع إلى الكواكبي الذي صاغ (قوانين التغيير) على نحو مبلور قبل قرن بدون أن يترك أثراً في الثقافة الجماهيرية، وانتكست الأوضاع إلى ما هو أسوأ مع كل الوعي الاجتماعي الذي كان تحلّى به الرجل، وهو يوحي أنه كان على اتصال بغذاء فكري (غير تقليدي) حتى استطاع صياغة هذه القوانين. ويبدو من كلماته اتصاله بالفكر الغربي الحديث مع إيمان عميق بقيم الإسلام وانتباه حساس وإدراك لطبيعة الفروق الثقافية بين الشرق والغرب بل حتى خصوصية كل مجتمع عربي، مثل إدراكه للفروق الدقيقة بين المجتمع الألماني والفرنسي «فالجرماني جاف الطبع وهو يحب العلم من أجل المال واللاتيني مطبوع على العجب والطيش ويرى العقل في الإطلاق والحياة في خلع الحياء» مما يدل على احتكاكه المباشر بهذه المجتمعات.

إن الفكر الذي خلّفه لنا آباؤنا أعجز من أن يفرز مثل هذا الرحيق لأنه لم يقطف من زهور الحرية ولم يعد فيه ما يحرّك إلى التغيير، وانفصل عن حركة التاريخ، وكما يقول مالك بن نبي، إن أكرم مكان لجثث الموتى هو إيداعها المقابر، وكذلك يجب أن يكون مصير (الأفكار الميتة) من تركة الآباء التي توقفت فيها حركة الصيرورة وماتت فمكانها مقبرة التاريخ، بكل احترام كقيمة في الذاكرة وليس كوجود في الحياة. إن الفكر التقليدي يحمل إشكالية عميقة انتبه لها الفيلسوف محمد إقبال فأشار إلى أن الكثير من تراثنا كتب في ظروف مشبوهة ويبقى القرآن هو الكتاب الوحيد الذي حفظ بدون عبث من تغيير رسمه، ولكنه مع هذا لم يسلم من ثلاث: توظيفه للسلطان. وكتم حقائقه. وأن يُشترى به ثمناً قليلاً. وهذا يفتح الطريق إلى الاستنفار لمحاولة إضاءته على نحو عصري بتطويع العلوم الحديثة لفهم حقائقه. كذلك نفهم لماذا

استنفر علماؤنا أنفسهم سابقاً لغربلة الحديث فينتقي البخاري من نصف مليون حديث ألفين ويزيد، ويعلّم ابن حنبل ابنه خمسة آلاف حديث شائع ليفاجئه لاحقاً أنها مكذوبة فيتعجب فيقول له: كي تعرف أنها موضوعة فتحترز منها. وأما بقية التراث فكتب كله في ظل السلاطين وفي أجواء سياسية تقوم على الغدر وقنص السلطة الدموي المحموم. كان النص يلعن فرعون ولكن فرعون وجنوده كانوا في القصر يحرسهم جيش من المرتزقة في دولة ودّعت الخلافة وتحوّلت إلى نموذج بيزنطي. أمامنا اليوم كما نرى عمليتان في الجراحة الفكرية. الأولى: في غربلة التراث بالحفر المعرفي لاكتشاف ذاتنا الحقيقية بدون مكياج وقناع. والثانية: الاتصال بالعصر لنعرف إضافات المعرفة، وكما يقول مالك بن نبي: «كل من يدخل العصر ولا يدرك إضافات المعرفة الإنسانية لن ينجو من سخرية التاريخ».

مات الرئيس الكندي الأسبق (بيير إيليوت ترودو) في خريف العمر في منزله عن ٨١ سنة بدون اغتيال أو انقلاب أو نفي. مات مواطناً عادياً في بيته خارج الحكم بعد أن حكم كندا ثلاث مرات ولكنه اعتزل الحكم والسياسة منذ أكثر من عقد، وأهم ما أنجز مرسوم (الحريات والحقوق) ووضع كندا على الخارطة العالمية كبلد مسالم في استقلال عن أميركا. إن تاريخ كندا كان معظمه سلمياً ولم يكن انفصالها عن بريطانيا دموياً على غرار الثورة الأميركية، وهو نموذج للتغيير جدير بالتأمل. واجتمع في جنازته النقيض بمن فيهم أشد خصوم أميركا: كاسترو. وما زال الناس يزورون منزله حتى اليوم بحب وتقدير وبدون خوف من الاستخبارات. إنها مشاهد رائعة من كندا تشبه ألوان أوراق شجرة القيقب المضرّجة بالاحمرار المتساقطة مع خريف كندا الرائع ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ [العنكبوت: ٤٣].

١٢

قصة تشاوسيسكو

﴿لقد كان في قَصصهم عبرة لأولي الألباب﴾
[يوسف: ١١١]

سئل (تشاوسيسكو) طاغية رومانيا السابق قبل مصرعه بأربعة أيام ـ وقد اندلعت الأحداث في مدينة (تيمي شوارا) على يد قسيس مسالم ـ عما يجري وهل يخشى أن تتطور الأمور إلى أسوأ. قال: «عندما تتحوّل أشجار البلوط إلى تين قد تتغيّر الأوضاع في رومانيا». قال له الصحافي من جديد: ولكن العاصفة في أوروبا الشرقية عرّت كل الأشجار فهل يمكن أن يصيب رومانيا ما أصاب من حولها؟ فأجاب بثقة مطلقة: «هذا صحيح، وقد تغيّرت الأوضاع في كثير من دول أوروبا الشرقية ولكن رومانيا شيء آخر لا تعرفونه أنتم ونحن نعلمه». من الغريب أن كل طاغية يكرر المقولة نفسها ويحيق به العذاب نفسه. كان ينطق على نحو من يسيطر على

القدر وتجري الرياح مرسلات بين يديه. وأنه يشكل استثناءً أسطورياً فوق قوانين التاريخ. ولكن الذي حدث أنه في أيام معدودات أصبح تحت التراب عظة لكل طواغيت الأرض الذين لا يتعظون. وترك خلفه (قصر الشعب) الذي أنفق عليه ميزانية خاصة كي يعمّره فسكن المقابر والبلى وتركه خلفه خاوياً على عروشه بما ظلم. وسرى عليه قانون التاريخ كما سرى على فرعون والمؤتفكات وأصبح سلفاً ومثلاً للآخرين. وانهار نظامه بأسرع من بيت كرتون. وودّع هو والنخبة التي روّعت البلاد والعباد فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين.

من المثير أنه من رومانيا انتشرت أسطورة (دراكولا Dracula) فيخرج في الليل بأنياب ذئاب لينقضّ على النيام فيمتص دماءهم ويحوّلهم إلى أشباهه على شكل أشباح تعسّ في عتمة الليل البهيم تنشر الرعب.

كان تشاوسيسكو دراكولا ولكن يمارس الرعب في وضح النهار. وكان قطيع الاستخبارات (السيكوريتات) مائة ألف أو يزيدون مسلحين بكل عتاد في أوجرة تحت الأرض بأنفاق لا نهاية لها ولكنهم اختفوا خلال أيام ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ [العنكبوت: ٤١].

كل طاغية يكرر كلام تشاوسيسكو على نحو آخر فيقول: نعم إن تشاوسيسكو سقط لأن قدميه كانتا من صلصال من فخار أما أنا فمعدني من مارج من نار.

والسؤال: كيف يمكن لفرد الإمساك برقبة أمة تعدّ بالملايين؟ ما هي

الآلة الخفية الجهنمية للاستبداد؟ كيف نفهم آلية عمل الحاكم والأعوان؟ كيف تتشكل القبائل الأمنية الضاربة؟

في عام ١٩١١م وزّع منشور شيوعي على شكل كاريكاتور يضم خمس طبقات وفوق الجميع استقرّت صرة مكتنزة بالدولارات. وفي أسفل المنشور كتب «الهرم الرأسمالي». إذا تأملنا الصورة تبيّن لنا في أعلى الهرم الطبقة الحاكمة وبجانبها عبارة: «نحن نحكمكم». وأسفل منها يبدو أعوان الحاكم وسواعده من كاهن ومبشّر وبجانبها كلمة: «نحن نخدعكم». أما الطابق الثالث فقد امتلأ بالجنود والأسلحة وبجانبها كلمة: «نحن نقتلكم». وفي أسفل الهرم ارتمى حشد لا نهاية له من الجياع والأطفال المهملين والعائلات المحطمة لصنفين من الناس: العمال والفلاحين وبجانبهم جملة: «نحن نعمل من أجل الجميع نحن نطعم الجميع». وبين طبقة البؤساء هذه وطبقة الجنود جلست طبقة مترفة منعمة تأكل من عرق وجهد المساكين وبجانبها كلمة ساخرة: «نحن نأكل من أجلكم».

من سخرية الأقدار أن تشاوسيسكو كان شيوعياً أحمر مرّاً، والشيء الذي جاءت من أجل اقتلاعه الشيوعية تحديداً تمّ ترسيخه على يد الرفاق أضعافاً مضاعفة فخدمت الرأسمالية أيما خدمة. وعُبد ستالين ولينين وماو تسي تونغ بأشد من عبادة بني إسرائيل للعجل الجسد فكان له خوار ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ [الأعراف: ١٤٨].

الدولة تقوم على احتكار العنف بواسطة الآلة العسكرية وامتداداتها من القبائل الأمنية الضاربة بفارق أن من يدخل في (جوار) شيخ قبيلة أمنية لا يحمي نفسه من بقية القبائل التي تصل أذرعتها لكل

مواطن أينما كان في أي وقت في ظل أحكام عرفية مفتوحة.

الجيش يقضي على الفردية ليحوّل المجموع إلى قطعة لحمية مستلبة التفكير والمبادرة والإرادة تعمل لصالح إرادة خارجية تنفذ من دماغ متفرد بإرادة شخص واحد هو القائد. وحتى لا يحصل أي تمرّد ولضمان مطلق الطاعة والانصياع، فإن التدريب يقوم على أن حياة الفرد من حياة القطيع ومخالفته للأوامر تعني الموت في محاكم ميدانية.

بهذه الطريقة تنشأ جيوش المرتزقة المستعدة للقتل بموجب الأوامر بدون تردد. وعندما يوقد مجنون عسكري ناراً للحرب فإن الفرق العسكرية مزودة بفرق إعدام خلف الجيش فإذا لاحظوا أن الجندي لا يطلق الرصاص سُحب وأُطلق عليه الرصاص. وإذا التقى جيشان كما وصف (فولتير) فليس أمامهما سوى أن يقتتلا بما لا تفعله البهائم بآلية المحافظة على الحياة. ويروي المؤرخ توينبي عن الحروب أنها كانت (تسلية الملوك) فكان الشباب ينحر بعضهم بعضاً بإشارة من إصبع. هكذا فعلت المؤسسة العسكرية وكذلك يفعلون. وإلى هذا القانون الاجتماعي انتبهت الملكة اليمنية قديماً: أن الملوك ﴿إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة وكذلك يفعلون﴾ [النمل: ٣٤]. يقول (جارودي) في كتابه «نحو ارتقاء المرأة»: إن العمود الفقري للآلة العسكرية يقوم على مبدأ التخلي الكامل عن المسؤولية الفردية والإرادة المتميزة والتخلي عن أي مسحة تفكير. كما أن سمة المؤسسة العسكرية الأولى الذكورية وبذا مسخ الوجه الإنساني للمجتمع فظهر بعين واحدة كما في أسطورة عملاق أوديسوس.

وكل فلسفة القرآن تقوم على تحرير المسؤولية الفردية: أن الحساب

في الآخرة فردي: يوم يفر المرء من أمه وأبيه وفصيلته التي تأويه ومن في الأرض جميعاً عله ينجيه. كلا لا وزر.

الحاكم يمسك الأمة بواسطة الجيش ويتماسك الجيش بأمنه الخاص فيقتّل من لا يقتُل. وهي بدورها تصعد لتشكّل في قمة الهرم الاجتماعي شريحة صغيرة متفاهمة لا تزيد على أصابع اليدين عدداً تعمل بهذه الآلية وهي التي تفطن لها منذ القرن السادس عشر للميلاد (إتيين دي لابواسييه) فسجلها في كتابه «العبودية المختارة» عام ١٥٦٢م فوصف (مجموعة الستة) التي تمسك بالبلد على النحو التالي: «إنني أقترب الآن من نقطة هي التي يكمن فيها على ما أعتقد زنبرك السيادة وسرها، ويكمن أساس الطغيان وعماده... إن من يظن أن الرّماة والحرس وأبراج المراقبة تحمي الطغاة يخطىء. فلا جموع الخيالة ولا فرق المشاة ولا قوة الأسلحة تحمي الطغاة، والأمر يصعب على التصديق للوهلة الأولى ولكنه الحق عينه: هم دوماً أربعة أو خمسة يبقون الطاغية في مكانه، أربعة أو خمسة يشدون له البلد كله إلى مقود العبودية. في كل عهد كان ثمة أربعة أو خمسة تصيخ إليهم أذن الطاغية يتقربون منه أو يقربهم إليه ليكونوا شركاء جرائمه وخلان ملذاته وقواد شهواته ومقاسميه فيما نهب. هؤلاء الستة يدربون رئيسهم على القسوة نحو المجتمع، لا بشروره وحدها بل بشروره وشرورهم. هؤلاء الستة ينتفع في كنفهم ستمائة يفسدهم الستة مثلما أفسدوا الطاغية، ثم هؤلاء الستمائة يذيلهم ستة آلاف تابع يوكل إليهم مناصب الدولة ويوهبون إما حكم الأقاليم وإما التصرف في الأموال ليشرفوا على بخلهم وقساوتهم وليطيحوا بهم متى شاؤوا، تاركين إياهم يرتكبون من السيئات ما لا يجعل لهم بقاء إلا في ظلهم، ولا بعداً عن طائلة القوانين وعقوباتها إلا عن طريقهم. ما أطول سلسلة الأتباع بعد

ذلك! إن من أراد التسلي بأن يتقصى هذه الشبكة بوسعه أن يرى لا ستة آلاف ولا مائة ألف بل أن يرى الملايين يربطهم الطاغية بهذا الحبل».

ويرى (لابواسييه) أن هذه السلسلة يمكن أن تمتد بالطول والعرض من خلال فتح الباب لكل مظاهر الحظوة: «من هنا جاء خلق المناصب الجديدة وفتح باب التعيينات والترقيات على مصراعيه. كل هذا يقيناً لا من أجل العدالة بل أولاً وأخيراً من أجل أن تزيد سواعد الطاغية».

أما نوعية الناس التي تلتف حول الطاغية فيجب أن تكون من معدن خاص، يقول لابواسييه: «ما إن يعلن حاكم عن استبداده بالحكم إلا والتفّ حوله كل أسقاط المملكة وحثالتها، وما أعني بذلك صغار اللصوص بل أولئك الذين يدفعهم طموح حارق وبخل شديد ليصيروا هم أنفسهم طغاة مصغرين في ظل الطاغية الكبير. هكذا الشأن بين اللصوص ومشاهير القراصنة: فريق يستكشف البلد وفريق يلاحق المسافرين. فريق يقف على مرقبة وفريق يختبيء. فريق يقتل وفريق يسلب».

ويصف الكواكبي في كتابه «طبائع الاستبداد» هذا النموذج من الأعوان: «الحكومة المستبدة تكون طبعاً مستبدة في كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطي والفرّاش وكنّاس الشوارع. ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقته أخلاقاً؛ لأن الأسافل لا يهمهم جلب محبة الناس وإنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد. وهذه الفئة يكثر عددها ويقلّ حسب شدة الاستبداد وخفته، فكلما كان المستبد حريصاً على العسف احتاج إلى زيادة جيش العاملين له

واحتاج إلى الدقة في اتخاذهم من أسفل السافلين الذين لا أثر عندهم لدين أو وجدان واحتاج إلى حفظ النسبة بينهم بالطريقة المعكوسة وهي أن يكون أسفلهم طبعاً أعلاهم وظيفة وقرباً. إن العقل والتاريخ يشهدان أن الوزير الأعظم هو اللئيم الأعظم في الأمة».

ونعود إلى قصة تشاوسيسكو، فبعد تصريحه عن شجرة البلوط والتين جمع الناس في صعيد واحد واستنفر الزبانية وسلّح (السيكوريتات) ثم خرج على الناس يخطب في الجموع: أليس لي ملك رومانيا وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون؟ واستخفّ قومه فأطاعوه. ثم حدثت المفاجأة عندما صفر أحد الحاضرين استهزاءً فانكسر حاجز الخوف ولم ينفع رصاص القمع وكانت شرارة تحوّلت إلى حريق كبير التهم كل نظام الطاغوت في ساعات فقطع دابر القوم الذين ظلموا وقيل الحمد لله رب العالمين.

١٣

ثورة سلمية
في مكان غير متوقّع

(الدرس اليوغسلافي: لا تنجح ثورة في إطاحة
طاغية ما لم تكن الأوضاع الداخلية قد
نضجت بما فيه الكفاية)

ظهرت صورة الطاغية (ميلوسوفيتش) على صفحة غلاف المجلات وقد رشقت بقبضة من وحل على وجه مكفهر وكانت نهايته بثورة سلمية بدأت بإضرابات عمال المناجم في (كولوبارا KOLUBARA) في ٢٩ أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠٠م لتتدفق لاحقاً مئات الآلاف إلى شوارع العاصمة فتحتل كل المراكز الهامة بدون دماء بعد أن سقط النظام في الخريف كما تتساقط أوراق شجر القيقب في كندا مضرّجة بالأحمر الزاهي. وعبّر عن هذا التحوّل الجديد الزعيم اليوغسلافي (فويسلاف كوستونيكا Vojislav Kostunica) قبل أيام من إطاحة الطاغية (ميلوسوفيتش): «إنه يمكن لنا أن

نحقق ثورة سلمية حكيمة متحضّرة ديموقراطية». ﴿بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ويستعرض (ماسيمو كالابريسي Massimo Calabresi) من واشنطن كما جاء في مجلة «التايم» (عدد ١٦/٢٠٠٠) تحت عنوان: «لعبة القوة.. كش ملك» كيف وصل الغرب إلى وصفة الخلاص: «لقد حاولوا عبثاً التخلص من سلوبودان ميلوسوفيتش فلم ينفع معه القصف أو التفاوض أو الحصار وعندما انجلى الغبار عن حملة ٧٨ يوماً من الحمم على رأسه ظهر على السطح مجدداً متمكناً من السلطة كأشد ما يكون وبدأ الأميركيون يحكّون رؤوسهم في دواء فعّال للتخلص من الشقي». وعندما قلّب الغرب في دفتر تجاربه المريرة مع عتاة الحكم في أوروبا الشرقية وما هي إمكانيات التخلص من بقايا الجيل الستاليني عثر على ضالته في الحكمة الكبيرة التي تقول إنه لا يمكن إسقاط نظام ما لم يكن قد نضج الوضع الداخلي بما فيه الكفاية. عندها قد تنفع الأساليب الخارجية من تقوية المعارضة وتسليط الإعلام وبذل الأموال وأحياناً ممارسة شيء من القوة العارية لكنها لا تزيد على المزيد من المشاركة بدفع صنم ينهار أو المساعدة في مخاض ينتهي. وعندما كانت جثة النبي سليمان على العرش ﴿ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ [سبأ: ١٤]. إنه التصدي لاستئصال سرطان خبيث. نعم إن الديكتاتورية سرطان لعين ينمو ببدايات بسيطة لا ينتبه لها أحد مثل الغرسة الضعيفة لتصبح شجرة باسقة طلعها كأنه رؤوس الشياطين تظلل بأغصانها شعوب كاملة بالرعب وتغلّف سماء حياتهم بشفق أحمر من المعاناة. وتبقى المراهنة في التخلص من الطغاة على تحرك الجماهير (سلمياً) إلى الشوارع تطالبهم بالتنحي، وهذا الذي حدث في يوغسلافيا عندما

اقتحمت الجماهير في أيام قليلة أماكن الاستبداد وكنستها بعد ثلاث عشرة سنة من الطغيان. ويشكك (ماسيمو كالابريسي) في الوصفة التي نجحت في يوغسلافيا أن تثبت فعاليتها في أماكن أخرى من العالم الثالث ترزح في سلاسل الديكتاتورية: «إن السؤال في كيفية التخلص من طاغية هو من أكثر المسائل الشائكة في السياسة الخارجية» ليصل في النهاية إلى الدرس المستفاد من صدع البلقان «في الوقت الذي تشجع الديموقراطية تحصد سقوط عتاة الطواغيت». أو بكلمات القرآن ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١]. من العجيب أن الصورة التي أخذناها عن الصرب هي أنهم قتلة، ولكن صور التلفزيون تنقل لنا إنجازهم الرائع بحيث نقف نحن خلفهم بدرجات عما حققوه. وكل السر أن نضج الأمة هناك وصل إلى مستوى تشكيل المعارضة العاقلة بحيث نرى انتخابات فيها قدر من المعقولية وإمكانية أن تفتح المعارضة فمها للمواجهة. نعم إن هزيمتنا أمام الأنظمة القمعية ليس لها حدود في استعمار جديد بدون احتلال عسكري تثبت طفولة سياسية وأمة قاصرة تعجز عن حكم نفسها. إن رحلة الديموقراطية لم نبدأها بعد بدون تباشير إلى الاهتداء إلى طريق في الصحراء العربية. ومع كل الفظاعات التي حصلت في يوغسلافيا تبقى أمة فيها قدر كبير من النضج والعافية بحيث تحرك مظاهرات وتخرج قيادات تتحدى الطاغية وتزاحمه في الانتخابات. أما عندنا فهي في ثلاث صور: إما إلوهية الحاكم، أو التصويت لواحد ليس عندنا بديل عنه في أمة عقيمة ملغية، أو وضع ديكور سياسي كاذب. وبهذه الصورة من التألق يجب فهم كيف حدث ما حدث وكيف أنجزت صربيا ثورتها السلمية وأن في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى. وعندما أتأمل أوراق الخريف هذه

الأيام وهي تسقط أعرف أنها تتهاوى عندما يحين وقت سقوطها، فلم تسقط الأوراق في الصيف مع عبث الهواء كما لم يحفظها من السقوط في الخريف هدوء الريح. إنها حكمة بالغة في إدراك أن العوامل الداخلية هي التي تلعب الدور الفيصل في ولادة الأحداث. إن ما حدث في يوغسلافيا هو من المناخ الأوروبي الذي يظلل مساحات من التربية العقلية وإفراز المؤسسات. يقترح الفيلسوف البريطاني (برتراند راسل) طريقة مثيرة لتعليم الأطفال، وهي عرض أشد الآراء تضارباً على وعيهم من أجل ثلاثة أمور: تخليصهم من الإيديولوجيات الصارمة، وتحصينهم ضد البلاغة والمحسنات اللفظية، وأخيراً بناء العقل النقدي. يقول (راسل) في كتابه «القوة» تحت عنوان ترويض السلطان: «ولو قدّر لي التحكم في شؤون التربية لعرّضت الأطفال للاستماع إلى ما يقوله أكثر الدعاة غلواً وعنفاً من جميع الفرقاء عن مختلف المواضيع المهمة، على أن يتحدث هؤلاء الدعاة إلى المدارس عن طريق الإذاعة البريطانية. وعلى المدرّس بعد ذلك أن يدعو الطلاب لتلخيص الحجج التي استعملت وأن يُدخل برفق في عقولهم الرأي القائل بأن البلاغة تتناسب تناسباً عكسياً مع المنطق السليم. ولا ريب أن من أهم الأمور لمواطني النظام الديموقراطي الحصول على المناعة من البلاغة». إن الحكم المطلق مرتبط دائماً بعقيدة مطلقة، ومناخ من هذا النوع يعتمد أكثر من الحجة التكرار الببغائي والهوس العقائدي، وهذا يخلق في النهاية ليس حزبين يتحاوران بل جيشين يتصادمان، ولا يمكن بأي حال بناء حياة ديموقراطية أو نقاش برلماني في جو من هذا النوع. مع هذا يجب الانتباه إلى عمل الوجدان، فالإدراك لا يحرك إلى العمل كما تفعل المشاعر. وبتعبير (راسل): «الحكمة ليست شيئاً إدراكياً مجرداً. فالإدراك قد يوجه ويرشد ولكنه لا

يولد القوة التي تؤدي إلى العمل فهذه القوة يجب أن تستمد من المشاعر ولا تتولد المشاعر التي تؤدي إلى نتائج اجتماعية مستحبة بطريقة سهلة تشبه تلك التي تتولد فيها مشاعر الكراهية والسخط والخوف».

حتى يتم التخلص من الاستبداد لا بد له من وعي. وكما يقول ماركس من أن الفقر لا يفجر ثورة بل (وعي الفقر) ولا شيء يحرك المشاعر أكثر من إدراك الفروق والإحساس بالظلم. ولكن الوعي لا بد له من نشر، وهذا يقود إلى فكرة (تمليح المجتمع) من خلال حمل (كتلة حرجة) من الناس الفكرة الجديدة أو بتعبير (الكواكبي): «فالأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية». إن مثلث النهوض بالأمة هو ثلاثة عناصر (مؤسسات+ أفكار+ أشخاص) ولا بد من توافر (الكتلة الحرجة) فيه كما هو الحال في كل سر دوائي أو صناعة حربية. فالقنبلة النووية مثلاً كانت الكتلة الحرجة فيها سراً حربياً لا بد من الوصول إليه حتى يحصل الانفجار؛ والماء حتى يغلي لا بد له من درجة حرجة، كذلك الانتفاضات الجماهيرية لا بد لها من درجة سخط حرجة وشعور جماهيري أنه (لا بد من التغيير) وهي مشاعر جماعية فلا بد من نضجها لأن الاستبداد يأكل الجميع مثل الطاعون والإيدز فلا يفرق في هويات المتنازعين فكرياً ولا بد من إيجاد شبكة اتصالات بينها على شكل (تنظيم هلامي) تجتمع فيه كل العقول المعارضة بحيث إن ذراع السلطة مهما ضرب لا يصيب إلا الفراغ، فلا شيء أخوف للسلطة من العمل المنظم، وأي عمل (مبلور) هو مصيدة رائعة لجواسيس السلطة وأجهزتها الأمنية الضاربة؛ فيجب أن يتخذ العمل ثلاث صفات: أن يكون (علنياً) أو (منظماً) على شكل (كتلة هلامية) غير مبلورة لا تقوى السلطة على تدميره، وأن يكون

نظام الاتصالات فيه فكرياً أكثر منه إدارياً ولكن عنده القدرة على التحول بسرعة إلى تنظيم مبلور. كما أن هناك عنصراً تقنياً في الثورات وهو نظام الاتصالات، وهو في مصلحة الجماهير اليوم من خلال تطور (الأنفوميديا) أي مزيج المعلومات مع الإعلام. ويعزو الكواكبي فشل الأئمة من آل البيت في التاريخ بإطاحة الحكومات الجائرة إلى عنصر فني هو غياب (البوستة) أي عدم وجود نظام لانتقال المعلومات بسرعة كافية. ونحن عاصرنا انفجار الثورة الإيرانية بالكاسيت وباستخدام أسلوب فني حيّد أعظم جيش ضارب في المنطقة ولم تنفع معه أساليب أذكى الأجهزة الاستخباراتية وأشرسها وكان بعكازتين من (الإضرابات والمظاهرات). ومن المهم أن يكون التغيير كما يقول الكواكبي «باللين والتدريج» بمعنى أن لا يعتمد العمل المسلح ولا يخطط له ولا يفكر فيه، ويكون هذا عقيدة (استراتيجية) وكل من تورط فيه كان من أهل الفتنة لأن العنف يستبدل طاغية بطاغية.. إن أجمل ما صاغه الكواكبي في وصفة الخلاص من الاستبداد هو الانتباه إلى أن تغيير الحاكم ليس شرطاً لإنهاء الطغيان بل وضع الكوابح أمامه، ولقد كانت الملكة فيكتوريا كما ذكر تتمنى أن تحكم عشرة أيام على هواها. إن الدرس اليوغسلافي يفتح أمام أعيننا أساليب جديدة للتغيير في الشرق الغارق بالدم والطغيان. ولكن كما يقول القرآن ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون﴾ [يوسف: ١٠٥].

١٤

الدولة والعنف

عندما مرّ كونفوشيوس على مقربة من جبل (تاي) أبصر امرأة تقف إلى جانب أحد القبور تبكي بمرارة وحرقة. فسارع المعلم إليها. وبعث بتلميذه (تسي ـ لو) يسألها: إنك لتبكين يا امرأة وكأنك احتملت من الأحزان فوق الأحزان. فردت المرأة تقول: وكذلك الأمر، فقد قتل نمر من قبل والد زوجي في هذا الموقع. وقد قتل زوجي أيضاً. وها هو ولدي قد مات الميتة نفسها أيضاً. فقال المعلم: ولماذا.. لماذا لم تتركوا هذا المكان؟ فردت المرأة: ليست هنا حكومة ظالمة. فقال المعلم آنذاك: تذكروا قولها يا أولادي «إن الحكومة الظالمة أشد فظاعة من النمر». نعم إن الحياة في غابة أفضل من الحياة في مجتمع بدون قانون. ويعقّب الفيلسوف البريطاني «برتراند راسل» في كتابه «السلطان» على هذه الواقعة للتأكد من «كون الحكومة أقل فظاعة من النمر» فيرى أن مشكلة ترويض السلطان موضوع قديم: «وظنّ الطاويون أنها مشكلة لا تحلّ فنصحوا

بالفوضوية.. وجرّب العالم الحكم العسكري المطلق والثيوقراطي والملكية الوراثية وحكم القلة والنظام الديموقراطي وحكم القديسين. ويدل كل هذا على أن مشكلتنا لم تحل بعد». تقوم الدولة على العنف واحتكاره ولا شيء أوضح من عنف الدولة من الآلة العسكرية الجاهزة للضرب في أي لحظة فتجد الشرطي مسلحاً بمسدس محشو الطلقات، والقوات المسلحة مبرمجة لقتل أي كان في أي لحظة على الأوامر مثل أي آلة حديدية فاقدة الإرادة تعمل بضغط الأزرار، أو رجل الأمن وهو يلقي القبض على المواطن فيرفع رجليه (للفلق) كما يجري في أقبية الكثير من البلدان العربية لانتزاع الاعترافات. وهذا النوع هو (السلطان العاري) ويمكن للدولة أن تمارس ضغطها الساحق في صور شتى كما في علاقتنا بالحيوانات سواء بتعليق الخروف بحبل وشده بعنف، أو عندما يلحق الحمار الجزرة مقتنعاً أن مصلحته في أن يفعل ما نريد، أو الحيوانات التي تتقن (التمثيل) وسطاً بين هذين الصنفين، أو بصورة مغايرة كما في قطعان الأغنام عندما نريد حملها إلى البواخر فنجر قائد القطيع بالقوة فلا تلبث حيوانات القطيع الأخرى أن تسير وراءه راضية مختارة». وحسب (راسل) فإن: «حالة الخروف تتمثل في سلطان الشرطة والقوات العسكرية. وتمثل حالة الحمار والجزرة سلطان الدعاية. وتظهر الحيوانات الممثلة قوة التعليم فتؤدي الجماهير التحية للقائد البطل. أما القطيع الذي يتبع قائده المقهور على إرادته فيتمثل في السياسات الحزبية عندما يكون زعيم الحزب أو قائده موثوقاً إلى زمرة من الناس».

إن مشكلة الدولة التي اخترعها الجنس البشري تشبه الفأر الذي استأجر لنفسه مصيدة. والسؤال: متى ولماذا وكيف ولدت الدولة؟ يضع (بيار كلاستر) عنواناً مثيراً لكتابه «مجتمع اللادولة» مفترضاً أن

الدولة ليست شرطاً للاجتماع الإنساني وهي شيء طارئ على الإنسان. وهذا صحيح من جانب. ويذهب ابن خلدون في «المقدمة» إلى تقرير الاجتماع الإنساني (كضرورة للبقاء) بسببين (الغذاء) و (المدافعة). أما عالم الأنثروبولوجيا (بيتر فارب) فيرى في كتابه «بنو الإنسان» أن المجتمع يصنع الفرد من مادة خام إلى كائن اجتماعي. ففي عام ١٧٩٩م تم العثور على صبي متوحش في غابة (أفيرون) وكان أقرب إلى الحيوان فحاول الدكتور (إيتار كسبار) تعليمه آداب السلوك والنطق فنجح في تهذيبه قليلاً، أما النطق فكان الطريق إليه حجراً محجوراً، مما يشير إلى أن السنوات الأولى في عمر الإنسان حاسمة لإدخاله المجتمع الإنساني وامتصاصه كل الخبرات المتراكمة وتعلّمه النطق ليتحول إلى كائن اتصالات. إن الوالدين يمنحان الفرد وجوده البيولوجي بالجينات ولكن المجتمع بالثقافة يختزل كل التاريخ للطفل. وحتى هنا كان شرح المسألة في جانبها السهل والإيجابي ولكن المعادلة المحيرة التي تعجز رياضيات المجتمع عنها هي في الجانب السياسي. يرى (راسل) أن المخلوقات البشرية لا بد لها من أن تعيش على نحو جماعي ولكن رغباتها: «خلافاً لرغبات النحل تبقى فردية ومن هنا تنشأ المتاعب والحاجة الماسّة إلى قيام حكومة» وعند هذا الخيار الموجع بين (فوضى الغابة) و (طغيان الدولة) ولدت الحكومات ولكن مع عدم التكافؤ في السلطان: «إذ إن من يملكون أكثره يستخدمونه لتحقيق رغباتهم التي تتعارض مع رغبات المواطنين العاديين، وهكذا فإن الطغيان والفوضى يتشابهان في نتائجهما المدمرة» أو كما قال أفلاطون في كتابه «الجمهورية»: «إن عقيدتي هي أن العدالة لا تخرج على أن تكون مصلحة الأقوى». ويرى المؤرخ (توينبي) أن الجنس البشري بنى مجتمعات بدائية ربما وصل عددها إلى ٦٠٠ قبل أن تبنى الحضارات وكانت في حدود ٣٠ حضارة. وهي رحلة قصيرة في

عمر البشرية بدأت قبل ستة آلاف سنة. وانطلقت على الأرجح من جنوب العراق الحالي، ولا يستبعد أن يكون طوفان نوح هو زناد نشر الحضارة في الأرض كما أظهر ذلك بعض الأحداث الأركيولوجية الحديثة، عندما ارتفع مستوى المحيطات بذوبان جليد القطب قبل ٧٥٠٠ سنة فاندفعت إلى المتوسط وفوهة الدردنيل حيث واجهت عتبة صخرية صغيرة محل البوسفور الحالية، وكان زخم تدفق المياه أقوى من شلالات نياجارا بـ ٤٠٠ مرة وارتفاع الموج ١٥٠ متراً فانكسرت العتبة وتدفقت المياه واجتاحت منطقة صوامع حبوب العالم القديم حول بحيرة كانت في منطقة البحر الأسود الحالي خلفها لتفاجىء مجموعة الشعوب المتحلقة حولها، ومع فرار هذه المجموعات البشرية الأولى في كل اتجاه انتشرت بدايات الثورة الزراعية إلى كل مكان. وكما نقلنا عن ابن خلدون في تصوره لضرورة الاجتماع الإنساني أنه لو فرضنا «قوت يوم من الحنطة فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري، فلا بد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف». وبولادة الدولة العصرية أمكن للإنسان أن يقفز من مرحلة الغابة إلى مرحلة الحضارة فأنتج فائضاً من الغذاء وتحرر من الجوع وتشكلت الحكومة المركزية التي احتكرت العنف لنفسها مقابل توفير (الأمن) للأفراد الذين يعيشون تحت ظلها واستسلامهم الكامل لإرادتها. ومع الأمن أمكن للناس أن يعيشوا ويتبادلوا السلع والخدمات ويظهر النقد والتجارة وتشق الطرقات وتبنى الجامعات وكل ما نعرفه عن نعمة الحياة العصرية.
هذا هو الجانب الإيجابي من مظاهر الدولة ولكن مع ولادة الدولة برز إلى السطح مرضان كريهان: (الطغيان الداخلي) و (الحروب

الخارجية). فمع سقوط تفاحة السلطة الشهية في يد الأفراد والنخب أدركوا أنهم وضعوا أيديهم على امتيازات مخيفة، فالعرش لذيذ ومغرٍ لأبعد الحدود عندما تجتمع كل السلطات بيد شخص أو حزب أو عائلة أو طبقة أو طائفة تحتكرها لنفسها وتتميز بها. والحاكم لا يترك السلطة أبداً ولا النخبة التي تسبح في عسل السلطة بالعشي والإبكار. وكما يمرض البدن يقع المجتمع في قبضة الطغيان فيصاب بعاهة في رحلة تطوره. وهو المرض الذي جاء الأنبياء في التاريخ لعلاجه ﴿ولن تجد لسنّة الله تبديلا﴾ [الفتح: ٢٣] بحيث تؤدي (آلة الحكم) وظيفتها من خلال تأمين جرعة الأمن المناسبة للمجتمع لا يزيد. المجتمع لا ينمو بدون (أمن) ولكن تحوّل أجهزة (الأمن) إلى أجهزة (رعب) يقتل كل تطور. ويذكر (فرانسيس فوكوياما) في كتابه «نهاية التاريخ» أن القيادة السوفياتية اضطرت في النهاية أن تفكك جهاز الرعب الذي صنعته بيدها، وكما يقول المثل العربي: «سمّن كلبك يأكلك». فكما كانت الجرعة الدوائية في حدودها المقررة شفاء من المرض كذلك كانت الجرعة الزائدة سمية قاتلة. كانت وظيفة الأنبياء إيقاظ ضمير الإنسان إلى عدم الاستسلام لألوهية البشر من خلال طغيان الدولة. وأن لا تقدم الأمهات أولادهن طعاماً لملهاة الملوك في الحروب على حد تعبير توينبي. و(جرعة الأمن المناسبة) لا تحتاج إلى بناء جيوش وأجهزة أمنية بحجم الديناصورات. ولكن المشكلة معقدة بسبب (الطبيعة البشرية). ودرس الإمام الغزالي قديماً ظاهرة «عشق السلطة» واعتبرها آخر ما يخرج من قلوب الصالحين، وهي لذة لا توازيها أي لذة في الدنيا عندما تتحرك الجموع بإشارة من يد، وتخرّ الرقاب ساجدة بحمد القائد، وبحركة إصبع ترمى صرر الذهب إلى الأتباع والمقرّبين. أو بتعبير (راسل): «الحيوانات تكتفي بالتوالد والبقاء لكن الإنسان يتشوق إلى التوسع والتمدد، فكل إنسان يود أن يكون إلهاً

إذا أمكنه ذلك وقليلون الذين يجدون من الصعب عليهم قبول هذه الاستحالة». وراهن الدين على منحنا صفة إلهية، وهي الخلود في جنات تجري من تحتها الأنهار. ثعبان «البوا» إذا جاع ازدرد فريسته ثم عاود النوم بعد إشباع غريزته، ولكن (كزركسيس) الملك الفارسي لم يكن ينقصه طعام أو زوجات عندما اتخذ قرار الهجوم على اليونان، كما أن (نيوتن) لم يكن ينقصه مال عندما طوّر كتابه «المبادئ في الفيزياء». ويعتبر التفسير الاقتصادي الماركسي للتاريخ أعرج لا يقوى على الوقوف أمام هذه الظاهرة. عند هذه النقطة يأتي دور الأنبياء الاجتماعي عندما قالوا «لا إله إلا الله» بمعنى سحب الامتيازات من البشر في صورة الملوك والكهنة والعرافين والسحرة أو الحكام العصريين الذين يمارسون دور الألوهية ويدّعون الديموقراطية. وهذا هو لبّ التوحيد وهو الذي تسعى إليه الديموقراطية الحديثة بنزع السلطان من يدي الأفراد أو الأقليات وإشراك أكبر عدد ممكن بشكل فعلي في اتخاذ القرار، وكل نفس بما كسبت رهينة. وهذا التوحيد ليس سماوياً بل أرضياً وهو سياسي اجتماعي وليس تيولوجياً غيبياً. وهو ما يفسّر تعرّض الآمرين بالقسط من الناس للقتل. وأما المشكلة الثانية التي ولدت مع الدولة فكانت الحرب. فالصراع المسلّح كان وما زال بين الدول أو عند تفكك الدول. وبقدر ما نجحت الدولة في توفير الأمن للأفراد داخل مظلتها عجزت عن ذلك مع مربعات الدول المجاورة لانعدام قوة أكبر تحسم النزاعات. وكما يقول (علي الوردي) في دراسته الموسوعية عن (تاريخ العراق الحديث): «إن الدول الآن تعيش المرحلة نفسها التي عاش فيها الأفراد قبل ظهور الحكومات المحلية، فكل دولة تريد أخذ حقها بحد السيف». وهذا يعني بكلمة ثانية أن ظاهرة الحرب سوف تستمر حتى تقوم دولة عالمية تحسم النزاعات بقوات مسلحة صغيرة فعّالة مجهزة للحمل لأي مكان ومزودة

بأسلحة متطورة. وهذا قد يحتاج ربما إلى مائتي سنة أخرى.

ودّع آدم الجنة ودخل وأبناءه تحت مظلة الدولة: بعضهم لبعض عدو، وولدت الحضارة بالتحدي، وتقدّم البشر على جسر من المعاناة فوق نهر من الدموع، وكتب التاريخ بمداد أحمر. وتساءلت الملائكة عن جدوى خلق هذا الكائن المفسد المجرم وكان الجواب الإلهي: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

١٥

سفينة تغرق؟

(لماذا يهاجر المواطن العربي؟)

كانت القاضية الكندية تنطق بكلمات واضحة بطيئة تكررها باللغتين الفرنسية والإنكليزية: أيها السيدات والسادة، نحن نعلم الرحلة الصعبة التي قطعتم، والأوطان الغالية التي فارقتم طمعاً بمصير أفضل لتستقروا في هذا البلد الرائع. أيها الناس، نحن فخورون بهذا الاستقطاب لثمانين إنساناً ينتمون إلى ما يزيد على ثلاثين جنسية.

تابعت: دخلتم هذه القاعة مهاجرين وتخرجون منها مواطنين مثلي لا أتميز عنكم بشيء. الحقّ أقول لكم: ادخلوا هذا البلد بسلام آمنين، واعتنقوا الدين الذي به تؤمنون، وتنقّلوا واعملوا في أي مكان تحبون، وادخلوه وغادروه في اللحظة التي ترغبون، تعلّموا قول الحق والعمل به وفي ذلك لومة لائم لا تخشون. علّموا أولادكم ذلك وعلى محاربة كل ألوان التمييز العنصري والجنسي كونوا حريصين.

في النهاية ختمت القاضية خطبتها: والآن قوموا فيلسلم بعضكم على بعض فقد أصبحتم بنعمة الله إخواناً. عندها لم يتمالك معظم من في القاعة عن إمساك دموعهم مبللة بذكريات مؤلمة من جمهوريات الخوف ودياسبورا التشرد. كان أكثرهم بكاء عائلة فلسطينية. كانت الخطبة تذكر ببيعة الصحابة لرسول الله (ص)؟!...

هذا الكلام ليس دعاية للهجرة إليها فالناس يهرعون إليها من مشارق الأرض والمغارب بأشد من جذب المغناطيس لبرادة الحديد بين قطبين: يأس من وطن لم يبق فيه مكان للمواطنة، وأمل بوضع القدم في أرض الميعاد، يسبحون في تيار أطلنطي على ظهر مركب من ذهب، لينعموا ببلد يجمع بين سحر الطبيعة والنظام وكل الضمانات، تحتل فيه كندا الرقم واحد في العالم حسب إحصائيات الأمم المتحدة على الرغم من برده الزمهرير في درجة حرارة قد تصل شتاءً إلى ٦٣ تحت الصفر، ولا يشعر مواطنوه بذلك البرد الذي يضرب مفاصل المواطنين العرب في شتاء الشرق الأوسط الدافيء؛ فالحضارة كما نرى لا تعرف الجغرافيا!

لماذا يغادر الكندي بلده ويعود إليه في أي وقت يشاء وبدون تأشيرة؟ يعود هذا إلى مرسوم «الحريات والحقوق» التي تسلم باليد كأول وثيقة مع تهنئته على الجنسية تتضمن حقه أن يغادر بلده كما يحلو له فالوطن بيته، ومتى يسأل الإنسان، وممن، إذناً بمغادرة بيته أو الإيواء إليه؟ أما الحدود العربية فقد تحوّلت إلى أسوار شاهقة لسجون كبيرة تحتجز مواطناً مسكيناً ويتيماً وأسيراً؟

ما معنى تأشيرة الخروج في البلاد العربية؟ إنها مؤشر فاضح لمواطن

مدان سلفاً في سجن كبير يحتاج إلى تدقيق قبل مغادرة محبسه للتأكد أنه غير مطلوب للعدالة بدون عدالة، برسوم تقصم الظهر لدول تئن تحت العجز المالي تمد يدها إلى آخر قرش في جيب مواطن مفلس! فمن ٢٢ دولة عربية يتراجع النمو في ١٧ منها في وقت يتضاعف فيه السكان مرتين حسب كتاب «فخ العولمة» في مطلع ألفية لا مكان فيه للعرب حسب شهادة المؤرخ (باول كينيدي)... إنها أجراس إنذار مفزعة لأناس فقدوا حاسة السمع؟

عند بوابات الحدود العربية تطل سحنة موظف عابس كاره لعمله، فيتسارع نبض المواطن العربي مع تسليم الجواز، ويجف ريقه متظاهراً بالابتسام، في سحنة صفراء لا تسرّ المستقبلين، ثم تبلغ القلوب الحناجر في انتظار عودة الجواز، أو تدور الأعين كالذي يغشى عليه من الموت عندما يتأخر الجواز فلعل المواطن مطلوب لجهة أمنية؟

ما معنى تسرب الكفاءات وهرب رؤوس الأموال ونزيف الأدمغة وصدور أفضل الكتب والمجلات تطبع بالحرف العربي في مكان لا يوجد فيها ناطق واحد باللسان العربي؟! إنها رواية بائسة عن وطن بلا دماغ! فهل يمكن لكائن ممسوخ من هذا النوع أن يعيش؟

يقول المثل القوقازي: «من يفقد وطنه يفقد كل شيء»، بدون حبل سري ومشيمة ثقافية، يمشي فوق أرض بدون جاذبية وفقد التوازن الخلاّق، مكِباً هائماً على وجهه، هل يستوي هو ومن يمشي سوياً على صراط مستقيم؟ في ورطة من نوع محيّر فلا الشرق يعجبه ولا الغرب يسعده ويعيش نفسياً في الأرض التي لا اسم لها؟

ما معنى تدفق المهاجرين العرب إلى كل أصقاع الأرض يشكلون

١٠٪ من سكان مونتريال في كندا وهم لا يعلمون؟ يحلمون بجنة أرضية جديدة، بعد أن غادروا وطناً تحوّل فيه بعضهم لبعض عدو، بلجوء جوع إلى السويد وألمانيا، أو الاستعداد للزواج من أي فتاة أجنبية للقفز معها إلى المجهول هرباً من جمهوريات الخوف والجوع والبطالة، أو شراء جوازات سفر من الدومينيكان والأرجنتين بعشرات الآلاف من الدولارات بدون وجود، في تحصيل جنسيات لعائلاتهم يأمنون بها على أنفسهم في الشرق المنكود، لعلها تنفع يوماً إذا زلزلت الأرض زلزالها؟

لو فتحت السفارة الكندية أبوابها لهجرة مفتوحة بدون شروط في أي عاصمة عربية لزحف إليها كل إنسان بين ١٦ والـ ٦٠ عاماً كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداعي يقولون هذه فرصة لا تفوّت؟ في فرار من سفينة تهوي في رحلة موجعة إلى قاع المحيط بأسرع من غرق «التايتانيك»؟

المواطن العربي لا يتمتع اليوم بأي حصانة بما فيها الحاكم على رأس الهرم الاجتماعي، فلا ضمانة لأي إنسان أو شيء في أي مكان أو زمان، في إحساس بالدوار، بدون أمل في معرفة الاتجاهات، معرضاً لهجوم أي حيوان ضارٍ، في غابة تتشابك فيها الأكواع، في وطن تفوح منه رائحة القلة والذلّة ويتنفس فيه الإنسان مع جزئيات الهواء أجهزة الأمن؟ مواطن بلا وطن، ليس عنده قوت يومه، غير آمن على عياله، لا يعرف ماذا يحمل له المستقبل الأسود من هموم، خارج إحداثيات التاريخ والجغرافيا، يعيش ثقافة ميتة ودّعت نبض الحياة، يعيش كي لا يعيش، لا يمر يوم إلا والذي بعده أشرّ منه، في رحلة تردٍّ لا تعرف التوقف، في حجم مشاكل أكبر من التطويق فوق مستوى من بيده القرار والحل، يتخرج فيه الطالب الجامعي

بدون أمل في مرتب يوفر له سقفاً يظله، أو يمنحه إمكانية بناء عائلة ينجب فيها أطفالاً سعداء يثقون بأنفسهم وبالحياة، في مجتمع يمشي باتجاه كارثة محققة! لقد أصبح وضعنا مهزلة للعالمين، في حجم النكتة بدون أن يضحك أحد. أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون؟

لقد عاش جيلنا كلاً من الوهم القومي الثوري وحمى الحركات الإسلامية وانتهى إلى إفلاس الاثنين، في مؤشرات حادة أن حالة المريض تزداد سوءاً واختلاطاً بدون دلائل انفراج في الأزمة، لينشأ جيل (الصدمة) وأخطر ما فيه شعوره أن العلم لا قيمة له ولا يدفع مسغبة الجوع، في وقت تدفع فيه أرحام الجامعات شباباً عاطلين إلى شوارع مكتظة بالفقراء.

ليس غريباً أن ينشأ تيار أشد من المكنسة الكهربائية يشفط كل العقول والأموال في تيار أطلسي أقوى من ظاهرة النينو باتجاه ديموقراطيات تضخ أوكسيجين الحياة وتوديع ثقافة استبداد تعيش عصر بيعة الخليفة العباسي الواثق بالله لشعب ولد أخرس يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً؟ من يستطيع الهرب من الأوضاع يبحث عن الخلاص الفردي بين ركاب سفينة يتخاطفون أطواق النجاة يلقي أحدهم بنفسه في اليمّ وهو مليم، فإن لم يهلك هو ماتت ذراريه في بطن الحوت الرأسمالي ما لم يكن من قوم يونس، أو غرق في لجج ثقافة غريبة تضرب سفينتنا الغارقة بموج كالجبال. ليس أمامنا للنجاة في طوفان الحداثة إلا الانطلاق بمشروع بناء سفينة نوح من الفكر جديدة؟ ولكن المشكلة ببساطة أن نوحاً لا يعيش بين ظهرانينا، ونواجه مشاكلنا بخطب وأدعية من العصر المملوكي ودول الطوائف، وعقولنا مبرمجة في متاهات فئران التجربة

في قبضة مسلمات لا فكاك منها، نحتاج إلى ولادة جديدة من رحم امرأة عجوز عقيم في انتظار استنساخ أسطوري.

لقد تحوّل الوطن في أحسن أحواله في عين المهاجر إلى وقت قصير للاستجمام مع كل مغامرة الدخول المحفوفة بالخطر، للتمتع بطقس جميل لا فضل فيه للجهد البشري، واستعادة ذكريات الطفولة، يعيش الفرد أجمل لحظاته في الطائرة إلى الوطن وعند الخروج منه، عندما يكتشف بمرارة أنه لا يستحق أكثر من إجازة، فلقد كان فيما سبق وطناً، قد يتمنى أن يدفن فيه ولكن لا أن يعيش فيه بحال؟!

اجتمعت بعائلة مهاجرة كندية مكونة من زوج وزوجة أنفقت عليهما حكومتهما بسخاء ورجعا بأعظم شهادة جامعية، فلما رجعا إلى الوطن كانت المفاجأة أكبر من الصاعقة، فغادرا البلد بعد عدة سنوات في حالة ذهول وقد تبخرت من رؤوسهما الأحلام الولادية، وتركا خلفهما الشهادات الكبيرة للوطن؛ فهما يتكسبان عيشهما اليوم في محل لبيع ملابس الأطفال، في شهادة صاعقة عن مصير العلم في الوطن العربي الكبير.

الحصان العسكري
(نموذج الثورة الإيرانية السلمي)

كل حصان قابل للترويض إلا الحصان العسكري فإنه يجمح براكبه فيدق عنقه. هكذا جاءت أخبار الانقلابات ووقائع التاريخ. وهذا المرض أصيبت به كل فصائل المنطقة من قوميين وإسلاميين؛ فأما فريق القوميين فقد التهم بعضهم بعضاً عندما أصبحت السلطة والسلاح في أيديهم، وأما حسن البنا مؤسس (الأخوان المسلمين) فقد قضى نحبه عندما انفجر به لغم (التنظيم الخاص) الذي صنعه على عينه، فلم يكن مصرعه سوى رد فعل عادي على مقتل النقراشي و (يداك أوكتا وفوك نفخ).

حينما يعزم الجناح المدني على القفز إلى السلطة على ظهر الحصان العسكري يرى الأخير أنه وضع دمه على كفه في هذه المغامرة فهو أولى بثمرة السلطة، وإذا قامر فريق ثان فسوّلت له نفسه الانقضاض على الذئب الأول كان جاهزاً بالمرصاد لسفك الدم؟؟ فالقتل

وسفك الدماء شرط أساسي لاستتباب الأمن في نظر الانقلابيين؟

عندما فشل هتلر في انقلابه عام ١٩٢٣م وجلس في السجن انكبّ على تأليف كتابه الشهير «كفاحي» (Mein Kampf) وفيه وصل إلى قناعة كاملة أن الوصول إلى السلطة في ألمانيا يجب أن يكون بالطريق الديموقراطي. وهكذا جاء هتلر إلى السلطة عام ١٩٣٣م، وعندما سقطت في يده تفاحة السلطة الناضجة أقسم له الجيش البروسي ذو التقاليد العريقة على الولاء، ولكن (روهم Ruhem) قائد الميليشيات العسكرية لم يستوعب هذه الحقيقة، ولما تمرّد قام هتلر بتصفيته فقتله بيده، فهذه هي حكمة العسكريين الأولى التي يجب تلاوتها بخشوع من كتاب ميكافيللي «الأمير»: «على الحاكم أن يكون ماكراً كالثعلب دموياً كالنمر وعليه أن يقتل بدون تردد»؟ أما ما وقع في إيران فلم يكن انقلاباً عسكرياً دشنه ضباط مغامرون على ظهور الدبابات في جنح الظلام بين ظهراني أمة نائمة. بل كانت (ثورة) اعتمد فيها الخميني تكتيكاً مزدوجاً وطبّقه بنجاح استحوذ على دهشة العالم فمشى على ساقين من (الإضرابات) و (المظاهرات) يحركها (كاسيت) ينتشر بين جماهير غاضبة، ولم يكن أمامه سوى أن يعيّن أربعينية كل شهيد لتتحرك مظاهرة جديدة فشهداء جدد فأربعينية جديدة، وفتح الناس صدورهم للرصاص بروح استشهاد الحسين، وشاركت المرأة فكانت تسابق الرجل. وفي يوم الجمعة الأسود ٨ آب عام ١٩٧٨م حصدت الطائرات المروحية في مظاهرة تضم نصف مليون إنسان ٤٥٠٠ إنسان منهم ٦٥٠ امرأة؟ والتحمت كل القوى السياسية في ثورة نادرة، وكان الناس يضعون الورود في فوهات البنادق ويقولون للجندي أيها المسلم لا تقتل أخاك؟! وعندما كان الشاه يصدر أوامره بمنع التجول كان الخميني يطلب

من الجماهير العزّل من أي سلاح أن تنزل إلى الشوارع وكانت الناس تستجيب له بسواعد عارية وهتاف «الله أكبر»؟!

إذا كان الغرب قد جفل وزُلزل زلزالاً شديداً بما تحقق في إيران وكان التلفزيون الألماني وقتها يذيع نصف برامجه عن الثورة الإيرانية فإن هناك بعض (العباقرة) من المنظّرين السياسيين عندنا قالوا لا جديد تحت الشمس فهذه ثورة تدبرها الاستخبارات الأميركية؟؟

هناك حقيقة لم يستوعبها العرب حتى اليوم: أن الزلزال الإيراني كان (ثورة سلمية) ولم يفرّقوا بين (الثورة الإيرانية) و(الانقلاب العسكري العربي) وسال لعاب البعض وتلمّظ لقلب أنظمة الحكم بالسلاح وهو ما لم تفعله الثورة في إيران، لأن الجيش الإيراني تفكك ولم يتدخل وتهاوت المؤسسة العسكرية وشعر الجنرالات الستمائة الذين ربّاهم الشاه على عينه أن السيطرة على الجيش أفلتت من أيديهم وعليهم الآن أن يصالحوا الثورة أو أن ينجوا بجلودهم؟ ولكن الغموض الذي حصل جاء في النهاية عندما بدأت الأسلحة تسرق من الثكن وبدأت بعض المجموعات العنفية من جماعات «مجاهدي خلق» تتسلح وتنتقم من «السافاك» الذي كان قد صفّى قياداتها قبل اندلاع الثورة!! ففي الوقت الذي نجحت الثورة (سلمياً) وانتصر (الدم) على (السيف) في تقويض كل النظام سارع بعض الحاقدين لتصفية حساباتهم القديمة بعيداً عن روح الثورة في التسلي بالعيارات النارية.

هذه المظاهر الشاذة لفتت نظر شبابنا ولم يستوعبوا كل العمل البطولي النادر الذي فعلته الثورة وكانوا يقولون لي: تأمل ضرب الرصاص؟!! وهنا كنت أتذكر قول الجاحظ: «لو قطعت أنف

أحدهم بالمقص كان أسهل عليه من استيعاب هذه الفكرة»؟!.

إن ما يحدث من إطلاق بعض العيارات النارية يشبه ما يطلقه البعض في الجنازات، فجثة النظام الشاهنشاهي شبعت موتاً والأمة تحتفل بولادة ثورة وهناك بعض مظاهر الشذوذ في التعبير وهو متوقع، فهناك من يعلن عن فرحته بالأهازيج وإطلاق العيارات النارية. ولم تنجح الثورة لأنها اصطدمت ببقايا الحرس الإمبراطوري من الجيش الإيراني الذي تمزّق شر ممزق بدون طلقة واحدة. ولكن هل يمكن لأناس تمكن العنف من مفاصل تفكيرهم أن يستوعبوا هذه الحقيقة؟؟ لعله من الأسهل أن تقطع أنوفهم بالمنشار وبدون تخدير عن استيعاب حدث ضخم من هذا النوع والحجم؟؟

مع هذا فإن الأمر المحزن هو في (السر) الذي استخدمه الخميني ورأى فيه (تكتيكاً ناجحاً) لم يدركه حتى الخميني نفسه: إنه (قانون) يمكن تعميمه وتطبيقه حتى في حربه مع العراق، وهذا ما يفسّر نجاح الثورة المدهش ضد الشاه ونكستها الشنيعة في الحرب بعد ذلك، فبقدر ما زُلزل الغرب مع اشتعال الثورة بقدر ما وضع رجليه في ماء باردة مع نشوب الحرب مع العراق؛ فمع الثورة لا يوجد علاج، ومع الحرب يملك الغرب كل العلاج؛ فالثورة عندما دخلت ميدان الحرب خرجت من الساحة التي نجحت فيها إلى الحقل الذي لا سيطرة لها عليه وتملك أميركا كل السيطرة فيه؛ فكانت تهدد أوروبا في أوقات سوء التفاهم: هل أوقف الحرب؟ فالسلاح المتطور كانت تمد به ثلاثون دولة لحرب تقول هل من مزيد في ثماني سنوات عجاف يأكلن ما قدّمت لهن من مليون شاب و٤٠٠ مليار دولار وبما هو أطول من الحرب العالمية الثانية، وكما نجح الخميني في ثورته بهذه الخلطة السحرية من الكيمياء

الجديدة التي خرج بها على الناس كان يمكن أن ينجح في حربه ضد العراق وهو الذي يملك من (الكاريزمائية) ما يكفي ليخاطب الجماهير فتلبّي، خصوصاً وقد استوعبت درس الثورة السلمي وحققت النجاح بسواعدها العارية، ولربما غيّرت هذه الاستراتيجية العالم كله.

كان بإمكان الخميني أن يدفع مئات الآلاف من الناس أن تستلقي أمام الدبابات العراقية من نساء وأطفال ورجال وبحضور التلفزيون العالمي بالصوت والصورة كما فعل غاندي مع مسيرة الملح؟ لربما دهست الدبابات الأولى بعض الناس ولكن الجندي العراقي كان سيقع تحت مواجهة قاسية مع ضميره وأصيب بالجنون وهرب من دبابته وانهارت المؤسسة العسكرية العراقية بدون طلقة واحدة كما حصل مع طاغوت سابق أكبر يدعمه طاغوت عالمي، ولكن فكرة (اللاعنف) لم تكن قد استولت على الخميني كما جذّرت نفسها عند (غاندي). والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إن ما حدث في إيران لربما لم يستوعبه حتى الإيرانيون؟! لأن ما حدث بعد ذلك يشير إلى عدم الانتباه إلى قانون التغيير هذا؛ فبقدر ما كانت ثورة إيران تقول: ليس عندي استعداد أن أقتل ولكنني مستعد أن أموت؟ بقدر ما بدأت الثورة بعد نجاحها بحفلات إعدام لا نهاية له لوثت كل إنجازاتها، وكان بإمكانها أن تقول كما قال محمد (ص) لأهل مكة: اذهبوا فأنتم الطلقاء؟ أو تفعل كما عملت جنوب أفريقيا بإنشاء لجان الاعتراف والمسامحة.

نحن في كلامنا هذا نريد أن نتخلص من أية حساسية ونحن نحلّل الحدث وننظر إليه في بعده الإنساني الذي يخضع لسنّة الله في

خلقه بعيداً عن السنة والشيعة، بعد أن انقضى على الثورة ما يزيد على عقدين وبدأت علاقاتها كـ (دولة) تعتدل مع دول الجوار يقودها رجل مثقف، لا ضابط.

ما يهمني هو تحليل الحدث ضمن (قانون) حدوثه لفهم آلية عمل (القوانين الاجتماعية) ولكن بيننا وبين الإدراك بُعد المشرقين. وكل ما نكتب لا قيمة له وما يغيّر الأمم هو المعاناة فقط ﴿ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس: ٩٧].

١٧

صراع داوود وجالوت

كيف لبس الإسرائيليون قميص نيسوس؟

شهادة الصحافي الإسرائيلي (أوري آفنيري): (المناطق المحتلة تسمم بدننا بالتدريج. إنها تكرار لقصة هرقل مع قميص الحب المسموم)

تقول الأسطورة اليونانية القديمة إن (سنتاور نيسوس Centayr Nessos) أهدى إلى زوجة هرقل (ديانيرا Deianira) ثوباً زعم أن فيه سحراً للحب، ولكن الرسول اللئيم الذي نصفه إنسان ونصفه حصان عمد إلى عين حمئة مسمومة فلطّخ الثوب بها. وعندما لبس هرقل القميص وسرت في مفاصله قشعريرة الحب ومعه السم لم يستطع خلعه.. فمات البطل الهمام عاشقاً مسموماً. يقول الصحافي الإسرائيلي (أوري آفنيري): «يبدو أن هذا هو قدر إسرائيل مع الأراضي المحتلة. في ٢٥ شباط/ فبراير من عام ١٩٩١م كانت الحرب عاصفة في الخليج في أيام نحسات تنزع

الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر». وصدر عدد مجلة «دير شبيغل» (Der Spiegel) الألمانية التاسع وعلى صفحة الغلاف الرئيسية منظر معبّر يجمع بين هزيمة العراق على شكل وجه الرئيس العراقي متفحماً بفوهات من بناء مهدّم وكتب تحتها كلمتان: السلام ـ متى؟ ولكن العدد نفسه حمل مقالة تحليلية عميقة لصحافي إسرائيلي مرموق هو (أوري آفنيري Uri Avnery) مزج فيها بين الأسطورة والتاريخ والسياسة، وهي مقالة أضعها تحت النور بعد مرور عقد على كتابتها تعطي فكرة عن الأدمغة النيّرة في المجتمع الإسرائيلي كيف تفكر. وهي ضرورية للقارئ العربي كي يفهم كيف يحلل مثقفو إسرائيل الأحداث. وكيف يتجرأون أن ينتقدوا الأوضاع بألسنة حداد بدون خوف أن يصبح مصير أحدهم في أقبية المخابرات معتقلاً إلى أجل غير مسمّى لأنه تجرأ ففكر فقُتل كيف فكر. وهي شهادة عاقل وشاهد من أهلها. كما تكشف النقاب عن بعض أسرار حرب الخليج وعبثيتها. وأهم ما في المقالة أمران: أن انتصار إسرائيل في حرب ١٩٦٧م واحتلال أراض جديدة كان لعنة مقنعة. وأن حرب الخليج كانت بهدف تربية العالم الثالث كله أن لا تقوم له قائمة. واليوم نرى الأمرين بوضوح حيث انتقل الصراع إلى أحشاء إسرائيل الداخلية في مغص لا نهاية له. ودخل العرب نفقاً لا نهاية له من الإحباط واليأس في ظلام حالك يجلّل سماء التفكير العربي ليس لها من دون الله كاشفة. يقول (آفنيري) عن حرب الخليج: «كانت أشبه بالمعجزة، فأميركا تحطّم الآلة العسكرية العراقية والمثل العبري القديم يقول إن الله يكافىء الرجل الصالح فيسوق له من ينجز له عمله. صحيح أننا تلقينا الصواريخ العراقية ولكن هذا لم يكلفنا في شهر أكثر من اثنين من القتلى وهو حصيلة حوادث الطرق في يوم واحد. لقد تحسّن وضعنا السياسي بشكل رائع ونمثل دولة

مؤدبة لا تدافع عن نفسها ضد جار شرير بل وتتنازل عن الانتقام». ثم يستطرد (آفنيري) لمقارنة الوضع مع عام ١٩٦٧م: «لقد كنا في ما يشبه هذا الوضع عام ١٩٦٧م وفي ذلك الوقت أيضاً حصل ما يشبه المعجزة. كانت إسرائيل يومها غارقة في أزمة اقتصادية وتحت ضغط سياسي وفجأة وبدون مقدمات تدفّقت الفرق المصرية وهدّدت حدودنا! ولأسابيع ثلاثة ساورنا القلق على مصير إسرائيل. إلا أن الذي حصل أن جيشنا اندفع في كل الاتجاهات ليحطم ثلاثة جيوش عربية ويحتل كل فلسطين وكل سيناء ومرتفعات الجولان وكانت سكرة الانتصار. واليوم يعلم البعض أن ذلك النصر المؤزر كان لعنة مقنّعة. إن المناطق المحتلة هي قميص نيسوس الذي ورد في الأسطورة وهي تسمّم بدننا بالتدريج عضواً فعضواً. والمصيبة أننا لا نستطيع أن نخلع عنا هذا القميص لأننا وقعنا في غرامه كما حدث مع هرقل وزوجته. يبدو لي أن حرب الأيام الستة كانت هدية مسمومة أو لعبة خبيثة يزجي بها آلهة الأولمب وقتهم إلى الأبد. كأن إلهاً ماكراً سلب حواس وإدراك إسرائيل في ذلك الوقت. ولم لا؟ فالمزاج المتعب قبل الحرب والنصر الذي يخطف الأنفاس بعد ذلك والاحتلال غير المعقول. وبدلاً من إنشاء دولة فلسطينية بعد النصر كما اقترح البعض فإن العمى ضرب القيادة الإسرائيلية. وبذلك حقّت عليهم الكلمة وطبقوا الأسطورة اليونانية فلبسوا قميص نيسوس.

إني أخشى أن يحصل لنا الشيء نفسه بعد هذه الحرب. إن الإجماع الوطني اليوم يختنق في مشاعر تتراوح بين الحقوق التقليدية إلى مستوى الفاشية الجديدة. في مثل هذه الأجواء يصعب أن نتوقع أن تتصرف حكومتنا بشكل منطقي وتستفيد من العظات ودروس التاريخ فتعقد الصلح مع العرب وتمنح الفلسطينيين دولة مستقلة بهم

ليس بفعل الضغط من الخارج بل بقرار مستقل ومن موقع القوة. بكلمة أخرى أن نستفيد من الفرصة التاريخية ولا نضيعها كما أضعنا فرصة عام ١٩٦٧م. ولكن كيف سنلبس قميص نيسوس؟».

إن هذا الكلام الذي ننقله عن (أوري آفنيري) لا يتجرأ كاتب في البلاد العربية أن يلفظ أو يكتب عشر معشاره. وهذا يعني أن بنية إسرائيل الداخلية صحية بقدر عدوانيتها إلى الخارج. بقدر تعفن الأوضاع عندنا في تقديس سادتنا وتأليه كبرائنا.

بعد هذا يتساءل الصحافي (آفنيري): «من الذي ينسف مشاريع السلام في المنطقة؟ هل هو اللوبي اليهودي؟ هل هي مصانع الأسلحة؟ هل هي الإرادة التي تريد استخدام إسرائيل كرهينة من أجل المحافظة على دول النفط أن تبقى تحت السيطرة الكاملة؟ إنها خليط من كل هذا لا أحد يعلمه بما فيهم الأميركيون، ولعل بعض مبادرات السلام سوف تبدأ بعد الحرب، ولكن الإنسان حين يتكلم عن مبادرات السلام فهو لا يريد للسلام أن يحدث».

وفي نهاية المقالة يطرح السؤال عن حرب الخليج فيقول: «إن الإجابة صعبة لأنها في حقيقتها حرب عبثية». وعندما يحاول استقراء الأسباب يضع تسعة تساؤلات تتراوح بين: «ماذا يريد بوش حقاً؟ هل يريد إزالة الطغاة؟ هل يريد حماية الدول الصغيرة من جاراتها الخبيثات؟ هل هو التنظيم العالمي الجديد؟ هل هي من أجل النفط؟ هل هي من أجل حماية الدول المجاورة؟ هل هو الخوف من أسلحة الدمار الشامل؟» ليصل إلى تفنيدها نقطة بعد الأخرى: فأميركا تعتدي على الجيران، وتحافظ على الطغاة، وهي التي مكّنت العراق من السلاح الكيمياوي وسكتت عن استعماله في إبادة الأكراد

والإيرانيين عندما كانت مصالحها مع الطاغية. ولم يعطل قرارات الأمم المتحدة إلا الفيتو الأميركي. وأما النفط فهل سيشربه العراق أم سيتابع بيعه؟ وأما المفاعل النووي فقد دمر وهناك من دول الجوار ما تملك من السلاح الكيمياوي ما هو أخطر من النووي. وهل تحتاج حماية الدول المجاورة إلى شن حرب عالمية وكان يكفيها حامية بسيطة. يعقّب (آفنيري) على ما مرّ: «إن أميركا تتصرف مرة أخرى بشكل يدعو للسخرية كما فعلت قبلها كل القوى العظمى في التاريخ». ويصل في نهاية تحليله: «سوف يقول الساخرون إن هذه الحرب كانت هبة من السماء لتجار الأسلحة بكل أنواعهم لأن العديد من أنظمة التسلح سوف تجرب في المنطقة للمرة الأولى وبدلاً من تكديس الأسلحة في ألمانيا فمن الأفضل أن ترسل إلى الشرق الأوسط وتستخدم هناك (كما نسمع عن قذائف اليورانيوم المنضب المسببة للسرطانات والتي ظهرت على السطح هذه الأيام) في الوقت الذي تدفع ألمانيا واليابان ودول المنطقة الثمن. ولكن من يستطيع الاعتقاد أن هذا هو الشيء الحاسم الذي دفع بوش لقرار الحرب؟». ويقرر (آفنيري) في نهاية تحليله أن «عبثية الحرب تبدو واضحة للعيان حينما نتأمل أموالاً لا تحصى تنثر في الصحراء من أجل الإطاحة بطاغية صغير لإنتاج فيلم كاوبوي يمثل فيه بوش دور الشريف وهو يطارد شقياً». إنها مبررات الحرب الخفية والعميقة حسب (آفنيري): «إن أخشى ما تخشاه الإدارة الأميركية هو بروز شخصية كاريزمائية تصل إلى توحيد الشرق وإنهاء الاحتكار الأميركي. إنه الدافع الذي جعل الولايات المتحدة تسقط (مصدق) وهي التي دمرت عبد الناصر». ونسي (آفنيري) أن (صلاح الدين) غير موجود. وفاته أن يضيف توريط (الخميني) في الحرب مع العراق في ثماني سنوات عجاف أزهقت أرواح مليون مسلم وسببت خسارة ٤٠٠ مليار دولار. كما نسي أن يضيف أن تدمير

(مصدق) كان بسبب ضعف وعي الجماهير بحيث رتبت وكالة الاستخبارات الأميركية انقلاباً رخيصاً تقوده عصابة من أشقياء وحرافيش الشوارع بمبلغ خمسة ملايين دولار. وأما تدمير صنم عبد الناصر فكان سهلاً لأنه كان من الصلصال كالفخار. إن المشكلة دوماً ليست في الطغاة بل في الجماهير العمياء المغفلة. يقول (آفنيري): «إنه ليس من المصادفة أن تبدأ الحرب العالمية الرابعة فيما لو افترضنا أن الحرب الباردة مثلت الحرب العالمية الثالثة بين الشرق والغرب. أما الآن فقد بدأت الحرب بين الشمال والجنوب. بين الدول الصناعية والدول المنتجة للمواد الأولية». ويخلص الكاتب إلى هذا الدرس: «إن أميركا تريد أن تعطي درساً للعالم الثالث برمته: أن لا ينهض على قدميه ولا يفكر بالمقاومة أبداً». إن أجمل معارك أميركا هي مع السلاح المتطور الذي يدمّر في ساعات، فلا يعقل أن تزوّد أميركا الطغاة بأسلحة كي يتفوقوا بها عليها. يقول (آفنيري) إن هذا السيناريو هو «الأرجح والأخطر من نوعه» ويقترح (آفنيري) أن تتصرف إسرائيل قبل أن يتهددها الخطر الأكبر بالتفاهم مع العناصر الوطنية الفلسطينية وتقديم سلام مشرف للجيران العرب: «بهذه الطريقة يمكننا أن نعطل مفهوم التسمم وأن نتفادى اندلاع البركان. ولكن هل نفعل ذلك حقاً؟ بكل أسف يبدو أن القضية ليست كذلك». ويبدو أن السم مع الموت وحب الاحتلال بدأ يفعل مفعوله في قميص هرقل، يقول (آفنيري): «يبدو أننا تلبسنا قميص نيسوس ولا فكاك منه». إن التحليل الذي تقدّم به الكاتب الإسرائيلي شهادة رجل عاقل من عمق الإنتلجنسيا الإسرائيلية تروي حقيقة المشكلة وأن إسرائيل تورّطت بلباس لن تنتزعه إلا بنزع الروح. وهو بشير بولادة أمة جديدة من رحم المعاناة. إن داوود يناجز جالوت، وقد انقلبت الأدوار بعد ثلاثة آلاف سنة. هل يمكن أن نستوعب أن انهيار الجهاز المناعي العربي هو الذي مهّد لنمو

الورم الصهيوني، وهل يمكن أن يراجع حكام العرب أنفسهم ويقوموا بتوبة لما اقترفت أيديهم تجاه بعضهم البعض، وأنهم متشابهون فلا نفرّق بين أحد منهم. وإن حل المشكلة ليس عند أميركا بل بأيدينا. ورد في الحديث أن المسليون إذا اختصما ثم التقيا فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام. إن مرض الثقة خطير وبناؤه صعب وكسره سهل. ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ [الشورى: ٣٠].

١٨

القابلية للاستبداد

في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي وقف خروتشوف يتساءل: كيف يتسنى لشخص واحد مثل ستالين أن يتحكم بمصائر ملايين البشر ويرسل إلى الموت مليون شخص من أوكرانيا فقط؟ ليست المشكلة في تعطّش فرد لسلطة لا نهائية، ولكن كل المشكلة هي كيف تركع الجماهير لآلهة كاذبة؟ ما هو سر هذا السحر وكيف نفك طلسمه؟

لعل أفضل من حلّل ظاهرة «المرض الاجتماعي» هو مالك بن نبي حينما وجّه نظره إلى (الاستعداد) كتربة جاهزة لانغراس جراثيم المرض، وبذلك قام بإنجازين هامين في الفكر العربي، أولاً: في نقل المعركة من الميدان السياسي إلى الميدان الثقافي، ونقل الصراع العربي ـ الإسرائيلي من جوهري إلى هامشي؛ فالمرض العربي قاد إلى الاختلاط الصهيوني.

قاد مالك بن نبي بتحليله إلى قلب ترتيب الأولويات عندما اعتبر (القابلية) للاستعمار تشكل وضع (امتصاص) وبذلك وضع تشخيصاً بارعاً لمرض الحضارة الإسلامية. إن ظاهرة القابلية للاستعمار تشكلت في وقت مبكر تحت قباب القيراون ودمشق وبغداد قبل أن تزحف جيوش الاستعمار لاحتلالها. هذا المرض هيأ للتفسخ الداخلي قبل الاجتياح الخارجي، وهو الذي يفسّر تسلّط الديكتاتوريات وبزوغ نجمة داوود. نحن لم نتحرر بعد من هذا المرض الذي يعشّ كالروماتيزم الخبيث في مفاصل ثقافتنا.

يعتبر القرآن كتاباً متفرداً في طرح مصطلح لم يألفه الناس تحت عنوان (ظلم النفس) لأن الناس اعتادت أن تلوم كل شيء إلا نفسها، وبذلك قام القرآن بتوفير الطاقة لدفعها في المسار المنتج. ليست المشكلة بعدم وجود عناصر خارجية تفجرها ولكن القطاع الفعلي الذي نتمتع بالتحكم فيه هو عالمنا النفسي، وليس عندنا إمكانية لدخول المشكلة إلا من بوابته، وبتعطيل هذا المسار يتعطل حل المشكلة فلا يرى الضوء.

طرح القرآن ظاهرتين لعلهما أهم الأمراض الإنسانية قاطبة (علاقات القوة) بين المستضعفين والمستكبرين، ومشكلة القصور التي واجهت آدم وإبليس وتحديد الموقف منها. لم يدخل إبليس طريق اللعنة واللاعودة إلا عندما اعتبر نفسه بريئاً من الخطأ وأن (الله) هو الذي أغواه (بما أغويتني) في حين أن آدم وقف هو وزوجته يعللان سبب السقوط بقصور داخلي (ربنا إننا ظلمنا أنفسنا) كمنهج صحيح في مواجهة المشاكل.

إن المشاكل ليست فيها تحديداً بل بموقفنا منها، فلا تعود مشاكل

بل تحديات لاستنفار الجهد. وهذا المنهج يدفع نحو تراكم الخبرات.

عرض القرآن مسرحية (الظالمين) أنهما شريحتان تتقدم الأولى حاملة لواء (المستضعفين) قبل ظهور مجموعة المنتفخين المستكبرين، تماماً كما في الفيلم بأصله الفاحم (Negative) تستخرج منه الصور الإيجابية زاهية الألوان. المستضعفون هم تربة إنجاز وتفريخ طبقة الطواغيت المستكبرين، وهي كما نرى مشكلة ثقافية قبل أن تكون سياسية.

بهذا القلب في التصوّر تصبح نظرية (كوبرنيكوس) اجتماعية، فلم تعد الشمس تدور حول الأرض، ولم يعد الحكام يفعلون ما يشاؤون، ولا يعني قلب أنظمة الحكم الدخول إلى العالم السحري الفجائي لتغيير الأوضاع. لذا طرح القرآن نظرية تغيير ما بالنفوس كأساس لتغيير الأوضاع ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ [الأنفال: ٥٣].

في عام ١٥٦٢م كتب (إتيين لابواسييه) في شرح آلية الطغيان أن الطاغية يقف على رأس هرم محفوف بنظام متدرج من ستة من الأشخاص يزينون له ما يفعل، يوجهون بدورهم ٦٠٠ شخص من تحتهم في شبكة عصبية متمادية إلى ستة آلاف وستمائة ألف، بحيث يفعل الطاغية ما يفعله الدماغ من إفراز كيمياوي بسيط من جرعة النانوغرام كي تنقل له الشبكة كل الأخبار وتحرّك له كل العضلات وتفرز كل الهورمونات.

ويقترح (لابواسييه) ترياقاً ضد هذا السم الاجتماعي يقوم على سحب الطاعة فقط؛ فلا يمكن لأي ديكتاتور أن يستمر في الحياة لو

أن الناس جلسوا في بيوتهم ولم ينزلوا إلى العمل ويتعاونوا معه، ولكن الأمر يحتاج إلى ثلاثة شروط: الوعي والتنسيق والتضحية، لذا يخاف كل طاغية من رائحة أي تنظيم ويتمنى بل يدفعه إلى أن يكون سرياً لا شرعياً أو عنيفاً مسلحاً فيتم اصطياده باللاشرعية ويقطع رقبته بكل سهولة وراحة ضمير.

تركتني أشقى...!

يا سَاكباً في أقداحي شرابًا..
كمرارات الزّمنْ..
ساحقاً على جراحي..
أملاحِ الفراقْ..
موغلاً في صدري..
خناجر موت العناقْ..
تسحلني إلى عذاباتٍ تُدمي..
عُمق أعماقي..
تَنْدَثِرُ خُطوطي..
تتلاشى صفحاتي..
وتختفي في الزوايا المنسيَّة..
سطور تاريخي المشرق..
البعيدُ.. البعيدُ القصيرْ..

من يوم الدعوة..
إلى يوم موت الداعية.

* * *

من أنتمْ أيها الغرباءْ..؟
هل أنتم الفواحش والمعاصي..
الشّرك والنفاقْ..
الظلم والطغيانْ..؟
الفساد والاستبدادْ
لا.. بل من أنتَ..؟
أيها الناعمُ النّجسْ..
الذي أسميت نفسك الخليفة
هل أنتَ.. أنتَ..
ذلك الذي أعرفهُ..
لا أراه.. لا أتبينه..
ذاب في كأس التاريخْ..
نشرب منه حتى الموتْ..
عذابات العبيدْ..
قرناً بعد قرنْ..
إلى اليوم.. إلى الآنْ.

* * *

من أَنتَ أيها الوغدُ الباقي..؟
المعتدي والباغي..؟

من ألفٍ وأربعمائة عامْ..
فقدنا على يدك الرشدْ..
علمتنا الحقدْ..
درّبتنا على العداءْ..
صبغتنا بالجبروت والطغيانْ..
لطّختنا بالدماءْ..
اغتصبتَ ثم فتكتَ..
بجنّتي.. بحبيبتي..
تركتني أشقى..
أحارب الظلامَ في الظلامْ..
أتلمّس طريقي..
في أقبية الخفاءْ..
أحاول أن أُلملمَ..
بعضاً مما تبقّى..
من حريّتي.. حبيبتي..
التي وهبنيها الله..
وتمرّ.. تمرّ السنين..
بدون أملٍ.. بدون رجاءْ.

* * *

أنتَ.. أنتَ الذي أعرفه..
لا أراهُ.. لا أتبينهُ..
أنتَ لا زلتَ تدّعي..
من وقتها.. إلى الآنْ..
أنك وحدك.. أنتْ..

خليفة الله في الأرضْ..
ونحن كلنا عبيدٌ لكْ.

مائدة الحرام..!؟

في أيِّ بلدٍ خائفْ..
بين أيِّ شعبٍ واجفْ..
في أيِّ بلدٍ مستكينْ..
لحدِّ السّيفِ.. لحدِّ السّكينْ..
بين أيِّ شعبٍ رعديدْ..
جبان ومتخلّفْ..
هناك قاعدة واحدةٌ مشتركةْ..
هناك علامةٌ بارزةٌ وواضحةْ..
بين الحكامِ والمحكومينْ..
هي الخوفُ المرعبْ..
والرّعبُ شارعٌ بالجاهينْ..
فالشّعبُ والبلدُ... كلّهُ يخافْ..
يخافُ السّلطة والتسلّط..

الحكومة وأجهزتها تخافْ..
تخاف الشّعب والشّارعْ..
والتّنظيمات والحريّاتْ.

* * *

المؤمن لا يخافُ إلاّ الله..
السّلطة المؤمنةُ لا تخافُ إلا الله..
الجبنُ والتخلفُ لا يتكاثرُ..
إلاّ على أرض كافرة..
بين شعبٍ بليد مستضعفْ..
وزنادقة متسلّطين.

* * *

هناك قاسم مشتركٌ أعظمْ..
بين معظم الجميعْ..
هو الجهل بالله..
هناك الكل أقْسَم..
على الاشتراك في مباراةٍ..
بين التخلف والجبروتْ..
أعلن الشيطان..
أن الكل في المعركة انتصرْ.

* * *

أما أنت وهو وهي..
داخل وخارج الحدودْ..
فإننا إمّا ضيوفاً على مائدة الحرامْ..
أو مضيفين لعصابة من اللئامْ..
داخل قصر منيفْ..
ظاهره رخامْ.. باطنه صخامْ..
احتلّهُ.. استولى عليه..
قوم يأجوج ومأجوجْ.

ديدان الضياع..!

تتبدّل أحوالي..
يتدمّر كياني..
وتضيع منِّي الأماني..
بعد أن تكسَّرتْ..
كل نبالي وسهامي..
تهدّني العواصف بالتصادمِ..
مع حسرة البدايةْ..
تنذرني البروق بالتلاحمِ..
مع حتمية النهايةْ..
فَأنظُرُ خلفي..
تشدني إليه معاناتي الماضيةْ..
أستغرق في الندمْ..
أكتشف أنني مدمنٌ..

يستعبدني الخوف والشّكْ..
تستولي على روحي الظّنونْ..
أقتات السّراب والوهمْ.

* * *

طموحاتي تزاحم قدري..
تريد أن تختصر عمري..
قدري وطموحاتي يستهلكاني..
يطلقاني كسهم مشتعلْ..
يحترق في فضاء الخواءْ..
بلا دخانٍ أو هدفْ..
قضيتي مترددة حائرةْ..
تثير في نفسي..
أسئلة قاسية حائرةْ..
عن الوهم والندمِ..
فيرفض عقلي ومنطقي..
الموافقة والإشادة والترديدْ..
والمبادرة بقولٍ..
طيّبْ.. زينْ.. حاضر ونعمْ.

* * *

سطوري السابقة عباراتٌ..
مَجبولةٌ بالقهر والجنونْ..
مبنية خلف السدود الوقحةْ..

معجونة بسوائل الذّلْ..
تَلطُم حريتي وكرامتي..
تهزأ منّي وتعذبني..
غير مكترثة بإنسانيتي..
غير عابئة بمشاعري وعواطفي..
أنكتُ مرغماً.. أنطرحُ صاغراً..
أستسلم مهزوماً لديدان الضيَاعْ.

الكل من حولي في المدينة لا ينام..

في الماضي من الأيام..
كنت كعامة النّاس..
حزيناً أعيش مع الآهاتْ..
مسحوقاً في أدنى الدرجاتْ..
قد أبدو رصيناً صامتاً..
صدري يحبس أمواج الزّفراتْ..
أما الآن فقد بعت نفسي..
للسلطة والسلطان
أنا اليوم عبدٌ للطغيان.

* * *

في الصباحِ يُسخّرني السّلطانُ..

لكي أكتب تقريراً طويلاً..
كل ورقة بطول الزّمانْ..
عن أصحابي والجيرانْ..
عن زيد وفلان وعلاّنْ..
عن أيّ ملاحظة..
على جريدة أو مجلّة..
إعلان أو (يافطة)..
عن التّلاميذ في الحافلة..
إن كانوا يتهامسون أو يتصارحونَ..
هل ذكروا السّلطان بسوءٍ..؟
سبّوا الشّرطي في الطريقْ..؟
هل دخلوا فصولهم بضجيجٍ..؟
أم بنظامٍ وهدوءٍ..

* * *

في الظّهرِ أقدّم تقرير الصّباحْ..
أتسلّم مهمّة أخرى..
هي أعسر من الأولى..
هي أن أتجسّسَ..
أراقب السّجّان والسُّجناءْ..
أكتب وأسجّل..
من يبتسمْ.. من يضحكْ..؟
من يغضبْ.. من يبكي..؟
من يتردّدْ.. من يتلعثمْ..؟
من يحبس العبراتْ..؟

وأراقب السجّانْ..
للشرطة والمباحث والمخابراتْ..
أقول لهم بكل صراحهْ..
إن كان في جسم الحكومة خيانه..؟
أو أنّ كلّ شيء على ما يرامْ.

* * *

بعد الغروب وفي المساءْ..
مهمتي في غاية الصّعوبهْ..
فالمطلوب منّي..
أن أراقب الأذان.. المؤذّن والإمامْ..
والمصلّين في المسجدْ..
مطلوب منّي أن أفرّقَ..
إن كان صوت المؤذّنْ..
رخيماً أم حزيناً..؟
وهل حضر المصلّونَ..
فرادى أم جماعاتْ..؟
هل بينهم شبّان وشابّاتْ..؟
هل قرأوا القرآنْ..؟
أم تحدّثوا عن حياة رسول الله..؟
هل تناقشوا في أمور السّلطهْ..؟
تحاوروا في شؤون السلطانْ..؟
وكم عدد المصلّينَ في صلاة المغربْ..
وعدد المواطنين والأغرابْ..؟
الذين صلّوا صلاة المغربْ..

من منهم لم يخرج من المسجدْ..؟
إلى أن حان وقتُ صلاة العشاءْ..
هل ألقى الإمام محاضرةْ..؟
هل كانت موعظةْ أو سياسةُ..؟
هل الإمام من الموالينَ..؟
أم من الرّافضين..؟
ومن أعادَ وردّد وكرّرَ..؟
ليتَ.. لعَلّ.. عَسَى..
مَنْ وقف.. من خرجْ..؟
مَنْ همسَ في السّرْ..؟
مَنْ صرخ في العلنْ..؟
مَنْ المُتحفّظْ.. مَنْ اللاّمبالي..؟
مَنْ مِن الممكن تدجينه..؟
مَنْ مِن المستحيل تجنيده..؟
ومن استغفَر وسبّحْ
وَمن فاتته ركعةْ..؟
ومن صلّى السّنّةْ..؟
الشفع.. الوترْ وتهجّدْ..؟
عليّ أن أسجّلَ حتّى من قالْ..
الحمد لِلّه ولا إله إلا اللّه..؟
والمهم الأهمّ..
أن أذكر بالتحديدْ..
من طلبَ من الله..
زَوَال الظّلم والظالمين.؟

* * *

قَبل أن أنامْ..
أكتُبُ تقريري..
أُفكِّرُ في غدي..
في صُبحي.. ظُهري والمساءْ..
ثم أنامْ..
والكلُّ من حولي في المدينة..
لا ينامْ.

الطغاة..!

يعتقد الطّاغية.. كل طاغية..
قزماً كان أم عملاقاً..
في دولة مفلِسة.. في بلدٍ غنيّ..
يَطغى من معسكرٍ في الفلاة..
أو من قصر من قصور الثراء..
يعتقد الطّغاة..
في أيّ مكانْ.. في أي زمانْ..
أنّهم آلهة.. أنّ بطانتهم ملائكة..
وأنّ كتاب الزّمانْ..
سيبقى مفتوحاً على صفحتهمْ..
وأنّ المكان لن يتغيّرْ بوجودهم..
ويؤمنون أنّهم قد يمرضونْ..
ولكنّ الشّفاء عاجلٌ..

أكيدٌ ومضمونْ..
وأنّهم باقونَ.. باقونْ.

* * *

ينسيهم الله أنفسهمْ..
فينسون أو يتناسون الموتْ..
وما بعد الموتْ..
من حسابٍ وعذابْ..
وينظم لهم النّاظمونْ..
قصائد الرّسوخ والبقاءْ..
من شعرٍ ونثرٍ كالغثاءْ..
والطّاغية لا يفكّرُ..
إلاّ في أمرٍ واحدْ..
يسعى له الأطباءْ..
بين ذكرٍ واحدْ..
وعدد لا يحصى من الإناثْ..
يصفون له الشارد والواردَ..
والدّاخل والخارج..
من مآكل ومقوّياتْ.

* * *

إذا أَراد الطّاغية أن يستشيرْ..
تشير بطانة السّوء من المستشارينْ..

بما أراد أن يشيرْ..
وإذا شكَّ في فردٍ مجهولْ..
يحيطون البلاد بالأسوار..
ويحققون مع كلّ الشّعبْ..
إذا رأى أن يسجن إنساناً..
يفرشون السجون بالأشواكْ..
أما إذا اشتاق لرؤية الدّماءْ..
فإنهم يحفرون له نهراً..
يسيلُ من دماء الأبرياءْ..
سبّ الجيران إعلامه ودعاياته..
طبول الحرب.. الحرب ملهاته..
أمّا إذا تذكّر أن يظهرَ متظاهراً..
أمام الناسَ والرعيّةْ..
أنه يتعبّد لربّ العبادْ..
فهذا معناه بالتحديدْ..
في عرف المنافقينْ..
الذين باعوا الدّينْ..
أنّه قد تفضّل بالصّلاة..
والصوم والحج والزكاة.
عندما يغيّرُ الناس ما بأنفسهمْ..
يقبل الله الدّعاءْ..
من مظلومة ساجِدة..
اغتصبوها فدمّروها..
أو من طفلٍ بريءِ قتلوا أباهْ..
أو من شابٍ يضجّ بالحياةْ..
عذّبوه.. تاه وضاعْ..

أو من كهلٍ متهالكْ..
حبسوا عنه الرّزقْ..
قطعوا عنه الدّواءْ..
عندما يقبلِ الله الدّعاءْ..
وينطرح الطّاغيةْ..
رمّة عفنة مشوّهةْ..
سيأكلها الدّود وتُعذّبْ..
في نهار وليل جهنّمْ..
فلا يبقى منها بعد ذلكَ..
إلاّ كوابيس مفزعةْ..
لمن عاشَ وجرّب..
عهد الطّاغيةْ..
في أيِ مكانْ..
في أي زمانْ.

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ي

فهرس الأماكن

هشام علي حافظ
جودت سعيد
خالص جلبي

كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد

عقلي .. صاحب الفخامة عقلي ..
صار يجدّف في بحر الظلماتْ ..
بأقلامٍ تمجّد الشيطانْ ..
تؤله الجبروت والطاغوتْ ..
في الصحف والمجلاتْ ..
في الإذاعات وفي التلفزيوناتْ ..
بالقهرِ والعهرِ ..
والتلاعب باللفظ والكلماتْ.

(من الكتاب)






ISBN 9953-21-041-1
9 789953 210414